

الشرق

دكتورة زبيدة عطا
بلاد

في
العصور الوسطى

بهنظمة وسلاجقة الروم
والعثمانيون



ملزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

والتوفيق من الله

التبرك في العصور الوسطى

بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون

ملف من الطباعة والنشر

دار الفكر العربي

مقدمة

الترك أحد الشعوب الرعوية التي عاشت في أواسط آسيا وقدر لها أن تلعب دوراً هاماً في تاريخ العالم ، ورغم أن أول ظهور لإسم الترك يعود إلى القرن السادس الميلادي حيث كونوا أول إمبراطورية لهم والتي ورد ذكرها في وثائق يزنطة في القرن السادس ، فإن يزنطة عرفت في فترة سابقة عددا من القبائل تندرج تحت الجنس التركي كالبغار والخزر والقفجاق والبورداس والماجيار .

ولقد بدأ إنتشار الترك وتوسعهم في جميع الاتجاهات بعد إنهاء إمبراطوريتهم في منتصف القرن السابع فاتجهت قبائلهم إلى وجهات عدة بعضها اتجهت إلى أراضي يزنطة والبعض إلى الأراضي الخاضعة للدولة الإسلامية .

ولقد تناول عددا من المؤلفات الإسلامية في المصور الوسطى بعض تلك الشعوب التركية التي دخلت إلى الحدود الإسلامية وأقامت دولاً تركية إسلامية كالسلاجقة والغزنويين والسامانيين فكتب عنهم البيهقي والزرخي والبنداري والراوندي ولكن الفترة التي لم تستوف حقها من الدراسة هي الفترة السابقة لدخول تلك الشعوب نطاق العالم الإسلامي ، فلم تتناولها إلا مؤلفات قليلة ككتاب قسطنطين بورجيتوس عن إدارة الدولة .

فذكر القبائل التي أحاضت بالإمبراطورية وأجناسها ومعلومات عن حياتها الأولى . وهناك عدد من مؤلفات الرحالة والجغرافيين المسلمين ولكنها ترجع أيضاً كما يرجع كتاب قسطنطين إلى فترة القرن العاشر الميلادي أو قبله بقليل كالبلخي وابن حوقل والأصطخري وإن كان يؤخذ عليها أنها لا تعمد تحديداً دقيقاً أما كتبهم أو قائلهم . أما أقدم النقوش التركية

فكان نقش آرخون الذى أورد بعض المعلومات عن إمبراطورية الترك الأولى .

ولما كان من الصعب القيام بدراسة شاملة لكل الشعوب والقبائل التركية فأننى جعلت دراسى قاصرة على دولتين تركيتين تنتميان إلى قبيلة الغز وهما سلاجقة الروم ودولة العثمانيين إلى سقوط القسطنطينية ، وكلا الدولتين قائمتا على أراضى بيزنطة فى آسيا الصغرى حيث توجد أهم ولايات الدولة ، ويستمد منها المدد البشرى من خيرة جند الإمبراطورية ومن مدها خرج عدد من أباطرة بيزنطة ، وفى مدينة نيقية التى اتخذها السلاجقة عاصمة لهم فترة ، عقدت أول المجامع الدينية المسيحية .

ولقد استطاع سليمان بن قلمش فى القرن الحادى عشر الميلادى اقتطاع آسيا الصغرى من جسم الإمبراطورية وأقام عليها إمارة كانت أطول ممالك السلاجقة عمراً فقد استمرت للقرن الثالث عشر ولم يقض عليها إلا المغول بعد معركة ابستين ، ولكن على أنقاضها قامت عدد من أمارات الغزاة قدر لأحدها وهى إمارة عثمان أن تكون دولة تركية جديدة لم تكف بالسيطرة على القطاع الآسيوى فى الإمبراطورية بل سيطرت على البلقان وامتد نفوذها إلى الجانب الأوروبى ولم يبق لأباطرة بيزنطة إلا عاصمتهم القسطنطينية التى ما لبثت أن سقطت تحت سيطرة العثمانيين ١٤٥٣ م ودخلتها جيوش محمد الثانى أو الفاتح كما اشتهر فى التاريخ ليحول مدينة قسطنطين إلى مدينة إسلامية .

ولقد قسمت الدراسة إلى تسع أبواب فأوردت الباب الأول للحديث عن العلاقات البيزنطية التركية إلى القرن الحادى عشر ، فذكرت ما أحاط بيزنطة من أخطار على حدودها وخاصة فى منطقة البلقان والبحر الأسود وإن أغلب القبائل التى هددتها آنذاك كانت ترجع إلى أصل تركى كالبلغار والقفجاق والغز والماجيار ، وحددت الأماكن الجغرافية لتلك القبائل

ثم عرضت لقيام الإمبراطورية التركية والقصص المختلفة التي وردت حول أصل الترك وقبائلهم ، وما ترتب على إنبهار تلك الدولة من هجرة القبائل التركية وإنتشارها وإنجاء جزء إلى أراضى بيزنطة حيث دخل في صراع أو تحالف معها ، وإنجاء جزء آخر إلى أراضى الدولة الإسلامية .

أما الفصل الثانى فكان عن ذلك الفرع من القبائل الغزية الذى إتجه إلى الأراضى الإسلامية ، وعن إنتشار الإسلام بين القبائل التركية فى بلاد ما وراء النهر والذى تم عن طريقين طريق الغزو الحربى وطريق التغلغل السلمى ، متخذاً عدة مظاهر كالتبشير والمدارس الإسلامية ، ولقد كان للسامايون دوراً كبيراً فى إعتناق عدد من قبائل الترك الإسلام ومن أهم تلك القبائل السلاجقة الذين اعتنقوا الإسلام على المذهب السنى واستطاعوا خلال فترة بسيطة الانتصار على الغزنويين ثم دخول أراضى الخلافة بل السيطرة على الخلافة نفسها بعد قضائهم على البويهيين ، وبوصفهم سنيين متحمسين كان عليهم إعلان الجهاد المقدس ضد أعداء الدولة وأولهم دولة بيزنطة المسيحية ، وفى معركة مازكرت لإنهزمت بيزنطة وأسر إمبراطورها وترتب على تلك المعركة انبثال الترك فى آسيا الصغرى . ولقد تعددت مصادر هذا الفصل بين إسلامية وبيزنطية فمن السلاجقة كتب الراوندى الرشخى البيهقى البندارى وعن مازكرت كتب ميخائيل بيليومن وأنا كومنين .

أما الفصل الثالث فقد عرضت فيه لقيام مملكة سلاجقة الروم على أيدي أحد الأمراء الثارين على البأسلان وهو سليمان بن قنلش حيث استطاع إقامة مملكة فى آسيا الصغرى إعتقاداً على إنبهار قوة بيزنطة بعد مازكرت ولقد استغل سليمان الصراع بين الأباطرة والقادة البيزنطيين لكسب أراضى جديدة على حساب بيزنطة ولقد استمرت الدولة بعد سليمان فى

توسعها وخاصة في عهد خليفته قلعج أرسلان مما اضطّر الإمبراطور الكيسوس للإستنجاد بالغرب وخير مصادر تلك الفترة أنا كومنين .

والفصل الرابع عرضت فيه لموقف السلاجقة وبيزنطة تجاه الحملات الصليبية ورغم نجاح الحملة الصليبية الأولى في إقتطاع غالبية آسيا الصغرى فإنها لم تقض على الوجود التركي هناك بل نمت بذور الخلاف بين الصليبيين والبيزنطيين . وهذه الفترة نجد أن مصادرهما تشمل مؤلفات يونانية وإسلامية ولا تفتية ففي مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية نجد وصفاً دقيقاً للعلاقات بين الأطراف البيزنطية والسلجوقية واللاتينية الغربية أثناء الحملات الصليبية .

أما الفصل الخامس فهو عن عصر القمة في التاريخ السلجوقي حيث استطاع الأتراك جمع شتاتهم وإلحاق الهزيمة ببيزنطة في ميروكيفالون وهذه الهزيمة لا تقل عن ما ذكرت وإن كانت أبعد أثراً فقد إنحصر نفوذ بيزنطة في آسيا الصغرى . ولقد اكتملت للدولة السلجوقية في تلك الفترة مقوماتها السياسية والحضارية ، وهذه الفترة تعاصر عهدي كل من عز الدين كيكاوس وقلج أرسلان ، ولقد ساعد سلاطينها على الاهتمام بأمورهم الداخلية لإنهاء بيزنطة وتمزقها عقب الحملة الصليبية الرابعة وإنقسامها لممالك عدة ولقد هزمت البقايا اليونانية إلى آسيا الصغرى حيث أقاموا عدداً من الممالك اليونانية هناك كملدكة نيقية وأمارة طرابزون . وأهم مؤرخي تلك الفترة روبرت كلاري وفيلهارودين من اللاتين ، ونيكتاس حونتيس من اليونان .

والفصل السادس يتعرض لإنهيار الدولة السلجوقية على يد المغول وتحولهم إلى أمارة صغيرة تابعة لإمبراطورية المغول عقب معركة أبلستين ويعدرشيد الدين الهمداني ويبرز الدوادار من أفضل مصادر تلك الفترة

أما الفصول من السابع إلى التاسع فتتناول تاريخ العثمانيين، فقد عرضت لإمارات الغزاة التي قامت على أنقاض الدولة السلجوقية وأهمها أماره عثمان، ثم ناقشت القصص التي وردت عن أصل العثمانيين، ثم سيطرتهم على القبائل الغزية وتوسعهم على حساب بيزنطة في آسيا الصغرى، ثم الجانب الأوربي لإعتماداً على إنهيار أوضاع الدولة البيزنطية منذ عهد أندرونيكوس الثاني حتى أصبح السؤال المثار هل ستسقط بيزنطة في أيدي العثمانيين أم على يد قوة غربية. ولقد حاول حكامها محاولات يائسة للاستنجاد بالغرب ولكن لم يلق نداؤهم اذناً صاغية رغم محاولتهم لكسب البايوية وإعلان الاتحاد بين الكنيستين الشرقية والغربية.

وفي الفصل التاسع والآخر عرضت لأحوال الدولة العثمانية والإمبراطورية البيزنطية عند تولية محمد الثاني وكيف أصبحت القسطنطينية الفاصل بين أملاك السلطان في آسيا وأوروبا. ولقد تعرضت المدينة للحصار عدة مرات كان آخرها في عهد محمد الفاتح وانتهى بسقوطها في أيدي السلطان ونحوها لمدينة إسلامية. وكتب عدد من مؤرخي بيزنطة عن مراحل ذلك الصراع منهم حنا كمتاكوزنيوس وفرايتز وكريغولوس الذي أوردت ملحقاً بمقتطفات من مؤلفه عن سقوط القسطنطينية التي كان معاصراً لأحداثها.

وفي النهاية أرجو أن أكون أوفيت الموضوع حقّه في الدراسة.

د. زيده عطا

فهرس الموضوعات

المقدمة

الفصل الأول

بينطة والترك إلى القرن الحادى عشر ٢٦ - ١

بينطة والقبائل المتبررة إلى القرن السادس — القبائل التركية
الأصل التى دخلت إلى حدود الإمبراطورية ومواقعها الجغرافية —
امبراطورية الترك الأولى — انهيار الامبراطورية وتفرق القبائل —
بينطة والخزر — البجناك — الماچيار — القفجاق — الغز .

الفصل الثانى

الترك فى آسيا الصغرى ٥٣ - ٢٦

أولا : الترك والإسلام — اتجاه القبائل الغزية إلى الحدود
الإسلامية — الفتوح الإسلامية لبلاد ما وراء النهر — التغفل
السنى — التبشير — المدارس — دور السامانيين — أول الدول
التركية الإسلامية (القراخانية) .

ثانيا : السلاجقة — أصلهم — علاقاتهم بالغزنويين — دخولهم
بغداد — توسعهم فى آسيا الصغرى — معركة مانزكرت .

الفصل الثالث

سلاجقة الروم ٦٨ - ٥٣

سليمان بن قتلش وتكوين المملكة السلجوقية فى آسيا الصغرى
— السلاجقة والصراع اليزنطى على العرش — دولة السلاجقة
بعد سليمان — الكسيوس كومننين وآسيا الصغرى

الفصل الرابع

سلاجقة الروم والحروب الصليبية ٩٨ - ٩٨

الحرب الصليبية الأولى — استنقاذ الكسيوس بالغرب —
هزيمة السلاجقة لحملة الشعوب — الصليبيون والسلاجقة — هزيمة
ضيرليوم — الخلاف بين بينظفة والصليبيين — السلاجقة وحملة ١١٠١ م
آسيا الصغرى بعد الحملة الصليبية الأولى

الفصل الخامس

عصر القمة في التاريخ السلجوقي ٩٩ - ٩٢٨

معركة ميروكاليون — السلاجقة والحملة الصليبية الثالثة —
العلاقات البيزنطية السلجوقية بعد سقوط القسطنطينية ١٢٠٤ م
السلاجقة والممالك اليونانية — امبراطورية نيقية — امارات طرابزون

الفصل السادس

انحيار دولة سلاجقة الروم ١٢٩ - ١٥٢

الغزو المغولي — المغول وآسيا الصغرى — مملكة سلاجقة
الروم كأمانة تابعة للمغول — معركة ابلستين — نهاية الدولة
السلجوقية — الامارات التركمانية في آسيا الصغرى (امارات الغزاة)

الفصل السابع

العثمانيون ١٥٢ - ١٦٤

أصل العثمانيين — سيطرة العثمانيين على امارات الغزاة —
توسع العثمانيين في اراضي بينظفة الآسيوية — التوسع العثماني
في الجانب الاوروبي من بينظفة — بينظفة والاستيلاء بالقرب —
بينظفة والبابوية

الفصل الثامن

استقرار العثمانيين في البلقان

١٦٤ - ١٨٧

مراد والصراع الداخلي في القسطنطينية — بايزيد وحصار
القسطنطينية الأولى — العثمانيون وعمالك البلقان — الصرب — البلغار
المجر — معركة كوسفو الأولى — العثمانيون والمغول — معركة
انقرة — حصار القسطنطينية الثاني — التحالف الأوروبي والبابوية
— الاتحاد بين الكتيستين

الفصل التاسع

سقوط القسطنطينية: محمد الفاتح وقسطنطين الحادي عشر ١٨٨ - ٢٠٦

تولى محمد العرش — سفارات القسطنطينية والغرب إلى السلطان
الجديد — بناء قلعة روملي هيسار — استجداد بيزنطة بالغرب —
الاتحاد بين الكتيستين الشرقية والغربية — الاستيلاء على
القسطنطينية — خطة الحرب: أولا الحصار ثانيا الهجوم —
سقوط القسطنطينية ونحوها لمدينة إسلامية .

الجداول — الملاحق — الفهارس

الجداول — الفهارس ٢٠٧ - ٣١٤

أولا : أباطرة الدولة البيزنطية . ثانيا : سلاطين السلاجقة
— سلاطين السلاجقة الأوائل — سلاجقة العراق — سلاجقة
الشام — سلطنة سلاجقة الروم .
ثالثا : سلاطين آل عثمان إلى سقوط القسطنطينية .
رابعا : أباطرة اللاتين في القسطنطينية ،
خامسا : أمارة أيرروس

سادسا : حكام البلغار امبراطورية البلغار الاولى .

سابعا : الإمبراطورية المقدونية .

ثامنا : مملكة البلغار الثانية .

تاسعا : الصرب .

عاشرًا : أمراء أرمينية .

٢٢٨ - ٢١٥

الملاحق العربية

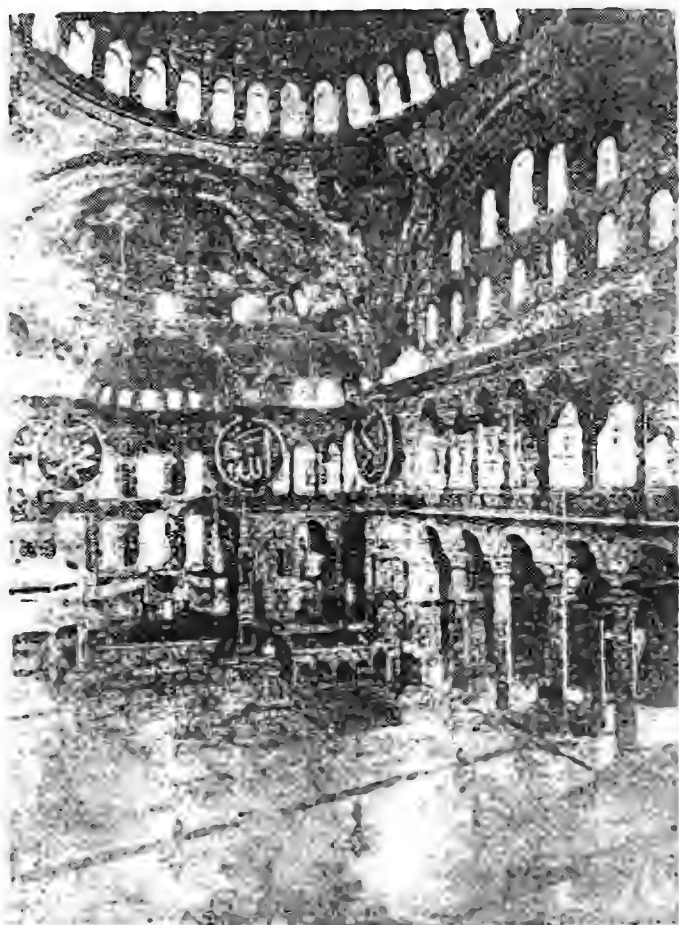
الملحق الأول : تلج أرسلان والحلة الصليبية الثالثة كما ورد
في ابن شداد (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية)

الملحق الثاني : ذكر ما اشتملت عليه المملكة الرومية من
البلاد الإسلامية أثناء سيطرة المغول كما ورد في بيدرس
الدوادار « زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ »

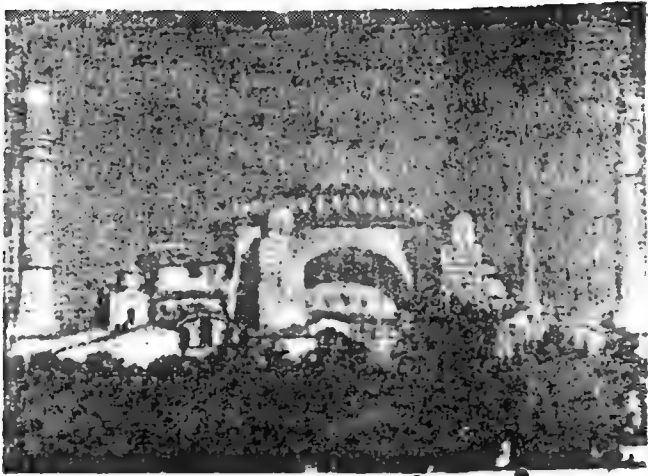
الملحق الثالث : معركة أبلستين كما وردت في جامع التواريخ
لرشيد الدين ابن فضل الله الهمداني

الملحق الرابع . الحملة الصليبية الثالثة ١١٨٩ - ١١٩٠
كما وردت في تاريخ أوتوسان بلاسين ،

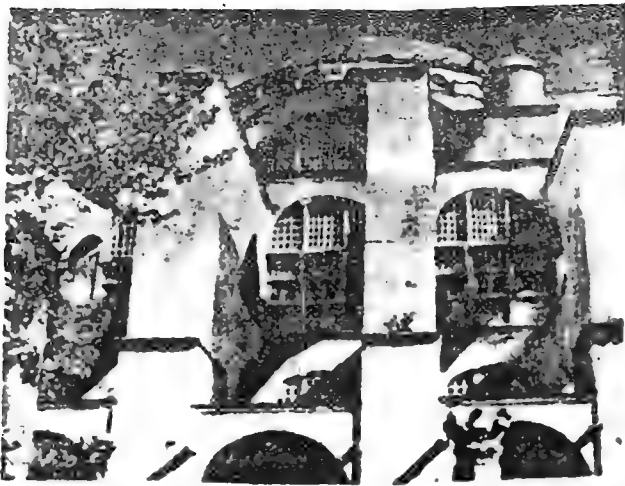
الملحق الخامس : سقوط القسطنطينية كما ورد في كتاب
كريتفولوس ، محمد الفناخ .



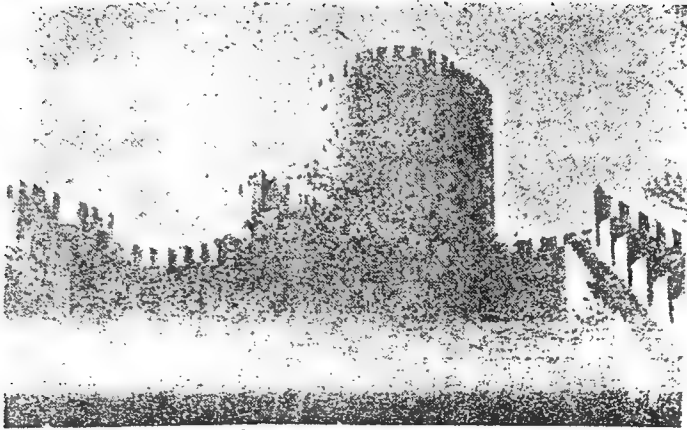
كنيسة أيا صوفيا بعد تحويلها لمسجد على يد محمد الفاتح



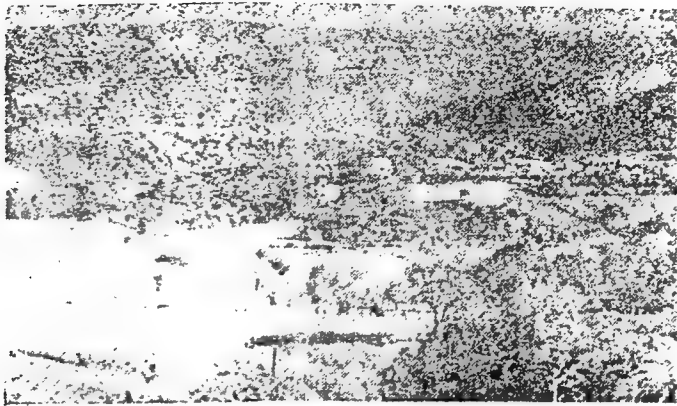
كنيسة آيا صوفيا كما تبدو سنة ٥٣٢ م



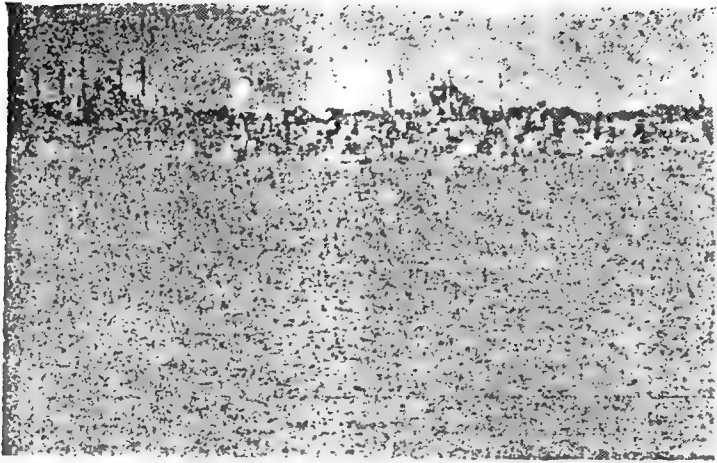
الكنيسة أثناء الحكم العثماني بعد إضافات معمارية تركية



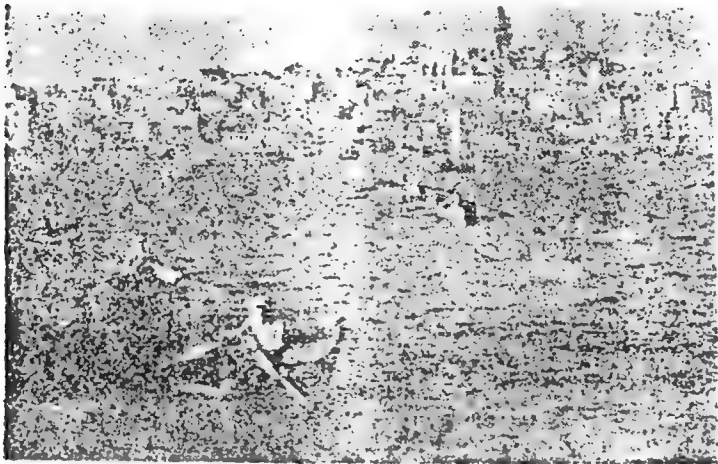
قلعة روملي هيسار التي بناها محمد الثاني ١٤٥٢



منظر لموقع القسطنطينية من البحر



القصر الإمبراطوري كما يبدو من بحر مرمرية



القرن الذهبي وقلعة غلطة ١٣٤٩ م

الفصل الأول

بنزلة والترك إلى القرن الحادى عشر الميلادى

فى عام ٣١٣ م اعترف الامبراطور قسطنطين فى مرسوم ميلان بالمسيحية كديانة مصرح بها وفى ٣٢٤ ، بعد انتصاره على خصمه ليسنيوس بدأ فى إنشاء عاصمته الجديدة على ضفاف البسفور واتى وصفت بسيدة الشرق وظلت تحمل اسم منشئها لأحد عشر قرناً . واتجاه الامبراطور إلى الشرق له دوافعه ، فروما تمثل حضارة وراث الوثنية القديمة وبها كثير من مؤيدى خصمه . فى حين أن الشرق به أعداد وافرة من المسيحيين إلى جانب كثافة سكانية ، وتوافر مصادر اقتصادية ، فلم يمرض الشرق لما تعرض له الغرب من غزوات الشعوب المتجبرة .

كما أن موقع القسطنطينية الفريد أكسبها مناعة وحصانة طبيعية فلم نستطع أى قوى أو جيوش معادية ضوال تاريخها اقتحام المدينة اتى تحررها الألهة إلا مرتين الأولى على يد الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤ م والثانية والأخيرة كانت جيوش محمد الثانى العثمانى فى ١٤٥٣ م تحولت بعدها إلى مدينة إسلامية . والمدينة على شكل مثلث غير متساوى الأضلاع يحيطها المساه من ثلاث جهات القرن الذهبى فى الشمال وبحر مرمرية فى الجنوب والبسفور فى الشرق يحيط بحر مرمرية بشواطئ أوروبا وآسيا ، ويمتد البسفور والدردنيل بوابتى القسطنطينية ومن يستطيع السيطرة عليهما يفلقهما فى وجه أى أنطول معاد ويفتحهما فى وجه السفن التجارية ، ولقد مكن موقع المدينة قسطنطين من الاحتفاظ بالولايات الشرقية حيث أن موقعها حال بين قبائل المتجبرين فى البحر الأسود وبين اقتحام هذا الحاجز المنيع ، إلى جانب أنه العاصمة لشغل مركزاً ممتازاً عند التقاء قارتين وتربط المواصلات بين آسيا

حواروبا وكذلك بين البحرين الإيجينى والأسود مما جعلها مركزاً تجارياً عالمياً .
ولقد أصبحت بين نطة لمدة ألف عام مركزاً لحياة عقلية وحضارية وأسهمت
بنصيب وافر فى التطور الحضارى والسياسى العالمى (١).

وبانشاء القسطنطينية ظهر إلى العالم ما يعرف بالدولة البيزنطية ورغم
أن تعبير بين نطة حديث يرجع إلى القرن الثامن عشر، فلقد ظلت بين نطة فى
فطر مواطنها دولة رومانية فليس هناك حد فاصل واضح بين الامبراطورية
الرومانية القديمة وبين الامبراطورية الرومانية التى اتخذت عاصمة لها
القسطنطينية فى الشرق، فلقد ظلت خلال القرون الثلاث الأولى رومانية
الطابع لاتينية الحضارة لها نفس الحدود السياسية للإمبراطورية الرومانية
القديمة ونفس اللغة والتقاليد . ولكن ابتداء من القرن السادس بدأت
تكتسب الطابع اليونانى لغة وحضارة واهتماما .

ولقد ورثت الامبراطورية الجديدة نفس الأخطار والمشاكل التى كانت
تواجه الإمبراطورية الرومانية فأحاطت بها الشعوب المتبربرة من جميع
الجهات فأحاط بها البربر فى غرب إفريقيا ، والجنوب الشرقى كان العرب
وفى الشرق الفرس وفى الشمال الشرقى من جبال أورال شعوب أسيوية
كالهون والمغول والترك ودخل الحدود الأوربية وجد السلاف والكلت .
وابتداء من القرن الرابع بدأت علاقة الإمبراطورية بتلك العناصر
البربرية تدخل طوراً جديداً حيث دخلت معها فى صراع مباشر واتخذ الهجوم
شكل غزوات منظمة هدفها الاستقرار فى أراضى الامبراطورية . وتعرض
شطر الامبراطورية الشرقى والغربى للهجوم ولكن تفاوتت درجته ، فإذا
كان الغرب قد خضع لغزائه فإن الشرق تاوم واستطاع الصمود أمامهم .

(1) Ostrogorsky History of the Byzantine state p41 (١)

John Hearsey, City of Constantine . p 2

Millingen Van . Byzantine Constantinople

Liddell, Byzantium and Istanbul p5

والقد واجه الغرب أخطر تلك الغزوات متمثلة في الغزو الجرمانى .
وعلاقة الإمبراطورية الرومانية بهم تعود إلى القرن الثانى الميلادى حيث
سالمهم الأباطرة الرومان ومنح أورليان القوط ٢٧٠ - ٢٧٢ أقليم
داشيا ، واستخدمتهم الامبراطورية كجنود وضباط في الجيش الرومانى .
ولكن ابتداء من عام ٣٧٥م بدأ هجومهم يتخذ طابعاً جديداً وهو غزوة
عامة مكثفة بعد أن كان مجرد هجوم تقوم به جماعات وقبائل صغيرة متفرقة ،
ووستستمر هذه الغزوات لمدة قرنين من الزمان استطاع خلالها الجرمان
الاستقرار وتكوين ممالك لهم في الجزء الغربى من الإمبراطورية .

وفي عام ٤٧٦م سقطت روما في يد أحد القادة الجرمان وهو أودواكر
جورغم اعترافه بالسلطان الاسمى للإمبراطور زينون فإن الغرب منذ ذلك
الوقت بدأ يأخذ خطأ تاريخياً منفصلاً عن الشرق ، ورغم محاولات
الإمبراطور جستنيان في القرن السادس استعادت الامبراطورية الرومانية
أجزاءها القديمة ، فإن نجاحه كان جزئياً^(١) . وانهارت أغلب فتوحاته على يد
اللماردار ثم الفرنجة . وبذلك أخذ الشرط الغربى ينسلخ تدريجياً عن جسم
الامبراطورية حتى استطاع ملك الفرنجة شارلمان الانفصال بالقسم الغربى
وإعلان نفسه إمبراطوراً على الغرب في ٢٥ ديسمبر سنة ٨٠٠م واضطرت
بيزنطة في عهد ميخائيل الأول وانجايه في سنة ٨١٢م إلى الاعتراف
بالأمر الواقع^(٢) .

أما الجزء الشرقى من الامبراطورية فكان الوضع يختلف عنه في الغرب
تماماً ، فالشرق لديه القدرة على المقاومة والصمود بما فيه من سكان وموارد
اقتصادية إلى جانب أنه لم يتعرض للهجوم الجرمانى بنفس الحدة والعنف
الذى تعرض له الغرب . فاستطاع الشرق التصدى له واستيعابه .

(١) أنظر Diehl : *Justinian*

Bury . *History of the Later Roman Empire* Vol 1p 69 (٢)

Bury . *Eastern Roman Empire* p325

ولكن الشرق تعرض لأخطار أخرى على حدوده الشرقية والشمالية
يتمثل أولها في الفرس العدو التقليدي للرومان . فالدولتان تشتركان في
الحدود الشرقية وكانت منطقة آسيا الصغرى المحاذية سياسياً وديقياً لبيزنطة
تمثل منطقة صراع بين الدولتين .

وبإتداء من القرن الرابع تعرضت لهجوم الفرس الدائم فاجتاحتها
الجهوش الفارسية في طريقها إلى قلب الأراضى البيزنطية^(١) . وفي هذه
المنطقة وعلى حدودها وجدت عدد من الشعوب والقبائل التي يقلب عليها طابع
البدواة . وكانت تنهم أثناء ذلك الهراج إلى أحد الأطراف وفقاً لما تمليه
مصلحتها .

ولقد استمر الهراج البيزنطى الفارسى يمثل أهم مشاكل الامبراطورية
إلى القرن السابع الميلادى أى إلى أن سقطت فارس في يد العرب . فوردت
العرب دور فارس كعدو تقليدى لبيزنطة ، وخاصة بعد انتزاعهم أغنى
ولايات بيزنطة الشرقية مصر وسوريا وتوغلهم في آسيا الصغرى . وأصبح
الهراج البيزنطى الإسلامى يمثل محوراً أساسياً في تاريخ بيزنطة ، ولقد
حاصرت الأساطيل الإسلامية القسطنطينية عدة مرات في عهد قسطنطين
الرايع في (٦٧٣ - ٦٧٩) وفي عهد ليون ٧١٧ - ٧١٨ م^(٢) .

ولم يكن الفرس إبان العصر الساساني (٢٢٤ - ٦٥١) العدو الوحيد الذي واجه
الامبراطورية الشرقية بل كان هناك عدد من الشعوب المتبربرة التي أحاطت
بالامبراطورية وخاصة على الحدود الشمالية في البلقان^(٣) . وفي البداية لم يكن

(١) حدثت الحدود الشرقية للامبراطورية في القرن الرابع وفق طامدين ويثليا خط
بحد من حدود كولجين على البحر ٧٢ - وود جل القراش .

Bury History of the Later Roman Empire Vol I p83
Chapot La Frontiers de l'Euphrate p183

Hannery City of Constantine p2 (٢)

Bury History of the Later Roman Empire vol I p283 (٣)

خطر تلك العناصر واضحا لأنها كانت متفرقة ، ولكن مع مرور الوقت بدأت تلك العناصر تستقر في جسم الإمبراطورية في البلقان . ومن هناك أخذت تتوسع في جميع الاتجاهات ، وفي فترة ضعف الإمبراطورية بدأ خطرها يصبح ملحوسا ^(١) .

ووجود الشعوب المتبررة على الحدود الشمالية يرجع لفترة متأخرة سابقة لقيام الإمبراطورية الرومانية فقد كانت منطقة الاستبس في جنوب روسيا موطن عدد من الشعوب الآسيوية التي هاجرت أصلا من آسيا الوسطى ^(٢) وقد قامت في القرن السابع ق م مجموعة من المستعمرات الإغريقية على شاطئ البحر الأسود وهي مستعمرات

Chersonesus, Theodosia, Panticapaeum, Olbia, Tyrus

وكانت تلك المستعمرات على صلة بمجموعة الشعوب المتبررة التي تعيش في هضاب روسيا وعرفوا باسم *Sarmatians, Scythians* وإلى الشمال الغربي منهم كان السلاف والفن *Finn* ولقد عمارست تلك الشعوب في البداية نخوعا من الضغوط على المستعمرات اليونانية وأجبروها في فترة من الفترات على دفع جزية .

وفي القرن الثاني والثالث الميلادي اندفعت هجرات جديدة إلى شمال البحر الأسود والجزء الغربي من الاستبس احتلته القبائل الجرمانية وخاصة القوط والجزء الشرقي احتله الهون الآسيويون . ولقد ظلت مملكة القوط لفترة قرنين في الهضاب جنوب روسيا وفي مناطق على حدود البحر الأسود ودخل القوط أراضي الإمبراطورية البيزنطية في البلقان واشتبكوا في صراع معها ^(٣) ، وفي ٣٧٥ م اختفى القوط من شواطئ البحر الأسود

(١) بالنسبة لجرمان أنظر Tacitus : *The Germans trans*

(٢) *Camb, Med Hist, Vol 2 p 323*

(٣) *Ostrogorsky, op, cit, p 47*

إلى البحر الأسود واحتلوا الأراضى شمال غرب البحر الأسود وجنوب
بروسيا ومولدافيا ثم اتجهوا للبحر ، وابتداء من القرن التاسع بدأت
صلتهم ببيزنطية .

Kajar : أحد الشعوب التركية التي ورد ذكرها في الحوليات البيزنطية
واحتلوا الأراضى المنخفضة في سالونيك وطردوا السلاف من شواطئ
الفسطولا .

الغز : كان الغز أحد العشائر التي كونت إمبراطورية القرن السادس
وبعد انهيارها في القرن الثامن تفرقت قائل الغز في اتجاهات مختلفة ، وفي
أواخر القرن التاسع وبداية القرن العاشر اتجهوا إلى مناطق الأورال والقوقاز .
وابتداء من القرن العاشر اعتادت الوثائق البيزنطية أن تشير إليهم كأعداء (١)
وذكر جغرافيو العرب أن بعض العشائر اتجهت إلى الأراضى المتاخمة
المسلمين وانتشروا بين بحر الخزر إلى أواسط بحرى سيرداريا حيث
اعتنقوا الإسلام . في القرن العاشر ، والسلاجقة أحد أفرع الغز (٢) :

ورغم أن جميع تلك الشعوب تنتمى إلى أصل تركي فإن ورود لفظ
ترك في الحوليات البيزنطية لأول مرة يعود إلى القرن السادس الميلادي (٣)
وهذا يحتم معرفة أصل ذلك الشعب الذى قدر له أن يلعب دوراً كبيراً
في تاريخ المنطقة بل العالم .

الترك : أحد الشعوب البدوية التي عاشت في آسيا الوسطى والتي تنتمى
إلى الجنس Altaic - ural في المنطقة التي تمتد من الخليج الفارسي إلى جبال
Kbir - gan وتنقسم إلى إقليمين بواسطة سلسلة هضاب التايامير وتيان شان

Baldwin. The Crusades. Vol I p 186 (١)

(٢) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ١٠٤

الراوندى : راحة الصدور ص ١٤٥

Vasiliev : op. cit. p170 (٣)

وهي نفس موطن كل من الشعبين المغولي والصيني، ومن الصعب تحديد الزمر الذي ظهر فيه الترك لأول مرة لأنهم لم يدونوا تاريخاً بلغة تركية في الفترة الأولى. فنقوش آرخون التي تعتبر أول ما دون بلغة تركية تحدثت عن الترك الذين كونوا إمبراطورية القرن السادس، أما أول تاريخ تركي مدون فكان تاريخ العثمانيين، أما اعتمادنا في الفترة السابقة للقرن السادس فهو على المصادر الصينية وكان الترك في هذه الفترة عبارة عن قبائل بدوية رعوية تعيش على حدود الصين وفي مناطق الإستبس في آسيا الوسطى، حيث اعتادت عدد من القبائل أن تتجول معا بحثاً عن المرعى فكانت قبائل المغول *yurta* إلى جانب الترك *Romanian, Catun, Khatun, khatonaul* تتجول معا ويرأسها أكبر أعضاء القبيلة سناً وأكثرهم امتلاكاً للماشية، وفي المرحلة التالية خضعوا للحكم خان وكانت اللغة التركية آنذاك سائدة بين عدة عشائر تركية وهي *Yakutish, Bashkirish, Nlrgbizlish, Uigurish, Tartarish* وعدد آخر من قبائل الترك الجمالة. ويذكر طومسون أنهم من سلالة الهياضلة الذين عاشوا في القرن الخامس. ولقد ذكرت المصادر العربية عدد من الأقوام التركية تبدأ بالبجناك في جنوب روسيا ثم تنتشر حتى حدود الصين وتتكلم بلغات متشابهة إلا البلغار في حوض الفلجا والخزر (٢).

ووفقاً للمصادر الصينية فإن أول مملكة تركية ظهرت في القرن السادس كانت حليفة لإمبراطورية *To - pa* الصينية وكانت إمبراطورية *To - pa* قد انشقت عن الإمبراطورية الصينية الأم وكونت إمبراطورية مستقلة في نفس الوقت الذي ثارت فيه عناصر *Yuan - Yuan* وهم الذين عرفوا في أوروبا فيما بعد باسم الآفار على سادتهم وحكامهم الصينيين وكونوا دول مستقلة، وإن ظلت فترة تحت سيطرة إمبراطورية *To - pa*.

(١) لزبد من التفاضل عن الحياة الرعوية الأولى لترك *Camb. Med. Hist. vol 1.*
P 333 .

Constantine porphyrogenitus: op. Cit p67 - 77

(٢) الطبري تاريخ الطبري ج ٧ ص ٣٢

ونقد استقرت بعض العشار بالقرب من البحر الأسود ، أما بقية العشار فهاجرت في النصف اثنى من القرن السابع ، وقد سبب البلغار ابتداء من القرن السادس للامبراطورية البيزنطية كثيرا من المشاكل فاضطر جستنيان لدفع جزية للبلغار Kutrigs في حين هاجم Utigurs المستعمرات البيزنطية على شاطئ البحر Cimmerian ولقد استعمل جستنيان وسائله الدبلوماسية عن طريق الإيقاع بين الشعبين إلى جانب إرساله لحماية بيزنطية في ٥٢٢ م أقامت على البسفور (١) .

الافسار : وهم أيضا ليسوا عنصراً تركياً نقياً ، خضعوا لسيطرة الصين فترة ثم استقلوا واحتلوا أراضي السلاف الشرقيين في جنوب روسيا ثم اتجهوا إلى بانونيا ومنها بدءوا التوسع في البلقان وكذلك تعاونوا مع السلاف في الهجوم على سالونيك ووصل نفوذهم من الدون إلى الدنيبر والسهول في الجنوب احتلها Dacian (٢) .

البلغار البيض - في الشمال الشرقي للخرز بين نهر Volga - Arel وهم البلغار الذين ظلوا في مواضعهم في حين هاجر الباقون إلى البحر الأسود وهم ثلاث قبائل Balger proper - Esegels - Barsuls .

الخرز : كون الخزر أول ولاية تركية منظمة استمرت للقرن الحادى عشر ، ففي بداية القرن السادس اجتاحتها أرمينيا وعبروا إلى القوقاز ومدوا نفوذهم إلى Araxes ثم اتجهوا إلى آسيا الصغرى حيث اشتبكوا مع الفرس وتعاونوا مع بيزنطة وأصبحوا حلفاء لها ، وهناك عنصر تركى آخر كان يدين بالتبعية للخرز وهم Burdas ولقد ذكر ابن رسته والمسعودى

(١) Diehl. justinien p 33

Vasiliev : The Byzantine Empire. p 196

Vasiliev : op cit. p 196 (٢)

Caston Gillard : op cit. p. 3 (٣)

أنهم يقيمون بجوار الخزر على نهر يحمل اسمهم وهاجروا أراضي البجناك والبلغار .

البجناك : بين هر Danu, yak كان عرسه تلاف وجنوبهم الخزر وشرقهم القفجاق والكومان وموطنهم الأصلي وفقا لرواية الامبراطور قسطنطين Porphyrogenet استبس وسط آسيا ثم اتجهوا جنوب روسيا واتخذوا ضريقتهم نوادي Tirrah وطرردوا Magyar من أوطانهم بين الدون والديبير ثم اتجهوا إلى البحر ، ويرجع سبب هجرتهم إلى ضغط الغز الأتراك على حدودهم الغربية وقد احتل البجناك مناطق واسعة على البحر الأسود وظلوا لفترة طويلة على وفاق مع بيزنطة وقاموا بالوساطة التجارية بينها وبين شعوب المنطقة وخاصة روسيا .

القفجاق : أطلق عليهم الروس اسم Polovtsy وريون والبيزنطيون أسموهم Gomans والعرب القفجاق وإن ذكروا عن الأدريسي تحت اسم القومان وم فرع من شعب الكيماك التركي وكانوا يعيشون عند نهر إيرتيش ويشغلون الأراضي التي تقع شمال الغز . وتمتد غربا حتى نهر الفولجا أو نهر Kama ولم يظهروا كعنصر فعال في تاريخ المنطقة ابتداء من القرن الحادى عشر حيث تردد ذكرهم في المجلات البيزنطية وكونوا أسرة حاكمة في القرن الثانى عشر هاجمت الأراضي الإسلامية إلى أن أسلموا عام ١٠٤٣ م نتيجة لصلاتهم بخوارزم (١) .

Magyar ، ذكر Vambery أنهم سلالة تركية سكنت شمال شرق حدود الترك التار وذكر ابن رسته أنهم يعيشون في المنطقة التي بين قبائل البجناك في الأورال وبين البلغار Penegelian وفي القرن التاسع هاجروا

(١) أورد عدد من مؤرخي وجراف العرب معلومات عن الترك وقبائلهم مثل المسعودى . مروج الذهب ومسان الجوهري وابن رسته . العلاقات القوية . الأساطيرى المسالك والممالك . - ابن حوقل المسالك والممالك ، الأدريسي أحسن التقاسيم . في معرفة الأقاليم .

اختلف العلماء في معنى الكلمة فالبعض يذكر أنه اسم لقبيلة مستقلة أو أسرة حاكمة . وذكر آخرون أن معناها القوة والأحكام . وفوش أرحون ذكره بمعنى قوم ومع ذلك فإن نقش أرحون وهو أقدم النقوش التركية لا يحدد تحديداً واضحاً القبائل التي تحمل اسم الترك . فلقد اتسع الاسم حتى شمل قبائل عديدة تسكن للتركية . كان الخاني يسمى قومه « التروك » والغزو التغوز ، ولقد ورد ذكر الآراك في الحوليات البيزنطية ابتداء من القرن السادس إلى بجانب شعوب تركية أخرى كالخزر والبيجناك والغز والكرومان حيث أفاضت في ذكر قبائلهم والممالك التي كونوها . وفي القرن العاشر ذكرهم الامبراطور قسطنطين بورجيتيوس في مؤلفاته وأطلقت المصادر الروسية على قبائل الغز الذين اتصلت بهم اسم ^(١) Torki . وكان الآراك الذين كنوا دولة القرن السادس ينقسمون إلى قبائل عدة ، في الشرق يوجد ال لولوس ، وأطارلوس وفي الغرب يوجد « توركش » إلى جانب الغز وعدد من القبائل التركية الأخرى أشهر هؤلاء القارلوق ، الياغور ، القرغيز وبعض العناصر التركية التي تحررت من سلطان Yuan - Yuan انجحت إلى غرب الاستس في جنوب هوسيا ثم إلى بانونيا وهؤلاء ما أطلق عليهم فيما بعد الآفار وهاجموا الإمبراطورية في البلقان وسالونيك . ولقد أطلق العرب في القرنين السابع والثامن كلمة الترك على أقوام من التفرأ بهم ^(٢) . وكانوا يتكلمون نفس اللغة التركية ، ونجد أن الأوربيين والروس في الأزمنة المتأخرة لم يطلقوا كلمة ترك إلا على السلاجقة والعثمانيين المنحدرين من الغز ولم يطلقوها على البيجناك Palovtsy .

ولقد ارتبطت الإمبراطورية بتلك العناصر التركية بعلاقات تتراوح بين العداء السافر والمخالفة ، وستتناول العناصر التركية الخاصة التي ارتبطت

Constantine : op cit. p. 77 (١)

بارتوك : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٩٠١

(٢) الطبري تاريخ الطبري ص ٧ من ٣٣ اللادري : دوح البدن ص ٢٠٢

بالامبراطورية بسلات وهي الخزر والجنك والكومان و *Magyar* ، الغز .
 الخزر: أحد الشعوب التركية النشطة التي كونت مع جبالية القرن
 السادس واحدة من الولايات التركية المنظمة التي استمرت حتى القرن الحادي
 عشر . وقد بدءوا استقرارهم في المنطقة باجتياح أرمينيا ثم عبروا إلى القوقاز
 ومدوا نفوذهم إلى *Araxes* ثم آسيا الصغرى وبذلك بدأ جداهم مع
 الفرس فأرسل إليهم الشاهنشاه الفارسي جيشا بلغ مقداره إثنا عشر ألف
 مقاتل ، ولكن استطاع الأتراك الانتصار عليهم واحتلال الأراضي بين
Araxes - Cyrus ثم اجتلوا ألبانيا ، واضطر قباز أمام المد التركي ولتأمين
 حدوده الشمالية لدسور من البحر إلى يواية اللان وأقام به ثلاث قلاع
 قرية بحمدية ، وقام خليفته كبرى أنوشروان ٥٣١ - ٥٧٨ م بإقامة سور
 حاجز على الخليج الفارسي وسمى العرب المدينة القرية منه باسم باب الأبواب
 وبالفارسية *Darb and* وهذا الحاجز يسير إلى جبال القوقاز وبلغ طوله
 حوالي ١٧٠ ميلا ومع ذلك اتخذ الخزر طريقهم عبر الدريند إلى بلاد الفرس .
 وفي الربع الأخير من القرن لسادس أصبح الخزر جزء من الإمبراطورية
 التركية التي كونها *Tumen* . وبعد وفاة *Tumen* خلفه ابنه *Basim* وباليونانية
Askin (٥٥٣ - ٥٦٩) وقد امتد نفوذه من أراضي *Shamia* إلى البحر
 الغربي ومن حوض نهر *Tarur* إلى قرب نهر *Kam* أونيس ، ولقد امتدت
 حدود الإمبراطورية في عهد خليفته *Khagan Djabul* بالتركية *Sinjobu*
 ولقد ظل الخزر على ولائهم صائلا كانت الدول التركية قوية (١).
 وقد أصبح الفرس العدو الأول للتوسع التركي ، وبما أن الفرس العدو
 التقليدي لبيزنطة كان من الطبيعي أن يتعدا ضد العدو المشترك (٢) ولأرسنر

(١) Vasiliev op. cit. p. 197

Ostrogorsky : op. cit p 73

(٢) قمبري : تاريخ بخارى ص ٤٩

خان الترك So - kin في سنة ٥٦٣ م . أثناء حكم جستنيان الأول سفارة
بيزنطية لإجراء تحالف ، وفي عهد جستين الثاني أرسلت سفارة أخرى في
سنة ٥٦٨ م وهي التي وردت في الحوليات البيزنطية وذكر فيها اسم الترك
الأول مرة وأرسل الترك مبعوثين من قبهم عبر القوقاز حيث استقبلوا
استقبالا حافلا من البيزنطيين ووضعت الخطط لإقامة تحالف تركي بيزنطي
ضد فارس (١) .

وهذه المعاهدة تضمنت إجراء تحالف في حالتي الهجوم والدفاع
واقترحت السفارة التركية على الحكومة البيزنطية أن يقوم الترك بدور
الوسيط في تجارة الحرير بين بزنطة والصين وبذلك بمنع تدخل الفرس ؛
وهذا ما كان يسعى جستنيان من قبل إلى تحقيقه . إنما الاختلاف الوحيد
بين الجانبين هو أن جستنيان كان يرجو تحقيق ذلك باستخدام الطريق
البحري في الجنوب (٢) ، وبفضل مساعدة الأحباش . على حين أن الترك
اقترحوا الطريق البحري الشمالي على أن المفاوضة لم تؤدي إلى إقامة تحالف
حقيقي ضد الفرس لأنه حدث في أواخر الستينيات من القرن السادس أن
انصرفت الإمبراطورية البيزنطية إلى ما حدث من تضرعات في الغرب
لا سيما في إيطاليا ، حيث هاجمها اللومبارديون ، إلى جانب أن جستين رأى
أن ما لدى الترك من القوة الحربية لا يكفي لتحقيق الغرض ، ومع ذلك فقد
أرسل سنة ٥٦٩ م Zimarchus مندوبا عنه إلى الترك وسار من قليقيا إلى
بوسط آسيا .

وفي سنة ٥٧٩ م أرسل البيزنطيون سفارة أخرى بمادة Vasiliev

(١) Vasiliev : op. cit. p 170

Bury : op. cit. vol I p 91

(٢) Diehl - Justinien Chapot : la frontière de l'Asie

L. Ephrat

الذى أعلنهم بتولى الإمبراطور الجديد تييريوس اثنا عشر العرش وقام فالنتينيانة
برحلة ثانية صحبه فيها ١٠٢ من الترك ، ولقد وجد في العاصمة البيزنطية بعض
الأتراك وهؤلاء هم الأفراد الذين صحبوا السفارات البيزنطية السابقة أثناء
عودتها . ووصل فالنتينيان إلى عرش خان الخزر في Turxunth في الاستبس
بين الفولجا والقوقاز وبما أن خان الخزر يعتبر تابعاً للخان الأكبر فتقرر
أن يذهب فالنتينيان إلى خان الترك ، ولكن أثناء وجوده في بلادهم قام عدد
من الترك بمهاجمة مدن كريميا وساعدتهم Utigun أمير .

ورغم أن التحالف مع بيزنطة ضد الفرس لم يأت بنتائج إيجابية فقد
ظلت علاقاتهم بيزنطة ودية^(١) . وقد استفاد الترك من الصراع البيزنطي
الساساني^(٢) فقد كان الساسانيون كما كان الأكمنين من قبلهم لا يستطيعون
وهم يخوضون غمار الحرب مع بيزنطة أن يحافظوا على حدودهم في الشرق
خافوا الترك من هذا الوضع فسلبوا حوض نهر جرجان الذي يصب حالياً
في بحر الخزر ولكن هذا أدى إلى نتيجة هامة فإذا كان الفرس لم يحققوا نصراً
عسكرياً ، فقد انتشر نفوذهم الحضاري . وكان تأثير المدينة الفارسية بدأ
يحل محل المدينة الهندية في وسط آسيا وخاصة لأن الفرس كانوا يسيطرون
على طرق التجارة العالمية ويتحكمون في نقل الحرير إلى الصين وباستقرار
الأتراك في أراضي فارسية . امتد تأثير المدينة الإيرانية ودخل بعضهم
الديانة الزرادشتية ، وبدل هذا على أن فارس كانت تؤثر بمدنيتها وإقتصادها
على جيرانها دون أن تقتصر عليهم عسكرياً^(٣) .

ولكن إمبراطورية الترك بدأ يذب إليها الضعف في عهد خلفاء Sianjib
ومع أن الخان الأكبر استطاع سنة ٥٩٧ م أن يخضع اتنورات التي قامت
حده بمساعدة ثلاث خانات تابعين له . إلا أن قبائل الخزر التركية بين

(١) عن العلاقات البيزنطية الفارسية ارجع
Ammianus Marcellinus : trans. Bayles

(٢) أميري تاريخ بخاري ص ٤٣

الفولجا والخليج الفارسي استطاعت أن تتحرر من قوة الدولة التركية عند بداية القرن السابع . وقد بلغت إمبراطورية الخزر أقصى اتساع لها من القرن السابع إلى التاسع ، ولقد ترتب أيضاً على ضعف دولة الأتراك أن خانات الترك الحاكمين في الغرب أصبحوا مستقلين استقلالاً تاماً وكان أتراك الغرب يشملون التركان في فارس وروسيا، والافجيم Afighem في تركستان وأذربيجان^(١) .

ولقد أصبح من حق خاناتهم أن يعقدوا المعاهدات دون أن يراجعوا في ذلك الخاقان الأكبر باش خان المقيم في الشرق^(٢) ، ورغم أن دولة الأتراك في الغرب Toukino لم تكن تبلغ في أواخر أيامها درجة المغول إلا أنها كانت متصل ثقافياً بالخارج وكانت واسطة لاتصال حضارة الشرق الأقصى بحضارة غرب آسيا .

ولقد استغل الخزر ضعف الدولة التركية وانجهموا بنفوذهم إلى البحر الأسود وحاولوا الاستيلاء على كرميان البيزنطية واصطدموا بالبغار . خلفاء بيزنطة . فع بداية القرن السابع اعتنق سيد الهون Orghana سنة ٦١٩ م المسيحية . وكذلك فعل خان البغار بعد أن حرر نفسه من سيطرة الآفار ، ولكن عند وفاة خان البغار أجبرهم الخزر على الاعتراف بسلطانهم ، فسات علاقهم ببيزنطة .

وبظهور العرب في القرن السابع وقيام الخلافة الإسلامية بالقضاء على الإمبراطورية الفارسية . كان من الطبيعي أن يستمر تحالفهم مع بيزنطة لمواجهة الخطر المشترك بالرغم من مصالحهم المتعارضة في Crimead ، وخاصة بعد أن قامت الجيوش العربية - زمن الخليفة عثمان

(١) Gaston Gillard : op. cit. p. 4

Danlopé - The History of Jewish Khazars p 172 (٧)

يذكر فامبري أن التبريد الصحيح خان بالق فامبري

بأنه يجب أن يرضى أن يمتدحها وأخذ حينئذ من أراضي الخزر ، وفي سنة ٦٩٠ م
اشتبك العرب بسبع الخزر ، وقتل آلاف منهم ، وعبر العرب بوابة الخليج
الفارسي وحكموا في القرن الثامن Crimea وكانت المدينة الوحيدة التي
قاومتهم خرسون ولكنها ما لبثت أن سقطت بعد فترة قصيرة (١) .

وفي عهد جستنيان الثاني ٦٨٥ - ٦٩٥ م ضراً تغير على العلاقات
البيزنطية الخزرية نتيجة للصراع على العرش البيزنطي فبعد حلع جستنيان
الثاني آخر أفراد أسرة هرقل سنة ٦٩٨ م لجأ إلى Daras في كرمينا وأرسل
الخان الخزري Vasi يستنجد به واستقبله أخان استقبالياً و زوجته أخته
ثيودورا ، وأقام جستنيان في Tamatach التي تخص الخزر ، ولكن
الامبراطور تيريوس أسبار طلب من الخان تسليمه ، فاستجاب الخان لطلبه
حرصاً على علاقاته الطيبة مع بيزنطة . ولكن ثيودورا حذرت زوجها
فهرب في الوقت المناسب إلى شواضي البحر الاسود وتلى ذلك استعادته
عرشه وبمجرد اعتلائه العرش أرسل إلى استدعاء زوجته الخزرية وابنه
منها الذي كان قد ولد بعد هروب والده وأطلق على الصبي اسم تيريوس
وعين كامبراطور مشارك ولكن لم يقدر له الحكم فقد قتل مع والده نتيجة
ثورة ، فقد قرر الامبراطور معاقبة الخزر لاستيلائهم على خرسون وأرسل
أسطوله ثلاث مرات لاستعادة المدينة . وحقق الجيش البيزنطي نجاحاً
محدوداً ، ولكن جيش الخزر اضطره لرفع الحصار على المدينة التي ظلت في
أيديهم إلى عهد ثيوفيل (٢) .

وخوفاً من انتقام الامبراطور أعلن الجيش والاسطول ثورة والتي انتهت

بقتل ٤٤

وما لبثت العلاقات أن عادت إلى ضيقتها الأولى حتى أن
ليو الايسورى طلب من خان الخزر ابنته كزوجة لابنه قسطنطين وبعد
اعتناقها المسيحية سميت أرزين وابنها ليون الذي أصبح يحمل اسم الخزري
حكم الامبراطورية ٧٨٠م وفي عهد جده جعل الخزر منطقة مستوية تسمى
Tait zakat .

وفي القرن الثامن حدث صراع بين الخزر والعرب دمرت نتيجة له
أراضي جورجيا وادمنيا ، والغريب أن مؤرخي العرب لم يذكروا الخزر
إلا قبل النصف الثاني من القرن التاسع ؛ وفي ٧٩٩م اجتاحت الخزر أراضي
ارمنيا بجيش كبير ولكن الخليفة هارون الرشيد استطاع طردهم وكانت
هذه آخر مرة تجتاح جيوش الخزر أراضي جنوب القوقازو آسيا الصغرى ،
ورغم عدائهم للعناصر الإسلامية فإن الفرق الرئيسية من الجيش الخزري
والسماة قراشيا كانت تتكون من حوالي ١٢ ألف مقاتل وأغلبهم من
مسلمى خوارزم ولقد ظل الخزر حلفاء أوفياء لبيزنطة إلى سقوط دولتهم
على يد برتسلاف الروسى فى القرن الحادى عشر .

في غم صلتهن ببيزنطة فإن المسيحية لم تنتشر فى بلادهم على نطاق واسع
فقد انتشرت انتشارا محدودا فى كل من القوقازو Crimea ، ولكن القليلة
التي كانت لها الغالبة كانت اليهودية وحتى الإسلام لم يلقى استجابة وانتشار
بينهم رغم وصول دعاته فى النصف الثانى من القرن العاشر (١) .

البجناك : Patziak وذكرتهم المصادر الصينية فى الفترة الأولى
تحت اسم Kong-li واطلق عليهم العرب اسم البجناك وذكرهم قسطنطين

(١) فى عهد ميخائيل الثامن ٦٨٠م ارسل ملك الخزر يطلب من الامبراطوران بيت اليه
بأشخاص يقومون بشرح العقيدة المسيحية فارسل بعثة تبشيرية يقودها كاهن يدعى قسطنطين
ونائب خان الخزر و سمندور ورم جهود قسطنطين واتباعه فلم يحرز نجاحا .
الباربرى : الدولة البيزنطية من ٢٦٨

Porphyrogenitus في كتابة De Administrand Imperio الذي ألفه في القرن العاشر . وتحدث فيه عن إدارة الامبراطورية مع دراسة الجغرافية البلاد الأجنبية والعلاقات التي تربط بيزنطة بالأمم المجاورة واستهل هذا الكتاب بفصل عن الاقوام التي تجاور بيزنطة من جهة الشمال كالبنجناك والروس ، والنزرو والحزور . ولقد ذكر قسطنطين انهم هاجروا من وسط آسيا إلى جنوب روسيا في المنطقة بين الفولجا والأورال ومع بداية القرن التاسع طردوا magyar من أوطانهم بين الدون والدينير وتحت ضغط قبائل الغز اتجهوا إلى الغرب ، واحتلوا أراضي السلاف في شمال غرب البحر الأسود وإن كانت بعض قبائل منهم بقيت وخضعت لسيطرة الغز ومن موطنهم الجديد هاجروا Crimea البيزنطية ، فرأت بيزنطة أن تستغل تلك الهجرة لصالحها وفي نفس الوقت تمنعهم من التوسع على حساب أراضيها فعقدت تحالفه معهم ضد أعدائها من الروس والبلغار ولم يقتصر التحالف على الجانب السياسي بل تعداه إلى الجانب الاقتصادي فقام البنجناك بدور الوسيط التجاري بين خرسون البيزنطية وبين الروس والحزور (٢) :

ولكن منذ القرن العاشر بدأ الوضع بين الطرفين يختلف وساءت العلاقة نتيجة لتحالف البنجناك مع الروس (٣) فتذكر الحوليات الروسية في عام ٩٤١ م تحالف البنجناك مع الامير الروسي ايجور ضد بيزنطة حيث حشد جيشا من عناصر مختلفة كالورنك والروس والبوليانى والمقالبية والبنجناك واضطر رومانوس ليكابندوس الا أن يعرض عليهم دفع جزية إلا أنهم رفضوا ، ولكن البيزنطيون استطاعوا الانتصار عليهم واجبار

Camb. Med. Hist. Vol 4 P ٤05 (١)

Vasiliev op. cit p323 (٢)

Ramboud op. cit p 378 (٣)

الحيش الروسى وحلفائه على التراجع وتوقيع معاهدة صالح تعهد فيها الطرفان بعدم الإعتداء وتجدد التحالف الروسى البجناكى فى عهد زمسكيس سنة ٩٧٠ م وأحرز القائد بارداس نصرا عليهم ووقعت أعداد كبيرة من البجناك فى يده وهزم الروس فى أدرنة (١).

وفى عهد باسيل الثانى ٩٧٦ - ١٠٢٥ م تجاوزت أراضي البجناك والامبراطورية نتيجة لإخضاع بين نطه لبلغاريا ولضغط الكومان عليهم ، ولقد رفض البجناك معاونة قيصر بلغار أثناء صراعه مع بين نطه خوفا من تعرضهم لنقض الامبراطور، وإن كانوا قد حاولوا فى عهد خليفته قنسططين الثانى الهجوم على الأراضى البلغارية ، ولكن الدوق البيزنطى لبلغاريا قنسططين ديوجين أنزل بهم هزيمة ساحقة (٢) ورغم ذلك فإن البجناك حتى منتصف القرن الحادى عشر لم يمثلوا خطرا مباشرا على الامبراطورية .

Magyer :- عنصر تركى آخر تداخلت أراضيه مع البجناك فى الأروال وذكر Vambery أنهم سلالة تركية وذكرتهم المراجع البيزنطية تحت اسم الترك والمصادر العربية . أطلقت عليهم ماجوريان وذكر ابن رسته أن مساكنهم الأصلية بين البجناك الذين يعيشون فى شكل قبائل فى الأروال وبين البلغار فى أرض البشكير Bashker . ومع بداية القرن التاسع هاجروا إلى شواطئ البحر الأسود وسكنوا شمال شرق حدود الترك التتار . وانجبت عدة عشائر منهم فى فترة سابقة إلى الأراضى الفارسية ولقد احتل Magyer فى البداية المنطقة

(١) Ostrogersky . op . cit p262

Camb. Med . Hist. vol 1, p205

Baldwin The Crusades vol . 186 (٢)

بين الدون والدنيير التي كانت جزءاً من أراضي الخزر واختلطت عناصر
منهم بالخزر ولكن طردهم البجناك فواصلوا الهجرة إلى الأراضي شمال
غرب البحر الأسود ووصلوا لجنوب روسيا ومولدافيا، ثم اتجهوا للمجر
وتحالف معهم الامبراطور ليو سنة ٨٩٤ م ضد البلغار^(١).

ولقد اتجهت عناصر منهم إلى إيطاليا ٨٦٩ م ثم اجتاحتوا موافيا
وبافاريا ولكن هزموا. وفي نفس الوقت اجتاحتوا ترافيا وتحالفوا مع البجناك
ووصلوا لأبواب القسطنطينية. ولقد طلبوا جزية من بيزنطة. وفي ٩٣٤ م
اضطر الامبراطور رومانوس ليكابونيس Romanus Lecapenus إلى إرسال
الشريف Theophanes إليهم لعقد مهادنة لمدة خمس سنوات وحاولت
بيزنطة كسبهم كحلفاء ضد البجناك^(٢) ولكنهم اجتاحتوا البلقان من ٩٥٨ -
٩٦٢ م. وفي ٩٦٧ م انضمت مجموعة منهم إلى الأمير الروسي Svyatoslav
في حربه ضد البلغار ولكن انتصر عليهم حاكم البلغار^(٣) Tarsimon. وما لبث
أن احتل البجناك أراضيهم على البحر الأسود فاتجهوا إلى المجر حيث
اعتنقوا المسيحية في ٩٧١ م.

القفجاق :- فرع من الكيماال الاتراك هاجروا من آسيا الوسطى إلى
المنطقة التي تمتد من نهر إيرتيش إلى نهر الفولجا ونهر Kama ولقد أطلق
عليهم الذين يطلقون اسم Cumania وأبتدأ من القرن الحادي عشر بدأت
هجرتهم الكبرى فاندفعوا إلى أراضي البيز الذين اضطروا تحت ضغط
القفجاق عليهم في الشمال إلى اتجاه بحر جنوب والغرب واستولى القفجاق

Camb. Med. Hist. vol 4 p205 (١)

Kamband. op. cit p. 232 (٢)

Camb. Med. Hist. vol 4 p205 (٣)

على الاراضى التى تركها الغز فى حوض نهر سيحون بعد هجرتهم إلى أراضي
البجناك فى جنوب روسيا ودخلت مناطق الإستبس فى نفوذهم وأطلق عليهم
الروس لقب Polovtsy ولم يكن القفجان وحدة سياسية متحدة بل كانوا
وحدات متفرقة يرأس كل منها خان وفى القرن الثانى بدأت الحوليات
البيزنطية تردد اسم الكومان كاعداة ولكن لم يشكوا خطرا حقيقيا ، وفى
نفس الوقت هاجم القفجاق المسلمين حتى اضطر المسلمون للاتحاد والكراچ
لصد غزواتهم واستطاعوا الاستيلاء لفترة على يدرند وشابه ران ولكن
نتيجة لصلة القفجان بالخوارزمين وتأثرهم بالمدينة الإسلامية فإن أعداد كبيرة
منهم دخلت الإسلام فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر (١).

الغز : - أحد الشعوب التركية التى هاجرت من أواسط آسيا وحضيه
الغز للصين ثم استقلوا عنها وانضموا إلى أمبراطورية Tamer (٢). ويقال
أن خانات الاتراك الغريين كانوا من الغز ومع ذلك فإنهم دخلوا فى صراع
مع أتباعهم من القبائل الغزية التى كانت دائمة الثورة (٣) ومع انهيار دولة
الاتراك فى القرن الثامن تفرقت قبائل الغز فى الجهات مختلفة فأتبعها بعضها
وفقا لرواية قسطنطين بورتوجنيتوس فى أواخر القرن التاسع وبداية
العاشر إلى مناطق الاورال والفولجا حيث طردوا البجناك واحتلوا تلك
المناطق وفى هذه الفترة بدأت صلتهم بالروس بعد عبورهم الفولجا لجنوب
روسيا وأطلقت عليهم المصادر الروسية Toriki ومنذ القرن العاشر اعتادت
الوثائق البيزنطية أن تشير إليهم كاعداة اعتادوا الإغارة على أراضيها رغم
دخول بعضهم فى الفرق الامبراطورية واعتناق عدد منهم المسيحية وفقا

Ramhaud ; op . cit p. 382 (١)

Camb . Med . Hist vol4- p185 (٢)

(٣) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٠٢

لمذهب الأرثوذكسى ويقال أن الغز فى الفترة الأولى من تاريخهم أثناء خضوعهم للصين تأثروا بالديانة البوذية ولقد اتجهت عشائر من الغز إلى الأراضى المتاخمة للحدود الإسلامية حيث التقى بهم جغرافيو العرب فى القرن العاشر، ولقد ذكرت المصادر الصينية أن الغز المقيمين غربا ينقسموا عشر قبائل وأن خمسا من قبائلهم شمال نهر ايلة وخمسا فى جنوبه ولقد تجاوزت الأراضى الإسلامية مع أراضى الغز حتى أن ثلاث مدن تركية من الخاضعة لسلطان الغز أسفل نهر جيحون وهى جند، خواره، بنفى كنت قد اعتنقت الإسلام، ولقد اشتبك الغز مع المسلمون عند نهر سيرداريا وكانت الغلبة للجانب الإسلامى، فاحتل القارلوق محل الغز عند ضفتى نهر جو ٧٦٦م ولكن فى القرن العاشر بدأت أعداد كبيرة من الغز المقيمين عند نهر سيرداريا تدخل الإسلام نتيجة لصلتهم بالخوارزمين وقام الغز المسلمون بمقاتلة من يحاورهم من الممالك التركية الوثنية... والغريب أن المسيحية وصلت أيضا إلى بعض قبائل الغز لاعتناق بعض أهل خوارزم المسيحية نتيجة لصلتهم بالخزر ولقد وصلت المسيحية لبعض المدن التركية منذ القرن الرابع الميلادى فحينما ذهب الأمير إسماعيل السامانى فى محرم ٢٨٠ ٨٩٣م لفتح طراز (طالاس) وجد أن جميع أهلها وأميرها يعتنقون المسيحية على المذاهب النسطورى ويقال أن المسيحية انتشرت فى المنطقة منذ القرن الرابع الميلادى (٢).

ولكن فى بداية القرن الحادى عشر عبر فرع آخر من الغز البدائى سنة ١٠٦٥م وكانت تلك العشائر قد تجمعت فى شكل هجرة شاملة فبلغ عدد مقاتليهم ستائة ألف مقاتل، وهذه الهجرة اتخفت وجهتها إلى الأراضى

(١) باوتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٠١-١٠٣

(٢) الرشخى تاريخ بخارى تحقيق عبد الحميد بدوى ص ١١٧

البيزنطية وذكرتهم المصادر البيزنطية تحت اسم *Ozes* ولم ينضم هؤلاء الغز إلى اخوانهم البجناك، بل بدؤوا في محاربتهم فهاجروا البجناك إلى شبه جزيرة البلقان وتبعهم الغز هناك حتى التقوا بالقوات الامبراطورية وهزموها واسروا اثنين من قادتها *Bataniate* , *Apoxapes* وذلك في عهد قسطنطين دوكانس تلى ذلك انقسام العشائر إلى عدة أقسام اتجهت جماعة منها إلى سالونيك وبلاد اليونان ولم يستطع الامبراطور مراجعتهم لانشغاله في عدة جهات في الغرب أو آسيا الصغرى حيث الترك السلاجقة^(١) فحاول استئالة رؤساء تلك العشائر ومنحهم الهدايا ودعوتهم لعاصمتهم لم تجدى تلك الوسائل بل كشفت عن عجز الامبراطورية فقرر الامبراطور الخروج بنفسه، ولكن انتقدت الامبراطورية بسبب عامل خارجي لم يكن لها به دخل، فالترك لم يحتملوا البرد القارس فانتشرت بينهم المجاعة والأمراض^(٢)، إلى جانب أن البلغار قتلوا عدداً كبير منهم وخضعت جماعات غزية لبيزنطية فانزلوهم بمقدونيا كما يفلحوا الأرض ويمدوا الجيش بالجند أى طبقوا عليه نظام *Themes* حيث يمنح الجند مساحات من الأراضي في مقابل الخدمة العسكرية^(٣).

وحظى قادتهم بكل رعاية من بيزنطة. ولقد دخلت فرق منهم إلى الجيش كمتطوعين وهذا يوضح أن جيش الامبراطور رومانوس ديوجانيوس الذي خاض به معركة ملاذكرد كان به عدد كبير من الغز.

وفي عام ١٩٧٣ م عاد الغز مع البجناك لمهاجمة الامبراطورية فانضموا للنيستور حاكم الدانوب التأثير على الامبراطور ميخائيل السابع

Baldwin . op. cit vol 1 p187 (١)

Baldwin op. cit vol I p 187)٢)

Ostrogorsky op. cit. p 301 — 303 (٣)

ولكن عند اقتراب المعتصب من القسطنطينية تخلوا عنه^(١).

ولقد استغل الغز والبجناك النزاع على العرش بعد عزل ميخائيل السابع لنهب أراضي الامبراطورية وتخريبها في البلقان والاناتول وكان كلا الفرقاء يسعى لضمنهم إلى جانبه مما أتاح لهم فرصة اضفاء الشرعية على اريادهم لأراضي بيزنطة واتهى الأمر بمقد صلح بينهم وبين الامبراطور نفقور بوتانياتس ولكن أخطر العناصر الغزية كانت تلك التي اتجهت إلى الجانب الإسلامى في الغرب ، واعتنقت الإسلام وقامت بمهاجمة أراضي بيزنطة بل اقتطاع آسيا الصغرى ونقصد بها السلاجقة^(٢).

ولم تكن صلة بيزنطة بالشعوب التركية قائمة على المحالفة أو العداء فقط بل استطاعت الامبراطورية الاستفادة من تلك العناصر باستخدامهم كقناتين وجنود في جيوشها ، كما حدث مع الغز وتوطنهم في مقدونيا . وكذلك مع قبائل التبتشجير والكومان الذين دخلوا الفرق الامبراطورية وسلاحظ أن الجيوش البيزنطية ابتداء من القرن العاشر تحوى مقاتلين من الكومان والغز والبجناك ولقد اتخذ بعضهم مساكن دائمة في ولاية الاناتوليك ، الاناضول ، واعتنق المسيحية ، بل إن المسيحية وصلت إلى موطن الترك في آسيا الوسطى ، ووفق رواية البيرونى وهو من علماء القرن الحادى عشر يذكر أن عددا من القبائل التركية اعتنق المسيحية عل المذهب الارثوذكسى واستخدمت بعض قبائلهم الأبجدية السريانية . وقد اعتنق

Baldwin : The Crusades vol I p136 (١)

Botangelates حكم نفقور الثالث Ostrogorsky . op. cit p313 (٢)

كل من البلغار والأفار و Mayger المسيحية ولقد ظلت تلك الشعوب لا تمثل خطرا حقيقيا على يزنطة إلى القرن العاشر .

ومنذ بداية القرن الحادى عشر بدأ الوضع يتغير فالجفاف بدأ يعم تركستان وبدأت القبائل التركية تتحول ونتجة للغرب ، واتجهت أنشط القبائل التركية وهم الغز بهجراتهم وجهة أخرى حيث أراضى الخلافة الإسلامية واعتنق عدد كبير منهم الإسلام .

الفصل الثاني

الترك في آسيا الصغرى

الترك والإسلام

بفتح العرب لفارس كان من الطبيعي أن تثر الدولة الإسلامية نفس الأخطار والأعداء الذين كانوا على حدود الدولة الساسانية . فالبيزنطيون في آسيا الصغرى ، وعلى حدود خراسان كان الأتراك .

ولقد عانى الساسانيون منذ القرن السادس من هجرات وغزوات الشعوب التركية وخاصة بعد قيام امبراطورية الترك التي كونها Tumen . وكانت أكثر الشعوب التركية ارتياد للأراضي الفارسية الخزر ، وخاصة في عهد قباذ وكسرى أنوشروان فتوغلوا في أراضي فارس بل وصلوا إلى آسيا الصغرى عن طريق الدربند . ومع انهيار دولة الأتراك الغربيين في القرن الثامن تفرقت القبائل التركية الخاضعة لها واتجهت وجهات مختلفة فاتجه عدد من تلك القبائل إلى المناطق المتاخمة لخرسان بالقرب من نهر جيحون ، وبذلك تجاوزت أراضي المسلمون مع أراضي الأتراك الغربيين وكان على العرب تأمين حدودهم ضد الخطر التركي إلى جانب أن المسلمون رؤوا فيهم أرضا خصبة لنشر الدعوة الإسلامية لبقاء غالبيتهم على وثنيته .

فطبيعة العلاقة بين المسلمين والأتراك تنقسم إلى قسمين الأول تم عن طريق الفتح والثاني عن طريق الاتصال الحضارى والدعوة السلية .

الفتوح الإسلامية لبلاد ماوراء النهر

اتجهت أنظار العرب منذ عهد معاوية إلى فتح بلاد ماوراء النهر

ولكن الغزوات الإسلامية الأولى كان الهدف منها سبر غور الأتراك وطبيعة بلادهم في عبارة عن هجوم خاطف لا يلبث أن يعود فيه العرب إلى خراسان يحملين بالغنائم، وكان أول ارتياد لأراضي تركية على يد عبدالله بن زياد في أواخر ٥٥٣ هـ وأوائل ٥٥٤ هـ (٦٧٢ م - ٦٧٣ م) فعبر نهر جيحون إلى بخارى واستولى على مدن بيكندورامين، ولقد قصدت له القوات التركية ولكنه أجبرها على التراجع. واضطرت حاكمة بخارى لمهادنته ودفع مليون درهم. فلما عزل وتولى سعيد بن عثمان أمر خراسان اشتبك مع عسكر الصفد وسميرقند وكش وتخش (١) الذين قدموا بجيعة بخارى ولكن تراجعوا دون قتال واضطرت حاكمة بخارى إلى إعادة البلع المقدم للعرب.

وفي ٥٥٦ هـ - ٦٧٥ م عبر نهر جيحون إلى وادي جيحون وبلاد الصفد (٢)، ثم اخضع مقاطعات نهر سيحون ثم فرغانة وخوارزم وكرمين. فشملت غزواته لإقليم ما وراء النهر ووصلت إلى الشاش وإقليم كاشغر مركز الأتراك الشرقيين.

وفي عهد يزيد بن معاوية تولى مسلم بن زياد بن أبيه إمارة خراسان فتجدد الصراع مع الأتراك واتحدت جيوش بخارى والصفد وقوات تركية من التركستان مع أمير ختن (٣) وحقق الجيش الإسلامي انتصارا كبيرا على الأتراك وغنموا الكثير واضطرت الخاقان صاحبة بخارى لدفع أموال عظيمة.

وإن كانت تلك الغزوات لا تمثل غزوا فعليا إنما السطح الحقيقي

(١) جمع هذه المدن بتركستان معجم البلدان

(٢) أبو بكر محمد بن جعفر الترسفي تاريخ غزواته ص ٩٠

(٣) الترسفي تاريخ غزواته ص ٩٠

تم على يد قتيبة بن مسلم الباهلي والى خراسان في عهد الوليد بن عبد الملك .
 و فبعد اخضاعه خراسان كلها تم على يديه فتح طخارستان ^(١) وعبر جيحون
 سنة ٨٨ هـ - ٧٠٦ م واستولى على بيكند و ختيون ^(٢) وتارب ، واجتمع
 جند الترك بقيادة ملك الصفد وانضم اليهم الملك كورمغانون بن اخته
 ملك الصين ، وأجبر الترك على التراجع واستولى على بخارى وكانت هذه
 رابع مرة يفوز هذه المدينة . ولقد استمرت فتوح قتيبة من ٧٠٥ - ٧١٥ م
 ففتح الصفد و خوارزم وسجستان وسمرقند وغزا أطراف الصين وفرض
 الجزية على من يسكن هذه المناطق وأصبح يلى بلاد ما وراء النهر و خراسان
 والى واحد .

ولقد نتج عن الصراع بين الأتراك الغربيين والمسلمين انهيار ملكتهم
 وانقسامها وظلت بلادهم حتى التي لم يصل اليها الفتح في فتن و قلاقل ، وهذا
 أدى إلى انصراف المسلمون في الفترة التالية لتأمين فتوحهم ضد غزوات
 الترك فأقاموا الأسوار والخنادق للمحافظة على البلاد الواقعة على الأنهار في
 الصفد وبخارى والشاش ، وباخضاع الآه وبين لدولة أترك الغرب إنجهت
 انظارهم إلى ما يلى وراء النهر حيث موطن الأتراك الشرقيين الذين
 كانوا بحسبهم موقعهم على صلة بالصين وحكامها ، ودأبوا على الاغارة على
 مناطق ما وراء النهر الخاضعة للمسلمين وكان وطن الأتراك الشرقيين يمتد
 من نهر شاما إلى البحر الغربي ، ومن حوض نهر Tarem إلى قرب نهر ينسى
 أى من منطقة ما وراء النهر إلى حتى السهوب الروسية وشرقا لحدود الصين
 ولقد ذكرت المصادر الاسلامية ثلاث اقوام من الترك في المنطقة من

(١) الترشيحي : تاريخ بخارى ص ٤٦٩

(٢) قرية في بخارى مجموع البلدان ج ٣ ص ٤٦٩

بحر الخزر إلى حدود الصين : النزر ينتشرون في الأرض المحتلة من بحر الخزر إلى أوساط مجرى سيرة ارايا ، القارلوق ينتشرون في الأراضي تمتد شرق فرغانة التفوزغز والطوقوز اغوز يسكنون الأراضي التي تبدأ من حدود أراضي القارلوق وتمتد حتى الصين^(١).

واتهز الأتراك الشرقيون فرصة الصراع الإسلامي للتوسع في بلاد ما وراء النهر فتذكر نقوش ارخون ان في السنوات بين ٧١٠ — ٧١٥ م أستولى الأتراك الشرقيون على دولة تورككش الغربية لفترة محدودة وانهم وصلوا إلى تمر قابوچ = الباب الحديدي بين سمرقند وبلخ وذكر البعض انه بين الصغد وطرخستان ، وأرسل الأمويون منذ عهد عمر بن عبد العزيز الحملات ضدهم على يد الجراح بن عبد الله ، وعبد الله بن معمر اليشكري . وفي عهد الخليفة هشام غزا مسلم بن سعد الأتراك الشرقيين وكان قد قطع النهر لحربهم ولكنه عزل وولى اسد بن عبد الله وطلب منه والى العراق خالده بن عبد الله القسرى الاستمرار في الغزوة فسار إلى فرغانة وأقبل خافان الترك حيث حقق الترك في البداية نصرا ، ولكن ما لبث العرب أن انتصروا وأسروا حاكم السغد وأحد القواد الترك^(٢) ، ثم غزا أسدا الغور وهي جبال هراء في ١٠٧ هـ وفي العام التالي غزا الختل ولكنه هزم ثم قاتلهم مسلمة بن عبد الملك ووصل إلى باب اللان ولقيه الخان في جموعه ولكن لحقت الهزيمة بخان الترك .

ولقد استغل الأتراك الشرقيون ما قام به الأشروس بن عبد الله السلمي والى خراسان في عهد هشام بن عبد الملك تجاه الأتراك في بلاد ماوراء النهر

(١) يارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٤٧

(٢) الذهبي : تاريخ الرسل والملوك ص ٧٤

فقد دعى أهل سمرقند وبلاد ما وراء النهر إلى الإسلام على أن توضع عليهم الجزية فأجابوا إلى ذلك فلما أسلموا وضع عليهم الجزية وطالبهم بها ، وتسبب هذا في عناسة الأتراك الهذليين إلى أن سبوا آلاف من أهل السغد وجسوا عن الإسلام واستجدوا بأتراك الشرق ، ولقد اشتبك أشروس وفطن بن قتيبة بن مسلم مع أهل السغد وبخارى وخاقان الترك الشرقيين وكان النصر في البداية حليف الترك ولكن استطاع المسلمون الانتصار على الترك في النهاية وهزيمتهم . ومالبث خاقان الترك أن عاود الهجوم على المنطقة قرب بخارى وانضم إليه أهل فرغانة وحاول الترك التفاوض مع المسلمين ولكن توقفت المفاوضات بمزل أشروس وتولى جنيد فتحديد القتال مع الترك وخاقانهم بالشعب وغزا جنيد طخارستان ونزل على بلخ .

ومع ذلك فإن أعنف الحملات على أتراك الشرق تعود إلى ولاية نصر ابن يسار على خراسان وبدأ عهده برفع الجزية عن أسلم . ولقد غزا نصرا بلاد ما وراء النهر ثلاث مرات . ففي المرة الأولى غزا بلخ ثم اتجه لمرو وفي الثانية غزا ورغش وسمرقند ثم غزا الشاش وسقط أحد خانات الترك الشرقيين وهو كورصول (١) وقتل ، واتجه نصر بعد ذلك إلى فرغانة في ثلاثين ألف ثم غزا عرشستان وغور والمختل وطبرستان وكان عدد من الترك من أهل الصغد نتيجة مقتل خاقان الترك في ولاية أسد قد غادر بلادهم ، ولكنهم أرادوا العودة إلى الصغد ثانية نتيجة لما سمعوه من من عدل نصر ، ففرقت الترك في غارة بعضها على بعض ، فطمع أهل السغد في الرجعة إليها وانحاز قوم منهم إلى الشاش ، فلما ولي نصر بن سيار أرسل

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٧٤

اليهم إلى المراجعة إلى بلادهم^(١) ، واستجاب لمطالبهم التي عدها بقيه المسلمين تعدى على الدين وعلى العدالة ، فراجع عن ذلك . وفي هذه السنة غزا نصر فرغانة غزوته الثانية وذلك في عهد الوليد ونذكر المصادر الصينية أنه في عام ٧٤٥ م انهارت دولة الترك الشرقيين وحل محلهم الايغور وكان المقر الرئيسي لخاناتهم يقع على نهر أورخون ولقد ظلت هذه الدولة إلى سنة ٨٤٠ م وانقرضت على يد القرغيز الزاحفين من الغرب ، وكان سقوط الممالك التركية في يد العرب فيه تهديد للصين وحكامها ، فاشتبك الصينيون مع الحكام المسلمين العباسيين الذين واجهوا الصين ، وانموا فتح بلاد الأتراك الشرقيين وهزموا الجيش الصيني في ٧٥١ م^(٢) .

ونقد استمر العباسيون في سياسة التوسع على حساب الأتراك الشرقيين وخاصة بعد أن أصبحوا جماعات متفرقة في عهود المنصور والرشد والمأمون ، وكان الترك في السغد يشعرون من آن إلى آخر على الحكم الإسلامي ولم تكن الخلافة تتردد في قمع الفتنة فتقضى أصهذ غيرستان العهد بينه وبين المسلمين عدة مرات وقتل من كان بيلاده من المسلمين وغزا المنصور فرغانة ولقد تقدمت الجيوش الإسلامية في السغد وأشروسته وفرغانة ووصلوا إلى أسوار الصين ورغم انتصارات المسلمين الحربية فإن أوائل تسليمة كان لها أثر كبير فوصلت إلى قبائل وشعوب تركية م يسها فتح .

التوسع السلي

كان الأتراك الذين كانوا دولة القرن السادس يعتقدون لعقيدة الشامانية القائمة على تناسخ الأرواح ووجود الهى الضوء والظلام^(٣) . وابتداء من

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٩٢ .

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(٣) Camb Med Hist vol 4 p 346 .

القرن السابع دخلت المسيحية والزرادشتية والمناوية الى وطن الاتراك وإن كان المبشرين النساطرة قد وصلوا إلى بعض المدن التركية قبل هذه الفترة^(١) واعتنقت بعض قبائل التغوز الزرادشتية وهي عقيدة الساسانيين واعتنق الايغور المناوية وكذلك أهل بلخ وطخارستان وهي محاولة للتوفيق بين المسيحية والزرادشتية والبوذية . وكانت المناوية أكثر العقائد انتشارا بين القبائل التركية ولقربها من البوذية لم يستطع مؤرخى المسلمين كالبيروني والمسعودي التفريق بينهما، فيذكر البيروني أن المناوية كانت منتشرة بين الترك انتشارا واسعا على حين يحزم المسعودي بأنها منتشرة بين الايغور وحدهم^(٢)

ولقد سعى المسلمون في الوقت الذي بدأت فيه فتوحهم لنشر الإسلام بطرق سلمية فارسل الخليفة هشام بن عبد الملك (٧٢٤ - ٧٤٣) سفيرا لأحد خانات الترك يدعو إلى الإسلام ولكن لم تاتي دعوته استجابة^(٣) ومع ذلك فقد حقق الإسلام والحضارة الإسلامية انتشارا عقائديا وحضاريا أكثر مما حققته حروبهم فنجد أن عددا من القبائل التركية بدأ يدخل الإسلام ، بل قامت مدن إسلامية تركية خاضعة لحكام غز لم يعتنقوا الإسلام وهي مدن جند . خوراه ، ينبغي كنت في القسم الأسفل من نهر سيحون وهذا يرجع إلى عوامل عدة :

أولها ظهور التبشير الفردي الإسلامى سواء في داخل العالم الإسلامى . أو خارجه مرتبطا بالتصوف الإسلامى فكانت حياة الصوفية ومناقبهم لها تأثيرها على الاتراك ولقد انتشر الإسلام في أماكن كان فيها بوذيون ومناويون ونصاري ، ويرجع هذا إلى تفوق العالم الإسلامى ماديا ومعنويا

(١) الترشيحي بخارى ص ١٤٥

(٢) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٤٩

(٣) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٤٩

على كل البلاد المتمدنية ، فالبدو في كل وقت بحاجة إلى حاصلات البلاد المتحضرة، وكان هؤلاء البدو بالفن البضائع الإسلامية ويتأثرون بطراز حياة المسلمين بوجه عام ، وكانوا يتأثرون كذلك بالإسلام لا من الناحية الدينية فحسب ولكن من الناحية المدنية أيضاً فالانضمام إلى العالم الإسلامي المتحضر لم يكن يمكننا إلا إذا دخلوا في الإسلام ، إلى جانب أن الخلافة العباسية أرست دعائها إلى خراسان وإقليم ما وراء النهر وكانت الدعوة قائمة على أساس أن ينال كل من أسلم حقوقه السياسية والمدنية دون النظر إلى جنسه وكان مما صرف الترك عن الإسلام وما أدى إلى ارتداد بعضهم في العهد الأموي فرض الجزية عن أسلم . ولقد ساعد على انتشار الإسلام وجود المدارس الإسلامية فاليها يرجع الفصل في أن الديانة الزرادشية قد زالت من بلخ وطخارستان سريعاً وإن ظلت متمسكة ببعض الوقت في بلاد ما وراء النهر .

ولقد لعبت المدارس الإسلامية في بلاد ما وراء النهر وخراسان دوراً كبيراً في نشر الإسلام وكان بعضها مستقلاً عن الحكومات القائمة . ودخلت أعداد كبيرة من الترك إلى قصور الأغنياء والخلفاء كغلمان وجواري لما تمتعوا بهما من جمال وقوة جسمية واستكثر منهم الخلفاء وأصبحوا يكونوا فرق حرسهم الخاص فالقالاتج والخالاج كانوا من الفرس (١) ومنذ عهد المعتصم تغلبت العصبية التركية فالمعتصم كان يميل إليهم إذ أن أمه تركية الأصل إلى جانب عدم ثقته بكل من العرب والفرس فاستكثر منهم حتى بلغ عددهم ثمانون ألفاً وأنشأ لهم مدينة سرمن رأى ومنذ ذلك الحين بدأ العنصر التركي يلعب دور رئيسياً في مقدرات الخلافة ولقد وصلت الابدلية

(١) البلاذري : فوج البلدان ص ٤٢٠

العربية إلى الترك في القرن الثامن . وذكرت المصادر الصينية أن قوافل المسلمين التجارية في القرن الثامن كانت تصل إلى القرغيز ولقد اهتم المسلمون بالطرق المؤدية إلى الصين وكثرت المعلومات في المؤلفات الإسلامية في القرن العاشر عن الطريق إلى الصين والأقوام التركية الساكنة بمحاذاته .

ولكن الفضل الأكبر في نشر الإسلام يعود إلى آل سامان الذين بسطوا سلطانهم على أواسط آسيا في القرنين التاسع والعاشر ٨٢٠ - ١٠٠٠م وكان سلطانهم يشمل بلاد ما وراء النهر وطبرستان والري والجبل وسجستان وكان السامانيون ينقسمون لأحد الأسر الفارسية القديمة وفي عهد الرشيد خرج زافع بن الليث عليه فأرسل إليه الرشيد هزيمة بن أعين وطلب من أبناء أسد بن سامان معاونته فأجبروا رافعا على عقد الصلح (١) ولما تولى المأمون أمر غسان بن عباد أمير خراسان بأن يولى أبناء أسد مدنا هامة من مدن خراسان وكان ذلك في سنة ٢٠٢ هـ ٨١٧ م وتولى نصر بن أحمد بن أسد بن سامان في عهد الواثق بلاد ما وراء النهر ٢٥٠ هـ - ٨٦٥ هـ (٢)

وفي عهد الأمير اسماعيل بن أحمد بدأ غزو بلاد الترك فحارب طراز وراحل كنيسها إلى جامع وعبر جيحون واشتبك مع الترك ومنحه الخليفة في ٢٨٠ هـ - ٨٩٣م البلاد من عقبة حلوان وولاية خراسان وما وراء النهر والتركستان والسند والهندوكركان (٣) ولقد قام السامانيون بنشر الحضارة الإسلامية بين الترك الوثنيين ، وأقاموا في بلاد ما وراء النهر مراكز ثقافية

(١) الزرخي : تاريخ بخارى ص ١٠٥

(٢) الزرخي : تاريخ بخارى ص ١١٧

ابن الأثير : المكمل في التاريخ ص ٢٨٠

هامة كانت عاملا هاما في صبغ الترك بالصبغة الإسلامية فخففت من خطرهم على العالم الإسلامي ولقد دخل عدد كبير من الترك في جيوش السامانيين ثم الجيوش الإسلامية عامة ولقد تعرضت الدولة السامانية لهجوم من عناصر كثيرة ضمت في أراضيها وأدت في النهاية إلى انهيارها، فتمرضت لضغط الديلم والمغوليين كما تعرضت لضغط البويهيين والغزنويين الذين استقلوا بالقسم الغربي من أراضيها وتلى سقوط السامانيون انقسام سلطانتهم بين الغزنويين وخانات الأتراك القرخانين المسلمين.

وفي القرن العاشر بدأت أعداد كبيرة من الترك تدخل في الإسلام فأسلم بلخار الفلجا وفي سنة ٩٦٠م أسلم ما يقرب من مائتي ألف خيمة من الترك. وتلى ذلك قيام أول دولة تركية إسلامية أقامها أتراك الشرق وهي الدولة القراخانية وكان أول ملوكها هو ساتوق بغراخان عبد الملك وكان يطلق عليه اسم آخر هو (قراخان) وسميت باسمه الدولة واتخذ عاصمة له مدينة كاشغر وقامت تلك الدولة بمحاربة أعداء الإسلام وخاصة من جاورها من الترك الوثنيين ثم نقلت العاصمة إلى بالاساغون ومن هناك حاولوا فتح بقية بلاد ما وراء النهر.

وكان من الطبيعي أن يصطدموا بالسامانيين وبالفعل اشتبك بغراخان مع قوات نوح بن منصور الساماني بعد الجورة^(١) فائق أمير خراسان من قبل السامانيون اليهم واستنجد بهم وكان ذلك في عام ٣٧٩هـ - ٩٨٨م وانهمز جيش نوح وقبض على أبيج الحاجب الذي أرسله ولقد استمر فائق والي خراسان في تحالفه مع بغراخان سرا وانسحب إلى سمرقند وتعبه بغراخان إلى بخارى فاضطر نوح بن منصور إلى الفرار وترك

بخارى التى استولى عليها بغراخان ولكن مالبث بغراخان ان توفى أثناء عودته لتركستان^(١).

وفى عهد أبو الحارث منصور بن نوح تجمد الصراع مع إيلك خان واستعاد إيلك بخارى^(٢) وفى عهد عبد الملك بن نوح بن منصور استولى إيلك على ماوراء النهر فى ٣٧٩ هـ - ٩٩٨ م وفر عبد الملك وقبض على امرائه وأقاربه وبذلك زالت دولة السامانيين. ولقد حاول المستنصر إسماعيل بن نوح أخو عبد الملك بعد فراره من سجن إيلك خان وذهابه إلى خوارزم . جمع جيش السامانيين وبعث الدولة ومقاتلة القراخانيين فحارب فى سمرقند جمعفر تكين أخا إيلك خان وقد أسر هو وجماعة من الأجناد على يد جيش السامانيين واستولى إسماعيل على عرش بخارى ، ولكن هزم فى النهاية وفر والتجأ إل الغز ، فأمدّه الغز بجيش وحاربوا إيلك خان فى بخارى وانتصروا عليه واستولى إسماعيل على بخارى . ثم خشي الغز بعد ذلك ففر من بينهم ليلاً واتجأ إلى سيف الدولة محمود والى نيسابور الذى سار إلى نجدته فى بخارى ، وحارب حامية إيلك خان وأخضع بخارى لإسماعيل ولكن داود إيلك المتهجم فاضطر لإسماعيل للفرار ودير جيحون ولكنه قتل فى سنة ٤٣٧ هـ و٩٨٦ م^(٣). ثم اتجه القراخانيون بعد ذلك بفتحهم إلى بلاد محمود الغزنوى ونشبت بينهم حروب خسر فيها القراخانيون بعضاً من أراضيهم فاستولى محمود الغزنوى على الولايات شمال جيحون وكازهدنه من ذلك ألا يتصل القراخانيون بالخلافة العباسية إلا بواسطة وهذا أدى إلى إتجاه القراخانيون بفتحهم إلى شرق تركستان حيث قرغوا لمخارة الأتراك^(٤).

(١) الرشخى : تاريخ بخارى ص ١٥٥ الذى : تاريخ اليبى ص ١٥٧

(٢) الرشخى : تاريخ بخارى ص ٩٤٧ ابن خلدون : المبرج ص ٤٦٣

(٣) الرشخى : تاريخ بخارى ص ٩٤٩ قامبى : تاريخ بخارى ص ١١٦ - ١٢٥

(٤) خوندمير : حبيب السير ص ٢٥ من ٤٩

ولم يكن دخول القراخانيين الإسلام هو النصر الوحيد بل كان اعتناق
 قوم آخرين من الأتراك الإسلام يعتبر بحق هو النصر الحقيقي ألا وهم
 السلاجقة الغز.

السلاجقة

كان ظهور السلاجقة نقطة تحول خطيرة في تاريخ الدولة الإسلامية
 والحضارة الإسلامية فقد كان العالم الإسلامي يعاني في القرن الخامس الهجري
 الحادى عشر الملبدى ، من مشاكل داخلية وخارجية تتمثل في الصراع
 بين الخلافتين العباسية والفاطمية . ثم ضمف العباسيين وسيطرة الفرس
 البويهيين عليهم إلى جانب توسع بنزطة على حساب الدولة الإسلامية في الشرق
 ولكن السلاجقة بقواهم الفتية استطاعوا استعادة وحدته السياسية و
 نفس الوقت الذى منحوا فيه الحضارة الإسلامية مظهراً وحيوة جديدة بما
 استحدثوه من أنظمة وقوانين^(١) .

وكان فتح وتترك الشرق الأدنى وخاصة الأناضول واحداً من أهم
 التغيرات السياسية التى أوجدتها الإمبراطورية السلجوقية^(٢) .
 والسلاجقة فرغ من القبائل الغزية التى اتجهت إلى الأراضى الإسلامية في
 الغرب حيث سيطروا على الوادى الأدنى لسيحون. ولقد اختلف المؤرخون
 على أصل التسمية فيذكر محمود الكشغرى أن رئيس الأسرة الغزية يسمى
 سوباش أى قائد الجيش، وذكر فامبرى أنه كان قائد لجيش أمير يدعى بعو
 والنصوص التركية تذكره Seltchiuk ولكن عدداً كبيراً من المصادر
 الإسلامية ذكر أن زعيم تلك القبائل كان يسمى سلجوق بن دقان^(٣)
 وهو الذى وحشد تلك القبائل ثم قام بالهجرة بها إلى أراضى

(١) Camb . Hist of Islam. vol I p281

(٢) عن السلاجقة أنظر . الراوندى : راحة الصدور وآية السرور الحسينى : المنابر

الدولة السلجوقية والبندارى : تاريخ دولة آل سلجوق وفامبرى : تاريخ غارى ص ٢٨

(٣) القرئزى : السلوك ١ - قسم ١ ص ٣٠

المسلمين ويبدو أن علاقته بالمسلمين الذين كانوا يسكنون نهر سيحون كانت وطيدة ولقد اعتنق الإسلام على المذهب السني ولكن هناك قارفا واضحا بين السلاجقة وقبائل الغز الأخرى فالعناصر القزبية الأولى سواء منها ماهاجم بينظرة أو دخل الأراضى الإسلامية كان عبارة عن فرق متفرقة ليس بينها رابطة ولا نظام ولا تشكيل هدفها السلب لا الاستقرار بعكس السلاجقة الذين كان يلقب قادتهم بالفاتح والامير وكانت قواتهم متفوقة نظاما وتشكيلا^(١) ولقد تعرض الغزنويون لغارات الساب التي قام بها الغز وإن كان السلطان محمود الغزنوى قد استعان بالتركمان في جيشه وفي غزواته للهند ولكن لم يكن من اليسير السيطرة عليهم فاضطر السلطان محمود حين ازداد طغيانهم إلى أن يلقى بهم بحد السيف في بلخان كوه . ولكن هذه الغارات على اتساع مساحتها ما كانت لتحث أى تغيير سياسى ذلك أنهم اعتادوا أن ينتقلوا من مكان لآخر دون أن يتركوا حاميات عسكرية ولا يقيموا دولا مستقرة^(٢) .

ولكن السلاجقة رغم أنهم في هذه الفترة كانوا ما يزال يظلب عليهم طابع القبيلة كانوا أكثر تنظيما ودراية من غيرهم من الترك . واتخذ السلاجقة قاعدة لهم مدينة جند في بلاد ما وراء النهر ويبدو أنهم استولوا عليها من حاكمها المسلم شاه ملك . وفي البداية انضم السلاجقة إلى جانب السامانيين ضد القراخانية الذين استولوا على بخارى وسمرقند ويذكر الزرخي^١ أن المستنصر اسماعيل بن نوح أخو عبد الملك آخر الحكام السامانيين حين حاول بعث الدولة السامانية واشتبك مع القراخانية لقي هزيمة شديدة ففر إلى الغز فأمدهه بقوات لمحاربة ايلك خان في بخارى وبفضل قواتهم انتصر على ايلك خان واستعاد بخارى ثم خاف الغز ففر من بينهم ليلا .

(١) عبد التميم حين سلاجقة إيران والعراق ص ١٩

(٢) البيهقي : تاريخ البيهقي ص ٣٤

وبعد انهيار الدولة السامانية تحالف القواخانيون مع السلطان محمود الغزنوى ضد السلاجقة ونتيجة لذلك حلت بالسلاجقة الهزائم^(١)، وفي تلك الاثناء توفي سلجوق وخلفه اربعة من ابناءهم^(٢) ارسلان، ميكائيل، بيغوا، موسى. ولقد قبض السلطان محمود على ارسلان بالخديعة ثم حبسه في إحدى قلاع الملتان بالهند إلى أن مات، وبعدها سمح للسلاجقة بالإقامة في إقليم خراسان في المنطقة بين نسا وباورد ولكن اشتكى منهم أهل هذه المنطقة فخارهم السلطان محمود وانتصر عليهم، ولكن تلى وفاة السلطان محمود وتولية ابنه مسعود محاولتهم التوسع في اراضى الغزنويين وكان مسعود قد استعان بهم لتدعيم جيوشه في نيسابور وكان يرأسهم ثلاث قادة هم قزل، بوقه، كوكناشى، وبعد تنفيذ المهام المطلوبة منهم انقلبوا وعادوا إلى سيرتهم الأولى من النهب والسلب، وضاعت نواحي الري والجلال بسببهم واستطاع الغزنويون اجلاءهم بعد جهد عنيف، ولقد سعى السلطان مسعود لنقل التركان من هراة ورحيلهم لغزنة فلما عرفوا بما يدبر لهم جاءوا إلى الري لخرسان وافسدوا في الأرض^(٣). ولقد ازداد سلطان السلاجقة إلى حد أنهم طلبوا من السلطان مزيدا من البلاد ليقيموا فيها. وكان من الطبيعي الا يقف الغزنويون أمام التغلغل التركي مكتوفي الايدي وقرر السلطان مسعود التصدى لهم والحد من توسعهم^(٤) ولكن جند مسعود كانوا مترفين ينفرون من الحروب، بعكس القوات التركية التي تغلب عليها روح القبيلة والفتوة، فالمعركة بالنسبة لهم معركة مصير فهزيمتهم تعنى انحصارهم في بقاع محدودة لم تعد تنسج للاعداد المتزايدة

(١) الذرخنى : تاريخ بخارى ص ١٤٩

(٢) يذكر اسيانا امراثيل يندو « ارسلان » ، ابن الاخير ج ٩ حوادث ٤٣٢ هـ

(٣) البيهقى تاريخ البيهقى ، ترجمة الخشاب ص ٦٨

(٤) البيهقى : تاريخ البيهقى ص ٦٣٤

(٥) الغزنوى الملوك ١٠ ق ١ ص ٢٢

لترك . واشتبك الفريقان في معارك عدة ، وفي البداية هزم السلاجقة في سرخس ، ولكنهم عاودوا الهجوم على الجيش الغزنوي الذي حاق به الهزيمة ٤٢٩ ١٠٢٧ م^(١) واضطر السلطان لقبول مهادنة السلاجقة والاستجابة لمطالبهم التي نصت على الاعتراف بما في أيديهم من أراضي وذكر البيهقي رسالة موجهة من السلاجقة إلى وزير مسعود نحن على ما رأى الوزير الكبير وأن عليه أن يبين عظمته حتى يذهب عنا غضبه فيمنحنا الولاية والأودية والمراعى لنسكن فيها ونبقى في دولته قائمين على خدمته وبهذا يستريح أهل خراسان من النهب وشن الغارات^(٢) ، فمنحهم نسا وباورد وهراه على شرط الا يتعرضوا للمسلمين ولكن ما لبث السلاجقة أن عاودوا التوسع فعاد طغرل إلى نيسابور وداود أقام في سرخس ، وذهب اليناليون إلى نسا وباورد .

في حين انصرف مسعود لحياته الخاصة ولهو غير عاين بما يحدث ولكن مع ازدياد غارات طغرل السلجوقي اضطر السلطان للخروج إلى ملاقاته سنة ٤٣١ عند مرو ولكن انتصر السلاجقة لتخاذل جند السلطان وتراجعهم بل انضم بعضهم إلى السلاجقة^(٣) وهزم الغزنويين في معركة الداندقان ، وأعلن طغرل نفسه واليا على خراسان ٤٣٢ - ١٠٢٧ م . وكتب الرسائل لخانات تركستان ولأعيانهم يتوهم بالفتح . ولقد انفقوا على أن يذهب طغرل إلى نيسابور وأن يستقر بيغوف مرو وأن يسير داود مع معظم الجند إلى بلخ ليستولى عليها وعلى طخارستان وأرسل إلى الخليفة العباسي القائم يطلب تقليدا بأمره ودعاه الخليفة إلى الحضور لبغداد ولم تجد محاولات مسعود لمقاومة السلاجقة فقرر الهروب^(٤) ولكن غلبته

(١) المقرئى : السلوك ١ - ص ٣٢ .

(٢) البيهقي : تاريخ البيهقي ص ٦٤٢ .

(٣) البيهقي : تاريخ البيهقي ص ٦٨٨ .

(٤) Enc. Isl. Art. Seljaks .

طمعوا في أمواله فانقضوا عليه وحبسوه في قلعة ماريككة وأمر الحاكم الجديد بقتل مسعود وتوابع السلاجقة في بقية الممتلكات الغزنوية في عهد خلفاء مسعود واتجهوا بعد ذلك إلى إيران الغربية فاستولوا على قزوین وأهر وهمدان وأذربيجان ثم اتجهوا لكرمان وأصفهان وبخارى وبذلك يكون السلاجقة قد سيطروا على إيران الجنوبية والشرقية وتطرقوا إلى إقليم الجزيرة ووصلت حدودهم إلى بزنطة .

ولقد اتخذ السلاجقة في البداية لقب شاهنشاه عند توليهم حكم خراسان ، ولكن بدخولهم إلى الغرب إلى أراضي الدولة الإسلامية اتخذوا لقب سلطان الإسلام وكان السلطان بلى الخليفة في المنزلة ، ودخل طغرل بك إلى بغداد ٤٤٧ هـ - ١٠٥٥ م وحل السلاجقة محل البويهيين في السيطرة على الخلافة ، وبحكم أنهم حماة الخلافة والإسلام ، وبوصفهم سنين متعصين فقد كانت عليهم جهاد أعداء الدولة والإسلام فحاربوا الغز أبناء جلدتهم وأخضعوهم لسلطان الإسلام ، وأخضعوا الثورات في فارس ، وحاربوا الفاطميين المخالفين للعباسيين في المذهب الديني واستردوا منهم بيت المقدس الرملة دمشق ، وتصدوا لبيزنطة أكبر الدول المسيحية آنذاك وتوغلوا في أراضيها .

فقام فرع من السلاجقة الاوهم ما عرفوا بسلاجقة الروم بالاتجاه إلى أراضي بزنطة واقتطاع آسيا الصغرى وتكوين دولة كانت من أطول

(١) ذكر البيهقي كيف أن السلطان تملكه الخوف وذكر على لسان وزيره أحمد بن عبد الصمد « أعلم أن السلطان شديد الخوف من هؤلاء الأعداء وقد حاولت عبثاً أحله على التجلد ، ولكن يئسوا أن الله قضى أمره وأنا غير قادرين على شيء بعد ذلك » وقد قرئ في نفسه أن داود لا عمالة فاصد غزته بعد أن هزم التوتاش وتكلمت كثيراً مبينا أنه ليس من المذلول أن يقصد داود بلداً آخر ولم يفرغ من بلخ ، وخاصة غزته ولم يكن كلاً من شاع سدى .

الدول السلجوقية عمرا إذا استمرت من (١٠٧٥ - ١٣٠٢ م) ويعود الفضل لهذه الدولة في تثبيتك المنطقة أى صبغها بالصبغة التركية والتهدد فيها بعد لدولة غزية أخرى استطاعت الاستيلاء على القسطنطينية نفسها وهى الدولة العثمانية .

السلاجقة وآسيا الصغرى

في ١٠٧٥ م وبعد خمس وثلاثين عاما من تكوين امبراطورية السلاجقة في فارس تأسست دوله سلاجقة الروم فى الأناضول على يد سليمان بن قتلش ، كنتيجة مباشرة لمعركة مانزكرت ٦٤٣ - ١٠٧١ م . ولكن توغل الغز فى الأناضول يعود لفترة سابقة على ذلك ، بدأت من ٥٤٠٩ - ١٠١٨ م ولقد اتخذت الهجرة التركية مظهرين الأول اتخذ شكل غزوات فردية وكان مجرد استطلاع وارتياح للمنطقة واستغرق الفترة من ٥٤٠٩ - ١٠١٨ م إلى ٥٤٢٣ - ١٠٤٠ م . أما الفترة التالية ١٠٤٠ - ١٠٧٥ م فقد كانت من الفترات الحاسمة فى تاريخ المنطقة ، انهارت فيها المقاومة البيزنطية ، وبدأ الفر فى الاستقرار فى بعض مدنها وقلاعها وكان تمهيدا لاستقرارهم الدائم فى آسيا الصغرى .

وآسيا الصغرى أو الأناضول تمثل منطقة حساسة وهامة بالنسبة لبيزنطة (١) تعرضت المنطقة لهجمات مستمرة من جانب الفرس منذ القرن الرابع الميلادى ، ثم لمحاولات الغزو العربى فى القرنين السابع والثامن . الأمر الذى أدى مع انتشار الأوبئة ، إلى نقص عدد السكان ، ومع ازدياد ارتياح الجيوش العربية للمنطقة كان على بيزنطة زيادة الاهتمام بأمنها فوضعت نظاما للدفاع يقوم أساسا على تشجيع العناصر العسكرية

(١) كانت آسيا الصغرى تضم أهم الولايات البيزنطية كاربونياك والديانوليك ، ومن مدنها خرج عدد كبير من الماطرة الدولة الآجانب المسلمة بشرى هام لند الامبراطورية

في مناطق الحدود ، وعهدوا بملكية تلك المناطق إلى القرى الجماعية وفي شكل مقاطعات كبرى تمكنها أن تمد الدولة بالجند اللازمين لها في حالة الحرب والسلام ، فأدى ذلك إلى تغير الوضع وعاد الأمن يسود المنطقة إلى حد كبير . وفي القرن التاسع كان نظام الدفاع هذا يتولاه أمراء ونبلاء عرفوا باسم Akrtia وكان عملهم ينحصر في مهاجمة أراضي الأعداء أو صد الهجوم وكانوا مستقلين لا يخضعون للسيطرة الفعلية للدولة ، وكانت أراضيهم معفاة من الضرائب ، بل أن الدولة كانت تكافئهم على خدماتهم وظل هذا النظام قائما طوال فترة الصراع البيزنطي الإسلامي^(١) .

وكان في الجانب الإسلامي نظام مقابل فاهتم الخلفاء بمناطق الحدود الإسلامية اهتماما كبيرا خاصة في مناطق أذنه وطرشوس والمصيصة وهي الحدود المشتركة مع بيزنطة . وكان المنشقون من الجانب الإسلامي والخارجون على سلطة الخلفاء يحدون الحاية عند أمراء الحدود Akrtia الذين كانت غالبيتهم تتبع الكنيسة الأرمنية المنشقة . ولكن بدأ نظام الدفاع الإسلامي ينهار منذ منتصف القرن التاسع حينما بدأ الضعف يدب في الخلافة العباسية وسيطرت عليها عناصر مختلفة من أتراك وفرس ، في نفس الوقت الذي بدأ فيه عصر الصحوة أو النهضة في التاريخ البيزنطي وخاصة في عهد نيقفور فوكاس وحنازمسكيس ولم تعد الحدود الفاصلة جبالا بل أراضي مزروعة فهناك حامية بيزنطية في انطاكية ، وعدد من المدن الأخرى . ولم تعد الحاجة ماسة لأمراء الحدود فبدؤا في توطيد سلطانهم على المناطق التي سبق لهم الحصول عليها في غزواتهم السابقة في الاناضول وظلوا شبه

Camb. Hist. of. Islam. vol I p. 231

(١)

Runicman The Fall of Constantinople p 22

Runicman ; op. cit. p 22

(٢)

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٩٠-١٩١ ذكر البلاذري نظام الموائف والتوائن .

مستقلين ، ^(١) وأحاطوا انفسهم بحجوش وكونوا أساس الارستقراطية التي اصطلحت بالامبراطورية في منتصف القرن الحادى عشر وفى نفس الوقت فإن محولات بيزنطة لبسط سيطرتها على مناطق الحدود فى ارمينية وخاصة تجاه الشمال اضعف ^(٢) نظام الدفاع .

وفى القرن الثانى عشر بدأت صلة بيزنطة بالأتراك تدخل طوراً جديداً . ففي هذه المرة لم يكونوا حلفاء كأتراك القرن السادس بل اعداء ^(٣) وهنا نفرق بين عنصرين من الأتراك ، دولة السلاجقة النظامية من جهة ، وقبائل التركان من جهة أخرى وإن كان عدد كبير من القبائل التركانية قد خضع لسلطان السلاجقة ، وأن دتبوا على القرد والثورة . وكانت أول المشاكل التي واجهت الامبراطورية السلجوقية كانت مشكلة أولئك التركان ، وإيجاد أراضى للأعداد المتزايدة منهم . ولقد اعتبر كل من ضغرل بك (٥٤٢٩ - ٥٥٠) ، ألب أرسلان (٥٤٥٥ - ٥٤٦٥) - وملك شاه (٥٤٦٥ - ٥٤٨٥) التركان من أشد العناصر خطورة على أمن الدولة وقانونها فوجههم إلى أراضى آسيا الصغرى وبذلك آمنوا أولاً من اجتياحهم الأراضى الإسلامية ثانياً دعموا قواتهم ضد بيزنطة ففتح الأناضول وتتركه كانت نتيجة لتلك السياسة واستجابة لتلك الاحتياجات . ولقد اتجه التركان بدعم من السلاجقة ، ولكن تحت رأسه بكوناتهم من أذربيجان إلى أقصى الشرق فى قلب وغرب آسيا الصغرى ، ونتيجة لهذا التوغل والاجتياح المستمر لأراضى بيزنطة ، فقد استطاعوا الاستيلاء على السهول والهضاب والمناطق المكشوفة بل على مدن بيزنطة هامة كإزروم ، ٥٤٤٠ - ١٠٤٨ م وقرسيا فى ٥٤٤٦ - ١٠٥٤ م ماطية ٥٤٤٩ - ١٠٥٧ م .

Runciman op cit p 221

(١)

Camb. Med. Hist. vol 4 p. 162

(٢)

Vasiliev. The Byzantine Empire p 359

(٣)

سوانس ٥٥٤١ - ١٠٥٩ ، قصيرة ٥٤٥٩ - ١٠٦٧ (١) قونية وعمورية
٤١٠ - ١٠٦٨ ، سوانس ٥٤٦١ - ١٠٦٩ .

ولقد ساعدت ظروف بينظرة التركان على تأمين فتوصلهم فما وقع من
الفتى بالقسطنطينية ، وما نشب في الحروب بين القادة البيزنطيين في أطراف
الدولة ، يضاف إلى ذلك عجز الحاميات البيزنطية المرابطة في حصون
حنيعة ، بأطراف البلاد عن السيطرة على الطرق المؤدية إلى داخل آسيا
الصغرى (٢) .

وأول إشارة إلى الترك السلاجقة تعود إلى عام ١٠٢١ م في عهد
الامبراطور باسيل . حيث قام السلاجقة والترك بمهاجمة أرمينيا ، فاضطر
حاكمها حناسباد إلى التنازل عن أمارته لباسيل وقبول شروطه مقابل
أن يظل ملكاً أثناء حياته (٣) ، وطلب الامبراطور من ملك الانجاز
(جورجيا) صد هجمات الأتراك السلاجقة الذين تعددت هجماتهم على أرمينيا ،
فكان مجموعهم مقترن بحدوث مجاعات ، وقد ازداد هجوم السلاجقة على
أطراف الامبراطورية في عهد ميخائيل البافلاجوني (١٠٣٤ - ١٠٤١ م) .

ولكن السلاجقة أصبحوا يمثلوا خطراً حقيقياً منذ عهد الامبراطور
قسطنطين التاسع ، ولقد أتاح لهم الامبراطور الفرصة للتغلغل في أراضي
بينظرة نتيجة سياسته التي انتهجها تجاه أرمينيا ، فلقد قبض الامبراطور
قسطنطين بوسائل الخداع على جاجك حاكم أرمينيا وأجره على التنازل عن

(١) الامبراطور باسيل من الأسرة المقدونية - ٩٦٦ - ١٠٢٥ م

(٢) Camb Med Hist vol.4 162

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ المجوع ص ٢٤٠

مدينة آنى (١) ، وعند استيلاء البيزنطيون عليها قاموا بالتككيل بأهلها ، وتعرض أمراء الحدود للنفي والقتل ، وأحل البيزنطيون حاميات يونانية مكان الأرمنية . وقاموا بتدمير العديد من المدن وتخريبها . ولم يمحوا للتترك رزنا وحسابا في خططهم لجهلهم بمدى قواتهم وخطوراتهم (٢) .

ولما علم طغرل بك بما أصاب أرمينيا من الضعف عاد إلى مهاجمتها وتدمير مدنها لسنوات عديدة ، واستباح مدينة سباد المنيرة وكل بسكانها ، ولقيت نفس المصير مدينة Ardzen التجارية غرب أروم ، وقرر البيزنطيون آخر الأمر التصدى للقوات التركية ، رغم قيام ثورة ليرتورنيكوس سنة ١٠٤٧ م . ولكن أحد قادة السلاجقة وهو ابراهيم بن اينال أحرز انتصارا باهرا على القائد حنا كومنين الذى تولى قيادة الجيوش البيزنطية (٣) وحليفه ملك جورجيا ليبارتيس الذى سقط أسيرا فى أيديهم ، وتلى ذلك توغل السلاجقة فى آسيا الصغرى فقاد طغرل جيشه وتقدم فى أراضي بزنطة وأرزن الروم وظاهر طرابزون ، وأرمينيا فيما بين فان وجورجيا ، وحاصر مازكرت فلجأت الحكومة البيزنطية إلى المفاوضة وطلب الصلح ، وكان من شروط هذا الصلح الإفراج عن حاكم جورجيا ، فيذكر ابن الأثير وقار يظ ملك الأنجا ، بذل فى نفسه ثلاثمائة ألف دينار وهدايا بمائة ألف (٤) . ومع ذلك فقد استمر طغرل وجموع التركان فى مهاجمة الامبراطورية فنهبوا قبادوقيا وملطية سنة ١٠٥٧ م ووصلوا لسيواس ، وعند تولية الامبراطور قسطنطين العاشر دو كاس (١٠٥٩ - ١٠٦٧) اقتحموا مدينة سيواس وأجروا فيها مذابح وحشية .

Cohen : Turkish invasions p147 (١)

Camb. Med. Hist vol 4 p165 (٢)

(٣) ابن الأثير : الكامل حوادث ٤٤٦ هـ

(٤) ابن الأثير : الكامل حوادث ٤٤٦ هـ

الفرىزى : السلوك ١٠٠ قسم ١ ص ٣٢

يذكر الفرىزى إن من شروط الصلح تدمير مسجد القسطنطينية وإقامة الخطة فيه لاطغرل

ولكن في عام ١٠٦٣م توفي طغرل وخلفه الب أرسلان سنة ١٠٦٣م —
 ١٠٧٢م فدخلت العلاقات مرحلة جديدة إلا وهي مرحلة الاستقرار الدائم
 في قلب الامبراطورية وعلى نطاق واسع ، فطغرل عند وفاته لم يترك ابنا
 وكان من الطبيعي أن يحدث نزاع بين أفراد البيت السلجوقي على خلافته
 ولكن أخاه جغرى الذى كان قد توفي قبله قد ترك عددا من الأبناء كان
 أكبرهم الب أرسلان الذى كان يحكم خراسان وما وراء النهر واستطاع أن
 يلبى العرش ، ويعترف به رئيسا للبيت السلجوقي ^(١) وكان لالب أرسلان
 أهداف أساسية واضحة يسعى لتحقيقها أولها التوسع على حساب القوى
 المعادية للخلافة السنية ليدو في نظر العالم الإسلامى المدافع في سبيل نصرته
 العقيدة الإسلامية ، وبذلك كان عليه التصدى للخلافة الفاطمية الشيعية في
 مصر ، ثم الدولة البيزنطية ولقد قلده الخليفة العباسى حكم كل ما يفتحه من
 البلاد خارج حدود دولته سواء كانت هذه البلاد في يد البيزنطيين أو الفاطميين
 الذين يخالفونه في المذهب ^(٢).

ولقد وجه الب أرسلان جهوده إلى بيزنطية بعد قضائه على الفتنه التي
 آثارها عمه ييغوه وعقده تحالفات مع بقايا القراخانيين والغزنويين وبدأ
 الب أرسلان غزواته من القوقاز بصحبه ابنه ملكشاه وانضم اليه أحد أمراء
 التركمان وهو طفتكين ^(٣) ، انفصل ملكشاه عن الجيش الرئيسى واتجه
 إلى بلاد الكرج (جورجيا) ، وهاجم عددا من الحصون فمرض حاكما
 الصلح مقابل دفع جزية ، في حين اتجه الب أرسلان إلى أرمينيا فحاصر آنى
 واستولى عليها ودمر قصورها ومعابدها وقتل آلاف من أهلها ، وامتدت

مفتوح الب أرسلان إلى أرمينيا الصغرى^(١) . وانفتح المجال أمامهم فهاجموا قبادوقيا وهاجمت القوات التركانية التابعة لألب أرسلان عمورية وقونية وقلقية وقيصريه ومضت في زحفها سنة ١٠٦٧ حتى بلغت ملطية وفريجيا ولم يستطع الامبراطور قسطنطين صد ذلك المد التركي ، ومع ذلك يقال أن جماعات من الترك دخلت في خدمة البيزنطيين واستغلواهم في فتح الفتن الداخلية .

معركة مانزكرت

خلف قسطنطين على عرش بيزنطة رومانوس ديوجنس ١٠٦٨ م — ١٠٧١ م وهو جندي قدير أثبت كفاية ومقدرة في حروبه ضد الغز والبجناك في عهد كل من قسطنطين التاسع والعاشر مما جعله يحصل على تأييد الحزب العسكري^(٢) . وقد بدأ عهده بإعداد جيش على أقدار من الكفاية ولكن غالبية كانت من العناصر المأجورة ، وهذا يوضح أن انتصاراته بين عامي ١٠٦٩ — ١٠٦٩ لم تكن حاسمة لأن جيوشه كانت تفتقر إلى التجانس والنظام ، في حين امتاز الجيش التركي بالسرعة والمقدرة على الحركة والمناورة وفي ١٠٦٨ اعترضت جيوشه جموع السلاجقة التي نهبت نيكسار وأجبرتها على ترك غنائمها . ثم اتجه إلى بلاد الشام حيث هاجم ارتاح ومنيج . واستغل السلاجقة الفرصة للتوسع في آسيا الصغرى فيما بين قيصريه وقبادوقيا ، واضطر الامبراطور للعودة لمواجهة لغياب حاكم أرمينيا Philaretia الذي لقي هزيمة على يد الترك عند ملطية . وفي ١٠٨٠ م هاجم الترك قونية

Grousset . Histoire de l'Aremine p 609 (١)

Cahen : Turkish Invasion p 147

Anna Comnena : Alexiad عن معركة مانزكرت (٢)

Trans Dawes, Book 1 p 7 - 8

Michael psellus : The Chronographia. trans Sewter. p 189

ابن الفلاس ذيل تاريخ دمشق ١١٧

ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٤٦ هـ — ٤٦٣ م

فأرسل الامبراطور القائد مانويش كومنين ، على رأس جيش بيزنطى ولكن
هزم عند سيوانس .

وفى ٤٦٤ هـ - ١٠٧١ م انتهى ألب أرسلان إلى حلبه لخلاف نصب
بينه وبين أميرها محمود المرداسى حيث أجبره على الاعتراف بسلطانه
ولكن أثناء عودته بلغته أنباء التجمعات البيزنطية فى مانزكرت قرب بحيرة
قان ، وكان الامبراطور قد جمع جيشا بلغ تعداد ما يقرب من ٣٠٠ ألف
مقاتل ولكن غالبية الجيش كانت من المأجورين من الفرنجة والنورمان ،
والترك والغز والبنجناك ، وكان من الطبيعى أن يفترق جيش مثل هذا إلى
الوحدة إلى جانب أن العصبية غلبت على المقاتلين الترك فانضم الغز أثناء
القتال إلى السلاجقة ، ولم يكن الجيش قد استكمل استعدادة عند بدء
القتال ، فقد جرى إرسال فرق من الجيش للحصول على المؤن ، وأخرى
للاستيلاء على خلاط (١) .

وفى ٤٦٣ هـ - ١٠٧١ م لحقت بيزنطة هزيمة ساحقة فى مانزكرت ،
ووقع الامبراطور رومانوس أسيرا فى يد ألب أرسلان الذى واثق على
إطلاق سراحه مقابل فدية كبيرة مع عقد اتفاقية نصت على أن يدفع جزية
سنوية للأتراك ، وإجباره على إطلاق سراح من وقع فى أسرهم من الترك (٢)
وتعهده بإمداد الترك بالمعونة العسكرية متى طلبوها وانفقوا على تقسيمات
إقليمية جديدة وتظل فى أيدى الترك آفى وفاسبوركان ومازكرت وتحفظ
بيزنطة بإقليم الأطراف Theodoriopolis ، وبعد توقيع تلك المعاهدة
عاد رومانوس إلى القسطنطينية ، ولكن فوجيء بعزله عن العرش ،
وأثناء فترة أسره فى أيدى السلاجقة تولت زوجته الامبراطورة أوديكسيا

(١) Ostrogorsky : op cit P 304 (1)

Grousset : op cit p 629

(٢) الراوندى : راحة الصدور ص ٢٨٩

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ حوادث ٤٦٤

ابن العبرى . تاريخ مختصر الدول ص ١٤٥

العرش مع ابنها الأكبر ميخائيل دوكاس ، ولكن أجبرت الامبراطورة في ١٢ أكتوبر سنة ١٠٧٧ م على دخول النير . و أعلن ميخائيل السابع اغتيالورا وعمل رومانوس كعدو للامبراطورية عند عودته للقاصية . وقيل الامبراطور تسليم نفسه في مقابل حصوله على عهد بالامان ، ولكن الامبراطور ميخائيل نقض وعده وسلمت عينا رومانوس .

ولقد اعتبر اب ارسلان ما حدث لرومانوس نقضاً للإنفاقية السابقة واصلًا ليد الترك في آسيا الصغرى ، وأصبحت الامبراطورية في وضع يشبه الوضع الذي كانت عليه عند بداية "فتح العرب" (١) .

ولكن في الفترة الأولى واجهت القوات الإسلامية الغازية خلفاء هرقل الذين امتازوا بالمقدرة والمهارة إلى جانب ما كانت تتمتع به الامبراطورية من مقومات ومصادر داخلية مكنتها من المقاومة والتصدي للعد الإسلامي أما الآن فإن كل شيء قد انهار تمامًا . كما انهار أيضا نظام الدفاع القائم على امتلاك الجندي للارض ، وأصبح سلطان السلاجقة القوى يواجه اميراطورا ضعيفا خلفه حاشية فاسدة .

ولقد ترتب على موقعه ما ذكرت نتائج هامة كان لها تأثير كبير على مستقبل بيزنطة والعالم الإسلامي والغرب الأوروبي .

فقد أثبتت تلك الحرب أن بيزنطة لم تعد حامية للعالم المسيحي الغربي وحامية لأوروبا من الغزو الإسلامي ، ولذلك كان على الغرب أن يواجه الموقف الجديد حتى قيل أن المقدمة أو التمهيد الطبيعي للحروب الصليبية . كانت ما ذكرت ، فيشير ولهم الصوري مؤرخ الحروب الصليبية أن هذه

الجزيرة كانت أهم عامل خدم الحركة الصليبية^(١)، وكان من نتائجها أيضا القضاء على التحالف البيزنطى الفاطمى بعد اضطراب يبرطة لمهارة السلاجقة وكان الفاطميون يمثلون حلفاء لهم أهميتهم في الشرق، ورغم أن الب أرسلان لم يستغل انتصاره ولم يعتبرها أكثر من معركة عابثة وانصرف فيها ترتيبه عليها بعض مكاسب أقليمية، فلم يحاول الاستيلاء على بقية آسيا الصغرى. أو تحطيم الامبراطورية البيزنطية، ومع ذلك فإنه تلى تلك المعركة تغييرات جذرية في آسيا الصغرى^(٢)، فلقد ترتب على انهيار المقاومة البيزنطية انتشار الترك في آسيا الصغرى بطريقة سريعة ومفاجئة مما أدى إلى تغير مستقبل السلالات الجنسية في المنطقة ويرجع بعض المؤرخين هذا إلى دخول أعداد كبيرة من سكان المنطقة في الإسلام^(٣).

وعلى كل فإن ترك المنطقة أو صبغها بالصبغة التركية الإسلامية استغرق عدة قرون فالسلاجقة كونوا أول هجرة تركية للمنطقة. أما الهجرة الثانية فقام بها الترك الذين هربوا قبل الغزو المغولى من وسط آسيا وفارس، حيث انتشروا في مناطق وسط الأناضول إلى شواطئه ولقد تم هذا خلال السبعينات من القرن الثالث عشر ورغم أن الدولة السلجوقية في الأناضول كانت تقوم في البداية على أساس قبلى فإنها سرعان ما ضمت فئات ونوعيات مختلفة، ولم تعد مقصورة على القبائل وضممت فلاحين، وتجار، حرفيين، رجال الدين^(٤).

أما بالنسبة لأرمينيا فقد رالت تماما الادارة البيزنطية في أرمينيا وقادوقيا بعد أن هجرها أهلها واستسلمت المدن للتركان بل التمس بعضهم

William of Tyre. Hist of Deeds Done Beyond thesee (١)
vol xx p 20

Grousset, Histoire de l'Armenie p 924 (٢)

The Camb Hist. of Islam. p 233 (٣)

The Camb. Hist of Islam vol I d 234 (٤)

حمايتهم وسمح الاتراك لهم بحكم بلادهم بأنفسهم ، إلى جانب أن نظام الدفاع البيزنطى الذى تولاه أمراء الحدود قد انهار وبدأ الجند الفلاحين المرباطين على الحدود يختلطون بالمسلمين ويأتسون إليهم وبذلك تعرض نظام الحدود البيزنطى إلى ضربة قاسية ، وخاصة أن يزنطة بعد هذه الهزيمة لجأت إلى انزال جند مرتزقة فى ارمينيا والرها ، ولم تحاول الاستعانة بالسكان الأصليين مما أدى إلى انبعاث الكراهية لبيزنطة فى تلك المناطق . ولقد ترتب على استيلاء الترك على اغلب الولايات الأرمنية فقد بيزنطية لمورد بشرى هام لجيشها فإن الأرمن كانوا يكونون فرقا أساسية فى الجيش البيزنطى .

الفصل الثالث

مملكة سلاجقة الروم

بعد عزل رومانوس ديوجينيس اعتبر البارسلان ان الاتفاقية البيزنطية التركية ملغاة وأرسل رسالة لرومانوس ينبأه فيها أنه سيجتاح اناطوليا انتقاما له . ولكن ما لبث أن توفي الب [رسلان ٤٦٤ - ١٠٧٢ هـ] وخلفه ابنه ملكشاه الذي استمر على سياسة ابيه في التوسع في اسيا الصغرى ولكن قيام مملكة سلاجقة الروم في الاناضول لا يعود إلى الدولة النظامية بقدر ما يعود إلى العناصر التركمانية المستقلة . والتركمان الذين أقاموا في آسيا الصغرى ينقسمون إلى قسمين التركمان الخالص الذين حرصوا على الاغارة على الكفار والذين كرهوا كل ما يتعلق بحكومه نظامية من افكار ، ثم التركمان الذين أقاموا في اسيا الصغرى دولة نظامية شبيهة بالتي أقامها بنو عمومتهم في ايران (١) .

والتركمان الأول كانوا يمثلهم الدانشمندين الذين استقلوا في سيواس وسيطروا على كل الطرق التي تجتاز شمال آسيا الصغرى (٢) وزاغراس الذي استقل بأزمير ومنجوشك وغيرهم ، على أن الفرق بين الفشتين لم يكن واضحا (٣) ، إذ أن قوة السلاجقة أنفسهم إنما تستند أساسا إلى التركمان ،

(١) Runicman : oP. cit p 223

(٢) Setton : Hist of the Crusades p213

(٣) Camb .Med : Hist Vol 4 p 331

ولأن قادة التركمان أنفسهم ينزعون إلى الاستقلال عن أمرانهم ، وما كانت يحدث عادة من المنازعات والمنافسات في كل معسكر بين الحاشية وسائر الأفراد يؤدى إلى التحالف بين الخصوم والواقع أن النضال بين السلاجقة والدانشمند ظل مستمرا معظم القرن الثانى عشر .

ولقد كان العامل الأساسى فى تكوين دولة السلاجقة الهجرة التركمانية التى نلت مازكرت وخاصة ان يزنطه اتخذت سياسة الحياذ تجاه السلاجقة نتيجة لما وقع فيها من أحداث داخلية ، من نزاع على العرش والتجاه الطامعين إلى السلاجقة لمساندتهم إلى جانب مناوئة العناصر النورمانية المساجورة ، ثم الصراع بين الطبقة الارستقراطية الحربية والطبقة الارستقراطية المدنية كل ذلك هيا للتركمان الفرصة للتوغل فى داخل آسيا الصغرى فبلغوا فى زحفهم بحر مرمرة ، والبسفور ، وبحر البجه (١) .

ورغم أن سليمان بن قتيلش ابن أرسلان يغزو مؤسس الدولة (٢) فإنه لم يكن بين القادة الذين أرسلهم الب أرسلان بعد مازكرت وعزل رومانوس لفتح الأناضول ، ولكن الاسم الذى يتردد كثيرا بين جميع أولئك القادة كان أرتوك بك واليه يرجع الفضل فى التوغل التركى داخل الأناضول فى ٤٦٤ هـ - ١٠٧٢ م هزم أرتوك بك جيشا يقوده اسحاق كومنين وأخذه

(١) — Setton . op .Cit Vol ١p.214

(٢) The Camb. Hist of Islam p234

خرج قتيلش على طاعة ابن عمه طغرل وانضمت إليه أعداد كبيرة من تركمان أبوه أسبر أفراد الأسرة السلجوقية فاعتبر نفسه أخق بملك من طغرل وقام أبناء قتيلش بالدعوة على الب أرسلان وانضمت إليهم العناصر التركمانية .

أميرا ووصل إلى شواطئ Sakarya تاركا قلب الأناضول خلفه^(١) . ولقد أناحت الثورة التي قام بها روسيل باليل Roussel de Bailleal قائد الثورمان المأجورين ضد ميخائيل الفرصة أمام أرتوك للتوسع على حساب بزنطة فقد أرسل الامبراطور عمه القيصر حنا دوكاس لإخضاع روسيل ولكنه سقط أسيرا في يده وأعلنه امبراطورا ، واتجه معه إلى القسطنطينية فاستنجد الامبراطور بمجيوش السلاجقة وحصل على معوتهم في مقابل أن يافتحونه من أراضي والتي كان قد استولى عليها المقتصب غم حق البقاء فيها ، وعن هذا الطريق استطاعوا التوسع في آسيا الصغرى والوصول إلى نيقية^(٢) . ولكن عند وفاة الب أرسلان بنشوب اخلاف على العرش جرى استدعاء أرتوك بك إلى الري عاصمة السلاجقة .

، فقد استغل سليمان بن قتلش هذه الفرصة المتاحة بانشغال كل من السلاجقة وبيزنطة في مشاكلهم الداخلية للتوسع في آسيا الصغرى ، وكان أبوه قتلش قد لقي هزيمة في ٤٦٥ هـ - ١٠٦٤ م) على يد الب أرسلان ، وأبعد أبنائه سليمان ومنصور إلى الحدود البيزنطية ، فقاموا بجمع القبائل التركمانية حولهم في الأناضول بعد مغادرة أرتوك بك ، وكانت غالبية القبائل التي انضمت إليهم من قبائل Yavgyan النائرة ضد طغرل والب أرسلان وكانوا في حاجة لأمير يقودهم . وأول ورود لاسم أبناء قتلش في المراجع الإسلامية كان في معركة في سوريا اشتبكوا فيها ضد اقسيز بك القائد التابع للملك شاه وقد حاولوا إقامة تحالف مع الخلافة الفاطمية المناوئة لسلاجقة فارس . ولكن

(١) Camb. Med. Hist. vol 4 p214

(٢) ذكر Setton أن سليمان لا أرتوك بك الذي عاون الامبراطور ميخائيل

Setton op. Cit. vol P332

لم يحقق سليمان نجاحا في قطاع الشام فركز جهوده في آسيا الصغرى . وفي ١٠٧٥ حاصر حلب وانطاكية في طريقه إلى الأناضول وانضم إليه أحد القادة الترك وهو توتاق الذي كان قد اتجه إلى يثينا على رأس جيش مكون من عشرة آلاف مقاتل ، وانضمت إليهم جموع التركان في آسيا الصغرى .

وساعد تطور الأحداث في بيزنطة زمن ميخائيل السابع على توسع سليمان في أراضيها كما ساعد أرتوك من قبل نتيجة للثورات التي قامت بها الأرستقراطية العسكرية ضده فطلب الامبراطور المساعدة من سليمان مرتين الأولى ، حين ثار عليه نفقور Byrennius دوق دراخيوم الذي خرج في سنة ١٠٧٧ من موطنه في ادريناوبل واتجه إلى أسوار القسطنطينية ولكن بمصل القائد الكسيوس كومنين وسليمان أمكن القضاء عليه^(١) ، والثانية كانت حين ثار نفقور Botoneiotes قائد ثغر الأناطوليك^(٢) فاستعان ميخائيل بفوات سليمان وبدخول السلاجقة إلى الجيش البيزنطي بدأ استقرارهم الدائم في أراضي بيزنطة ، فقد تخلى سليمان وأخوه منصور عن ميخائيل وانضيا إلى Botaneiates الذي أعلن نفسه امبراطورا في ٧ يناير سنة ١٠٧٨ م وأدخلهما بوتانيا توتوس إلى نيقية ، وبعد ذلك عاونوه في الاستيلاء على نيقوميديا ، وخلفدوني وكريسوبوليس وانفجرت ثورة في العاصمة أجبرت ميخائيل على الذهاب إلى الدير وأعلن نفقور بوتانيا توتوس امبراطورا ، فلما حاول الامبراطور اجلائهم عن الأراضي التي دخلوها أعلنوا راية العصيان ، وأعلن سليمان نيقية عاصمة - ١٠٧٥ م ، وليس أدل على ضعف بيزنطة في تلك الفترة من أن سقوط نيقية التي لعبت دورا خطيرا في تاريخ

(١) Cohen : Turkish Invasion p150

(٢) Grousset : Histoire der Armeni p628

بينظة والمسيحية ، حيث عقد بها العديد من المجامع المسكونية الأولى إلى جانب موقعا وقربها من القسطنطينية (١).

لم تذكر المصادر البيزنطية هذا الحدث إلا في اشارات عابرة . وانضم السلاجقة إلى نفقور Melissenus الذي أعلن الثورة في نيقية ضد الامبراطور وانفق مع السلاجقة على استيلائهم على نصف ما فتحوه . في عهد نفقور بوتنايتوس في مقابل مساندته واخضع ميلسنيوس مدن جالاتيا وفريجيا وترك حاميات تركية فيها ، ولكن لم تكتب لثورة ميلسنيوس النجاح ، فظلت هذه المدن في يد سليمان وجيوشه (٢) ومن هذه المواقع بدأ توسعهم . فسيطر سليمان على كل آسيا الصغرى من قليقيا إلى Hellespont ، وبذلك تكونت مملكة سلاجقة الروم ولقد سارع التركمان المنتشرون في آسيا الصغرى إلى الاعتراف بسلطانها سنة ١٠٧٧ م بل هاجرت بعض القبائل التركمانية من آسيا الوسطى إلى الدولة الجديدة وكان هذا إيذانا بفقد بينظة لآسيا الصغرى وانهايار النظام الدفاع والإدارة في الولايات الآسيوية واندحار نظام Tbcme القائم على امتلاك الجندي للأرض ، ولقد ترتب على ضعف بينظة الحربي انهيار لنظامها الاقتصادي والمالي . وكانت هذه الظروف مجتمعة هي التي واجهت الامبراطور الجديد الكسيوس كومنين (٣) .

الكسيوس كومنين وآسيا الصغرى

لم يكن الكسيوس كومنين هو القائد الوحيد في الارستقراطية العسكرية الذي تطلع إلى العرش ، ولكن كان أقدمهم كسياسي . ولقد بدأ بالتمهيد لنفسه

ostrogorsky : op cit p307 (١)

Camb. Hist of Islam vol I p1235 (٢)

ostrogorsky : op cit p314 (٣)

سواء في الجيش أو العاصمة يعد نظرو دبلوماسية ماهرة مكنته من الانتصار على منازعته . فصاهر أسرة دوكلس عن طريق زواجه من إيرين حفيدة القيصر حنادوكاس ، وبذلك أيدته أسرنا دوكلس وكومنين . ثم عقد اتفاقا مع نفقور ميلسنيوس والذي كان زوجا لشقيقة زوجته ولقد طلب الأخير آسيا الصغرى في مقابل ترك الجانب الأوربي لآلكسيوس ولكن الكسيوس رفض ووعده بمنحه لقب قيصر . وبدأ الكسيوس بعده العدة للاستيلاء على العاصمة وكانت الحامية في العاصمة من العناصر الجرمانية المأجورة ، فلم تصمد طويلا واستطاع بعد قتال دام ثلاث أيام دخول المدينة ، وأقنع نفقور بوتنايتوس بعدم جدوى المقاومة واستجاب لنداء البطريك بترك العرش وفي ١٤ أبريل ١٠٨١ م توج الكسيوس .

ولقد اعتلى الكسيوس عرش امبراطورية تحيط بها الاخطار والأعداء من كل الجهات فكان عليه اتباع دبلوماسية قائمة على أسس جديدة إلى جانب الالتجاء إلى الوسائل الحربية إذا اقتضت الظروف . فالفترة بين باسيل الثاني والكسيوس كومنين كانت سلسلة من الهزائم المتتالية لسياسة بزنطة الخارجية فقد شهدت فقد آسيا الصغرى وضياع إيطاليا وضعف نفوذ بزنطة في البلقان . أما في الداخل فقد عانى المجتمع من انهيار اقتصادي وتفكك اجتماعي ، وكان على الكسيوس ١٠٨١ - ١١١٨ م إعادة هذا البناء على أساس جديد وخاصة فيما يتعلق بالولايات ولكن لم يكن لدى الأمبراطورية من المصادر والمنابع الداخلية ما يساعدها على عملية إعادة البناء وقد فقدت مركز قوتها في آسيا الصغرى وكل ما استطاع فعله آل كومنين عامة هو استعادة الشواطئ . وانتقلت أهمية بزنطة التجارية والبحرية لمدرن إيطاليا فركز بزنطة كفوة

كبرى تحت حكم آل كومنين لم يكن يعتمد على وضع داخل قوى ودولة مترابطة ولذلك لم يحقق نجاحا في النهاية .

وكانت مشكلة الأتراك وتوسعهم أمما واجه الامبراطور . ولكن الكيسوس ، كان مقتنعا بصعوبة استعادة آسيا الصغرى من الأتراك فلم يكن أمامه حق الخيار فقرر الاعتراف بالوضع القائم فعلا . فسمح لسلیمان بحكم قليقية انطاكية وملطية^(١) ، واعتبرها مستعمرات على أن يكون لبيزنطة حق الاشراف عليها ، أى اعتراف اسمى بسلطان بيزنطة ولكنهم لم يعتبروا أتباع خاضعين بل معاهدين Froderat ، يقيمون فى أراض وافقت الامبراطورية على التنازل عنها ، كما حدث مع البجناك فى البلقان وبذلك استطاع الكيسوس التفرع لمشاكل التورمان .

وكذلك اتجه سليمان إلى الشام بعد أن آمن جانب بيزنطة . وكان سلاجقة العراق قد سبقوه إلى هناك فقد أصبحت بلاد الشام مسرحا للنزاع بين قوى مختلفة : الفاطميون ، العباسيون ، الأمراء المحليون من العرب كبنى مرداس وبنى عقيل وبنى كلاب ثم البيزنطيين . وكان سلاجقة العراق قد وصل نفوذهم إلى الشام ابتداء من ١٠٧٠ م حين التجأ رشيد الدولة المرادسى صاحب حلب لطلب الحماية من الب ارسلان ، وخطب له وللخليفة العباسى القائم ١٠٧٠ م ولقد طالب الب ارسلان من محمرد المرادسى الخروج اقتال الفاطميين والبيزنطيين فرفض محمرد الاستجابة ولكن أمام ضغط السلطان الب ارسلان اذعن واعترف بالتبعية وانتشر السلاجقة فى شمال الشام ، ولما خلف ملكشاه ١٠٧٢ - ١٠٩٢ م الب ارسلان امر

Ostroghorsky: op c, t p316 (1)

Grousset : Hist de l, Armine P 630 (2)

(٣) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٦٤ هـ .

السلاجقة في الشام أن يخضعوا لأخيه تاج الدولة تش وهاجم حلب ١٠٨٥ م ولكن لم يستطيع الاستيلاء عليها ، وفي ١٠٧٩ ، استولى على منبج وبزاعة ثم دمشق التي كانت بيد اتسيز بن ايق أحد قادة الترك وكان قد استولى عليها من الفاطميين ٤٧٦ هـ (١) وسيطر تش على وسط سوريا وفلسطين وقبض على اتسيز وقتله ، وما لبس أن اشتبك تش في قتال مع أخيه ملكشاه ١٠٨٣ م - ١٠٨٤ م .

واستغلا لتلك الأوضاع قرو سليمان بن قنبلش الانجاء إلى الشام وبدأ بانطاكية ٤٧٧ هـ - ١٠٨٤ م التي يحكمها Philaretus الأرمن نائباً عن بيزنطة وكان قد أساء السيرة فكاتب أهل المدينة سليمان ليتسلطها ٤٧٧ هـ - ١٠٨٤ م) فاستولى عليها من غير قتال ، إلا أن أمير الموصل مسلم بن عقيل الذي كان قد وطد مركزه في شمال الشام وأعلى الجزيرة ، وكان على صلة بالفاطميين . كان قد أجبر فيلارتيوس والى انطاكية على دفع جزية له فأرسل إلى سليمان يطالبه بدفع الجزية ورفض سليمان على أساس أن فيلارتيوس كان والى من قبل بيزنطة أما هو فحاكم مسلم ونتيجة لذلك دار قتال بينهم قرب انطاكية ١٠٨٥ م انتهى بهزيمة مسلم بن عقيل ومقتله ، وأثر هذا الوضع على موقف الفاطميين حلفاء مسلم فانسحب بدر الجاني من سوريا بعد أن غزاها ، واتجه ساجان بعد ذلك إلى حلب ولكنه هزم

(١) استولى اتسيز من الفاطميين على الرملة وبيت المقدس وحاول غزو مصر ١٠٩٧ م فهاجمه أمير الجيوش بدر الجمالي وحاصر دمشق ولكن تدخل تش جعله ينسحب .
سميد عبد الفتاح عاشر : الحركة الصليبية ج ١ ص ١٠٥

(٢) فيلارتيوس أحد القواد الذين اشتركوا في جيش رومانوس الرابع فقد كون الأرمن بعض فرق رئيسية واستولى على الرها سنة ١٠٧٧ م وسلم له أهل انطاكية المدينة بعد مقتل الحاكم البيزنطي واعترف بسُلطان بيزنطة ١٠٧٨ - ١٠٨١ م ولقد سيطر على طرسوس والمصيصة وعين زوبة وإن كان سليمان قد انتزع منه قتيقة وعلقية .

بولقي مصرعه في يونيو (٤٧٨ هـ - ١٠٨٦ م) أثناء صراعه مع قتلش حاكم دمشق (١).

لم يكن سليمان مجرد حاكم أو عازي بل أقام نظاما إداريا ممتازا خلال حكمه الذي لم يتعدى العشر سنوات ولقد رحب السكان المحليون بحكمه تخلصا من الاضطهاد الديني الذي عايناه أثناء حكم البيزنطيين ، وكان المستفيد من نتيجة هذا الصراع هو السلطان ملكشاه السلجوقي فقد استطاع أن يتوسع على حساب جميع القوى وخاصة بزنطة ، وكان قد سبق للملكشاه أن استولى عام ١٠٨٣ م ، على أنسطرطوس وبعض القلاع المجاورة ، واستولى ١٠٨٥ م على الرها من البيزنطيين وولى عليها بازان ثم استولى على حلب ١٠٨٦ م وسلمها إلى قسم الدولة اقسنقر ثم تسلم انطاكية من نائب سليمان بن قتلش وعين فيها ياغي سيان ولقد ترك السلطان لهؤلاء القادة منذ ١٠٨٦ م أمر توجيه الحملات ضد بزنطة .

أما بقية بلاد الشام فقد ظلت اجزاء منها خاضعة للفاطميين فخص التي كان يحكمها خلف بنى ملاعب وطرابلس التي كان يلبها على بن عمار ظلال تحالفهما مع الفاطميين ، وخضعت لبدرا الجمالي ، عكا ، وصور وصيدا وجليل . ولكن في ١٠٩٠ م استولى السلاجقة بعد أن تصالح قتلش مع أخيه ملكشاه على شمال الشام حتى طرابلس وكانوا يؤمنون بغزو مصر . كل هذه الأوضاع دفعت بالأمراء الكيسريين إلى الاستنجاد بالغرب الأوربي لقمع الأتراك سرءاء في آسيا الصغرى أو الشام ، ولقى هذا استجابة من البابوية التي كان قد اثارها استيلاء السلاجقة

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٨٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ حوادث ٢٧٩ هـ .

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٨٧ .

على الأماكن المقدسة ، إلى جانب تمدد وصول الحجاج المسيحيين إلى العام بسبب الاضطرابات في تلك المنطقة^(١) . ولكن بعد سنوات ومع قدوم الحملات الصليبية ندم الامبراطور على استعائه بالغرب فإن سلاجقة آسيا الصغرى وكذلك سلاجقة العراق بدأت قوام في التفكك نتيجة للخلافات الداخلية^(٢) .

سلاجقة الروم بعد سليمان

بعد مقتل سليمان انهارت الوحدة السياسية التي أقامها السلاجقة وأرسل أنبائه إلى ملكشاه في الفترة بين ٥٤٧٩ هـ -- ٥٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م كرهينة لضمان عدم تدخل سلاجقة الروم في شئون الشام ولقد تركت آسيا الصغرى بدون حاكم يسيطر على أمورها فلقد ترك سليمان طفلاً صغيراً هو قلعج أرسلان الذي ظل في أسر ملكشاه فترة وتولى أمر إدارة السلجوقية أبو القاسم الذي كان سليمان قد أنابه عنه أثناء ذهابه إلى قليقية وانطاكية^(٣) . ولقد أراد ملكشاه بعد مصرع سليمان إخضاع دولة سلاجقة الروم ، فأرسل الأمير بورسك ، ثم أرسل الأمير بوزان ، بما دفع بأبي القاسم إلى التحالف مع بيزنطة ، ولكن وفاة ملكشاه ٥٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م انقضت نيقية من الحصار . وساعدت المنازعات التي ثارت على العرش بعد وفاته قلعج أرسلان الأول بن سليمان على العودة إلى منصبه ١٠٩٢ م حيث استقبله الترك بحفاوة بالغه وبدأ عهده بتجديد بناء عاصمته وتعيين قادة جدد ، ثم دخل في صراع مع بيزنطة حيث قامت قواته بطرد القوات البيزنطية التي حاولت الاستقرار على شواطئ بحر مرمرة : ولكنه ما لبث أن عاد

(١) Cohen ; Turkish invasion p 164 (1)

(٢) ابن العبري . تاريخ مختصر افعول ص ١٩٤

ابن الأثير الكامل حوادث سنة ٤٩٢ هـ

(3) Camb. Hist. of Islam vol I p 236 (3)

تحالف معها فعاونته القوات البيزنطية في التخلص من خصمه حاكم الزمير
بنيكا أوزونخاس بك . ووفقا لمعاهدته مع بيزنطة أصبح من حقه التوسع
في اتجاه الشرق ، وفي (٤٨٩ هـ - ١٠٩٦ م) حاصر ملطية واسكن أهل
المدينة عرضوا عليه تسليها صلحا تخلصا من حاكمهم جبريل ، الذي كان
يضطهدهم لمخالفتهم له في المذهب الديني . ولكن قلعج ارسلان اضطر للعودة
للدفاع عن عاصمته أمام الخطر الصليبي ^(١) .

ولم يكن سلاجقة الروم الطائفة الوحيدة التي استقرت في آسيا الصغرى
فهناك فرق تركية أخرى من الغز استقرت في المنطقة ، وكانت اشد خطراً
على بيزنطة واستغلت ضعف الدولة السلاجقية بعد وفاة سليمان لإقامة
عالك مستقلة ، دخلت في صراع مع سلاجقة الروم وبيزنطة ، وهذه
الممالك تعتبر أهم في تاريخ الترك من الامبراطورية السلاجقية نفسها ، فعلى
الرغم من أن أراضي دولة سلاجقة الروم امتدت من نيقية إلى قونية ،
وعلى الممرات بشمال جبال طرسوس فإن الاتراك بعد انهيار حكمهم في
الشرق لجؤوا إلى تلك الممالك ونزلوا على سواحل المضيق وعلى ساحل بحر
ايجه ، حيث وجدوا المستقرا واختلطوا بالسكان ومارس بعضهم البحرية
والبعض القرصنة ^(٢) .

ويعود الفضل في انشاء هذه الامارات لعدد من القادة والامراء
التركان . فأنشأ منجوشك بين ارزنجان و Divrigi أمارة ، دخلت في
صراع مع الاغريق على البحر الأسود ، ولقد ارتبط حكمها بصله
المصاهرة مع دانتمند .

وفي سامرنا انشأ Tzachas زاخاس إمارة في ٤٧٤ هـ ١٠٧١ م ، وانضم

(١) Ibid : vol 1 p 1304

Selton : op. cit vol I p 223

Camb. Hist of Islam vol I p 396 (٢)

اليه الترك في المناطق المجاورة ، وقام بإعداد اسطولا قويا سيطر به على جزر البحر الابحيني ، ولقد ناصبت تلك الامارة يزنطة العداء فتحالف زاخاس مع البجناك ضد الامبراطورية (١) ، وكانت مشكلة البجناك وثوراتهم من أهم المشاكل التي واجهت يزنطة في القرن الثاني عشر . وفي البداية تحالف البجناك مع قبائل Bashkiers في شرق البلقان واجتاحوا اراضي البلقان ، وفي ١٠٩٠ م تجددت المشكلة وتحالف البجناك مع امير ساسرانا ولقد وصلت قواتهم إلى اسوار القسطنطينية في نفس الوقت الذي هدد فيه زاخاس باسطوله المدينة ، وكان زاخاس قد عاش فترة في بلاط نففور بوتانياتوس (٢) حينما اسر في أحد المعارك في آسيا الصغرى ، وكان على علم بمخططات واستراتيجيات البيزنطيين وتعلم أن الهجوم الحقيقي يأتي من جهة البحر . وفي شتاء ١٠٩٠ م حوصرت القسطنطينية برا وبحرا وبحث الكسيوس عن حليف يعاونه في مواجهة تلك القوة التركية فلم يجد إلا الكومان . القفجاق ، وكان الكومان الذين استقروا الآن في امتبس جنوب روسيا بعد البجناك والغز مثلهم اترাকা لغة واصلا واستجاب الكومان لنداء الامبراطور ، ففي ٢٩ أبريل ١٠٩١ م دارت معركة Mt Levanion بين يزنطة وحلفائها الكومان وبين البجناك حاقت فيها الهزيمة بالبجناق وتمرضوا لمذبحة قاسية تركت اثرها في النفوس واوردتا انا كومنين في كتابها Alexid ، وبذلك تحطم الحصار حول القسطنطينية ونحطت آمال زاخاس الذي سرعان ما غير مصكوه ، بعد هزيمته وانضم إلى الامبراطور (٣) . وقام الكسيوس بنفس الطريقة والالوب الذي أوقع فيه بين البجناك والكومان بالإيقاع بين زاخاس وامير نيقية أبا القاسم

(١) Ostrogorsky : op cit p 320

Setton : op cit vol I p 213 (2)

Ostrogorsky : op.cit p320.Camb Hist of Islam vol.I p 237 (3)

ثم بينه وبين قلع ارسلان الأول عن طريق اقناعه به بأن وجود زاخاس يعرضه للخطر وما لبث أن تخاص منه ولقد ظلت هذه الدولة إلى نهاية الحرب الصليبية الأولى.

ولكن أم تلك الامارات أقامها أحد غازى دافشمند فى ٤٧٤ هـ - ١٠٨٤ م ، ودافشمند هو أحد زعماء التركمان التابعين لسلطان بن قتلبش ، واشترك معه فى حروبه ضد ملطية . ولقد ضم إليه ملطية ثم سيطر على سيواس وأماسية وقيصريه وكركر ونقصار وأنقره وسنوب . وكل الطرق التى تجتاز شمال آسيا الصغرى . لكن ما لبث أن نقض عهده لسلاجقة الروم وأعلن تبعيته للملكشاه ، وعند وفاة دافشمند خلفه ابنه غازى كمشكين الذى سار على سياسة أبيه فى مناصبة سلاجقة الروم العداء .

وفى أروم قامت أماره تركانية أخرى أنشأها الأمير سالتوق واعترفت بالتبعية لسلاجقة فارس^(١).

أما الولايات الارتقية التى تشمل ديار بكر وماردين وخرتبرت ودولة السقمانين بالقرب من بحيرة فان فانها لم تتكون إلا بعد عشر سنوات من هذا التاريخ ، وحكما أمراء سلاجقة والجزء الوحيد فى آسيا الصغرى الذى لم يقع فى أيدي الترك شرق البحر الأسود فقد استعاد الاغريق طرابزون ١٠٧٥ م وأقاموا فيها دوقا بيزنطيا ولكن حلفاء هذا الدوق استقلوا عن بيزنطة وتحالفوا فى بعض الأحيان مع الترك .

ولقد نجح الامبراطور باستخدام وسائل الدبلوماسية البيزنطية فى الإيقاع بين أعدائه وبذر بذور الشك والتفرقة بين الترك وبذلك لم يعد

هناك خطر ملح تمثله آسيا الصغرى بالنسبة له .

وخاصة أن أحوال سلاجقة الشرق لم تكن بأفضل من أحوال أقرانهم سلاجقة الروم . ولقد حاول ملكشاه التحالف مع الكسيوس ١٠٩٢ م ضد سلاجقة الروم ، ولكن مالبث أن توفي قبل أن يحقق هذا التحالف . وترتب على وفاته انقسام امبراطوريته بين أبنائه وكان له أربعة أبناء هم بركياروق ومحمد وسنجر ثم محمود^(١) . تنازعوا كالعتاد فيما بينهم وانتهى الأمر بتولية بركياروق ، ولكن مالبث أن نشب خلاف بينه وبين عمه تتش وبعد صراع وحروب طويلة انتهى الأمر بهزيمة تتش ومصرعه ١٠٩٥ م^(٢) . ولكن بركياروق كان ضعيف الشخصية ولم يكن باستطاعته مواجهة الموقف الجديد المتمثل في الحروب الصليبية .

وكان بركيار . قد اكتفى بحكم فارس وبغداد أما الشام فإن ولدى تتش هوهاغر الملوك رضوان حكم حلب ، وشمس الملوك دقاق تولى دمشق . وكانت تنقصهم المقدرة السياسية والحرية . وفي ١٠٩٦ م انقسمت دولة السلاجقة إلى خمس ممالك متنافسة^(٣) سلطنة فارس وعلى رأسها السلطان بركياروق الذي كانت له السيطرة على بغداد وملكة خراسان ، وماوراء النهر وبحكمها سنجر . وملكة حلب يليها رضوان ، ودمشق على رأسها دقاق وسلاجقة الروم وبحكمهم قلج أرسلان^(٤) إلى جانب عدد من الأتابيكات .

كل هذه العوامل فتت من قوى السلاجقة ولم تجعلهم قوة منحدرة .

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٨٥ هـ

(٢) ابن الفلانى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٠

(٣) إسماعيل باشا : الحركة الصليبية ج ١ ص ١١٤

(٤) ابن واسل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ج ١ ص ١٦

قسططيع الوقوف في وجه أى غزو أجنبي' بل إن العلاقات بين سلاجقة الروم وبين ملكشاه كانت سيئة منذ مقتل سليمان . وازدادت فيما بعد ، بعد مقتل قلیج أرسلان ثم قطع الصليبيون الطريق بين قلقية والرها فانتطعت الصلة بين سلاجقة آسيا والعمام .

كل هذه العوامل دفعت الامبراطور الكسيوس بعد أن تخلص من الخطر المباشر على عاصمته ووطد مركز امبراطوريته إلى أن يوثق صلاته بالبابوية وأصبح مستعدا لأن يشن هجوما يستعيد به آسيا الصغرى من أيدي الأتراك ولإدراكه صعوبة استعادة تلك الأقاليم منفردا فقد سعى لمساعدة الغرب الأوربي فكانت الحروب الصليبية .

القَصْدُ الرَّابِعُ

سلاجقة الروم والحروب الصليبية

سلاجقة والحلة الصليبية الأولى :

م يكن الكيسوس كومنن أول من فكر في الاستعانة بالقوى الغربية مفلقد سبقه إلى ذلك ميخائيل السابع ، حين أرسل ١٠٧٤ م يستنجد بالبابا جريجورى السابع ضد الأتراك السلاجقة ، في مقابل إعلان اتحاد الكنيسين . ولقد رحب البابا بهذا العرض ، ولكن لم يستطيع أن يخرج الاتفاق إلى حيز الوجود لإنشغال البابا بخلافه مع الإمبراطور هنرى الرابع (١) .

وتجددت الدعوة في عهد الكيسوس ، وكان الإمبراطور يأمل من وراء المساعدة من الغرب أن يتوافر له من الجند المرتزقة ما يعينه على طرد الترك من آسيا الصغرى فلم يقصد بما طلبه من الغرب من مساعدة إلا الإستيلاء على مابايدى المسلمين من أراضى ولم ير في الجيوش الغربية غير جند مأجورة ، وخاصة أن أحوال الأمور اضورية كانت في وضع مطمئن ، بل إن الإمبراطور كان يعد حملة لمواجهة الترك في آسيا الصغرى (٢) .

ولقد كانت هذه نقطة الخلاف الجوهرية بين كل من البابوية والإمبراطورية فالبابا لم يشأ أن تكون الحركة الصليبية في خدمة الدولة البيزنطية ، بل أرادها حملة تنزلى تقديم المساعدة لمسيحي الشرق ، وخاصة لما كان يعانيه الحجاج من سوء المعاملة على أيدي الأتراك ، وبسبب

(١) عن الحروب الصليبية ارجع : Anna Comnena : The Alexiad trans :

A . S . Dawes. Gesta Francorum, Michel Le Syrien.

Foucher de Chartres : Hist des Croisades, Michaud Hist des croisades

(٢) يذكر أوستروجورسكي أن من المؤرخين اللاتين حاولوا تقآن الكيسوس استدعى الصليبيين

الاضطراب الذي ساد في الشام بسبب الصراع بين السلاجقة وبعضهم وبعض وبين الفاطميين والعرب^(١) ، إلى جانب أنه رأى أن ضعف بيزنطة يعتبر ضعفا للعالم المسيحي فسمى لحشد جيش نظامي ، لا أن يبحث بحيوش مرزقة تعمل لصالح بيزنطة .

ولقد أرسل الكسيوس مندوبيه إلى مؤتمر بيا كنزا ١٠٩٥ م ، وكان هناك تقارب سابق بين البابا أوربان والامبراطور ، فقد رفع البابا قرار الحرمان الصادر ضد الكسيوس ١٠٨٩ وقامت مفاوضات لانهاء الخلاف بين الكنيسة الشرقية والغربية . وفي مجمع كير مونت ١٨ نوفمبر سنة ١٠٩٥ جرت الدعوة للحروب الصليبية وذهب رسل الامبراطور الكسيوس إلى هناك ، حيث أوضحوا خطر السلاجقة على المسيحيين بوجه عام^(٢) . وخاصة لما تعرض له بيت المقدس على يد اتسيز وارتق ١٠٧٦ - ١٠٧٧ م أثناء محاولتهم الاستيلاء عليه من أيدي الفاطميين ، فذكروا أن الترك اعترافهم الضعف ، وإن باستطاعة الامبراطور التصدي لهم ولكن انشغاله بأمور أخرى دفعه لطلب المساعدة من الغرب ، واستجاب البابا لطلبهم ودعا لحملة صليبية يكون هدفها تحرير الأماكن المقدسة ، ووعد بغفران ذنوب من يشترك فيها ، وطلب البابا إلى العالم الغربي أن ينهض لمساعدة المسيحيين المذبحين في الامبراطورية البيزنطية لأن الترك بلغوا في زحفهم ذلك الجزء من البحر المتوسط الذي أطلق عليه ذراع القديس جورج^(٣) . فاكثرت ما يأمه الحجاج المسيحيون ، أن يتوجهوا إلى بيت المقدس ليؤدوا الشعائر^(٤)

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ حوادث سنة ٤٨٦ هـ

ابن واصل : مارج الكروب في أخبار بني أيوب ج ١ ص ١٩ - ٢٧

Runciman : History of the Crusaders p 106 (٢)

Chalandon : op cit vol I p 109

Michel -le syrien : op. cit I p 326 (٣)

ولم يكن الصليبيون إلا حجاجا عاريين ، ساروا ليفتحوا الطريق إلى بيت المقدس ، بعد أن أوصده في وجوههم السلاجقة ، وليستردوا المدينة المقدسة ، ولم يتخذ الحجاج من قبل السلاح أثناء سيرهم للحج ، أما عساكر المسيح فاضخوا حجاجا قاموا بحرب هجومية .

ومنذ البداية بدأت بذور الشقاق بين الطرفين تنمو ، ولقد استقبل البيزنطيون الحملة بشعور الارتياح وعدم الثقة ، وقد أكدت تصرفات الصليبيين هذا الشعور^(١) .

وأول ما وصل إلى بيزنطة كانت حملة الشعوب ، التي تولى قيادتها بطرس الناسك والثر المقلس ، وتألفت من جموع غير منظمة واتخذوا الطريق الشمالي إلى بيزنطة ووصلت القسطنطينية أول أغسطس سنة ١٠٩٦م ، ولقد صدم الامبراطور بمرأى هذه الجوع إذا عمدت إلى السلب والنهب خلال اجتيازها أراضي الامبراطورية . فسارع الامبراطور بنقلهم عبر البسفور إلى آسيا الصغرى^(٢) .

وكان من الطبيعي ألا تصمد تلك الاشتات أمام الترك ، فقد بلغوا أبواب نيقية عاصمة السلطان السلجوقي ، ونهبوا المناطق المجاورة وتصدت لهم فرق من الجيش التركي ولكنها هزمت مما شجعهم على التوغل في أراضي السلاجقة حتى بلغوا قلعة Vekigoerdon فحاصرتهم القوات التركية وهزمتهم^(٣) ، مما لجأ بطرس إلى العودة إلى القسطنطينية ، ولكن بقية

Chlondon : Hist de la Premiere Croisades P44 (١)

Ostrogorsky op cit p321

Ostrogorsky, of cit p321 (٢)

Runi Cmap oP, Cit Vol 1p131 (٣)

جيشه اشتبك مع الترك عند ديار بكر ولم ينج منهم إلا أعداد قليلة . ولكن حملة الأمراء حققت ما اراده الإمبراطور ، وبدأ وصول الجيوش النظامية سنة ١٠٩٦ م واستقبلت بيزنطة زهرة فرسان أوروبا ، ^(١) فكان يقودها جرد فري بوايون دوق اللورين ، والكونت ريموند من تولوز ، هيجو فرماندو ، اخو ملك فرنسا وروبرت النورماندى اخو ملك انجلترا وابن وليم الفاتح وروبرت ابن روبرت فلاندر وبوهنمد النورمانى ابن روبرت جويسكارد ولقد رأى الإمبراطوران يسارع بالاستفادة من الحملة بخدمة اغراضه فطلب من الأمراء أن يقسموا له يمين الولاء الذى ينص على الاعتراف بالإمبراطور سيدا أعلى على كل ما يفتحونه من بلاد ، وأن يسلموا الموظفين الإمبراطور كل ما يستردونه من بلاد ، كانت أصلا ملكا للإمبراطورية ^(٢) .

وفى المقابل وعد الإمبراطور بإمدادهم بالمئون والعتاد ، بل وعد بالانضمام اليهم متى سمحت ظروفه ليكون على رأس الجيش وقبل الصليبيون أن يقسموا للإمبراطور وإن كان جودفرى قد أقسم بعد مفاوضات طويلة ، وكذلك بوهنمد الذى حاول الحصول على شروط افضل من الإمبراطور ، وعلى منحه لقب domesticus . دمستق الشرق ولقد وصلت جموع النورمان إلى آسيا الصغرى تحت قيادة ابن اخيه تنكرد ^(٣) .

غير أن تنفيذ هذا اليمين كان يتوقف على حفاظ الصليبيون على عهد الولاء ، وعلى المعهود به الأملاك السابقة للإمبراطورية . ولقد أمد الإمبراطور الجيش الصليبي بفرقة بيزنطية يقودها القائد تانكيوس ^(٤) .

Runicman : op' cit vol I p 142 (1)

Runicman : The History of the Crusades vol. P170 (2)

Camb med. Hist vol p281 (3)

Cresset - Hist des Croisades I p 21 (4)

إذ أن البيزنطيين كانوا أقدر على معرفة الطريق وطبيعة الأراضي في آسيا الصغرى بحكم خبرتهم واتجهت الجيوش إلى نيقية عاصمة السلاجقة ، والمدينة تقع على بحيرة اسكانيوس غير بعيد من بحر مرمرة على الطريق الحربي البيزنطى القديم الذى يحتاز آسيا الصغرى ، وكانت استحكاماتها قوية وبها حامية تركية إلى جانب موقعها الاستراتيجى وتحكمها فى سائر الطرق التى تحتاز الاقليم ^(١) ، ولم يكن قلع ارسلان فى عاصمته إذ أنه كان مشغولاً آنذاك بحصار ملطية . ولم يستطع فهم طبيعة الحملات الصليبية ولم يعطها بعدها الحقيقى . إذ أنه ظن أنها لا تتعدى أن تكون غزوة تقوم بها جموع متفرقة تفقر للمقدرة الحربية كما حدث بجموع بطرس الناسك ^(٢) ، وما ارسله السلطان من قوات وامداد لم يصل إلا متأخراً بعد محاصرة الصليبيين لنيقية .

ولقد حاصر جود فرى السور الشمالى للمدينة وقام تانكرد وبطرس الناسك بحصار السور الشرقى وريموند السور الجنوبى ، وكان معهم طائفة من المهندسين البيزنطيين ^(٣) ثم وصلت جيوش روبرت النورماندى وستيفن بلوا ولقد فوجئت القوات التركية التى أرسلها السلطان بذلك الحصار المحكم للمدينة ، فأرسلوا إلى السلطان يشرحون له الأمر فاضطر لعقد هدنة مع الدانشمندين ليضمن عدم تشتت جوده ، وحاول شق طريقه إلى عاصمته ولكنّه فشل فانسحب إلى الجبل ^(٤) ، وترك الحامية لمصيها ولتتخذ ما تراه صالحاً . واستمر الهجوم على المدينة وأرسل الصليبيون يطلبون المساعدة من الامبراطور ، فأرسل إليهم أظول بقيادة Butemiss .

Raglicman . Hist of thecrusades. PI70 (١)

Setton . op. cit. I p180 (٢)

Grousset . op cit vol I p27 (٣)

Raglicman . op. cit p180 (٤)

ولقد حاول الامبراطور التفاوض منفردا بعيدا عن الصليبيين مع الحامية التركية . وأخيرا اضطرت الحامية للتسليم ، وفق الاتفاقية التي نصت على التسليم للامبراطور في مقابل الإبقاء على حياتهم وفي ١٩ يونيو ١٠٩٧ ، دخلت قوات الامبراطور من أيجناك إلى فينقية ، ولقد سقطت في أيديهم زوجة قلع أرسلان ونفانسة وأرسل كل هذا للعاصمة القسطنطينية^(١) .

ولم يسمح الامبراطور للصليبيين بنهب المدينة أو الحصول على فدية مقابل زوجة السلطان وأولاده ، فانبعثت الكراهية بينهما . واسترد الامبراطور الكسيوس سامرنا ، افسوس ، سارديس ليديا وعدد من المدن وسيطر البيزنطيون على غرب آسيا الصغرى^(٢) ، وبعد استيلائهم على نيقية استقبل الامبراطور الصليبيين في بلكا نيوم وجدد يمين الولاء ثم اتجهت الجيوش الصليبية مصحوبة بالفرق البيزنطية في يونيو ١٠٩٧ إلى الطريق الذي يمرق آسيا الصغرى من الشمال الغربي ، إلى الجنوب الشرقي ويمر بأنقرة في طرفها الجنوبي ثم يتفرع بعد اجتياز نهر هاليس إلى طريقين أحدهما يعضى إلى أرمينيا ، أما الطريق الآخر فيجتاز جبال طوروس إلى وادي الفرات ، وإلى فينقية ، واتخذ الصليبيون الطريق عبر ضربيليوم قونية ، قيصريه^(٣) .

وهذا النصر شجع المدن الإيطالية التي ترددت في البداية إلى الاشتراك في الحملات^(٤) ، ولقد تقرر تقسيم الجيش الصليبي قسمين : تقدم أحدهما الآخر بسبب المثون وتألف الجيش الأول من النورمان بقيادة ريموند ،

(١) Camd .Hist of Islam p239

(٢) Crousset . Hist de Croisades p29

(٣) Catrogorsky . op . cit p323

(٤) Runicman . op. cit vol p179

وجود فرى بوايون والمندوب البابوى ادمار ، ووصل النورمان أولا إلى سهل ضربليوم وهناك التقوا بالأتراك . وكان سقوط نيقية دافعا لجميع العناصر التركية في آسيا الصغرى للتحالف وترك الخلاف فتصالح السلطان قلعج أرسلان مع الأمير غازى داندمنند وحسن أمير قبادرقيا ، وقامت خطتهم على أساس مفاجئة الصليبيين أثناء اجتيازهم للدرب ، وكانت قوات بوهمند في سهل اسكى شهر قرب ضرورليوم ، وأحاطت قوات الأتراك بالصليبيين من كل جهة وفرضت حصارا كاملا على جيش بوهمند ولكن رسول جيش جودفرى ثم ريموند غير الموقف^(١) ، فبدأ الصليبيون يمدون للهجوم واستطاع أدمير الذى افترق عن الجيش الصليبي الرئيسى أن يهاجمهم من التلال خلفهم ، إلى جانب ما عانوه من نقص المؤن والعتاد ، وأدى هذا إلى رجحان كفة الصليبيون ، واضطر الترك إلى الانسحاب وترك معسكرهم الذى استولى عليه الصليبيون بما يحويه من نفائس ، ومعظم القتلى كانوا من جند الأمير حسن حتى سميت الجبال باسم Hasandagh (أى مقبرة حسن) .

ورغم أن هذه الانتصارات قد حطمت اسطورة الجيش التركى فإن الصليبيين شعروا بالتقدير لمهارة العسكرية التركية فذكر المؤلف النورمانى لكتاب *Gesta Francorum* أنه لو كان الترك مسيحيين لأعجبهم من أنقى العناصر وأكثرها شجاعة وأن أصل الفرنج والترك يعود إلى الطرواديين^(٢) .

وفى نفس الوقت شعر الترك بقوة الصليبيين الحقيقية وصعوبة مواجهتهم فاتخذوا سياسة تقوم على اخلاء المدن وتخريبها ، حتى لا يجد الصليبيون .

Setton . op . cit . 1 . p 291 (1)

Gesta Francorum 955 (2)

Albert - d , Aix p 328 - 324

William of Tyre p 129

ففيها ما يعاونهم على الاستمرار في زحفهم ومن ناحية أخرى ازدادت
الهوة بين الصليبيين والبيزنطيين بسبب ما حدث في ضربليوم من أحداث ،
فقد أراد الصليبيون أن يجتازوا الطريق الحربي المؤدى إلى الشرق عبر
مدن تخضع للدانشمند وعدد من الأمراء الأتراك الذين ما زالت جيوشهم
سليمة لم تشترك في قتال فعلي ، ولكن البيزنطيون بقيادة تاتيكوس نصحوهم
باجتياز طريق يحاور الجبل والذي يقع جنوب الصحراء ، وكان الطريق
قد دمرته غزوات الأتراك ^(١) فلم يعد صالحا فاضطر الصليبيون إلى
العودة إلى الطريق الأول ، ولكن خلال الطريق هلك عدد كبير من
خيولهم وعانى الجيش الكثير من المشاق بسبب قلة الزاد وعدم وجود الماء
الكافي ووصلوا إلى قونية ١٠٩٧ م وكان السلطان قد اتخذها عاصمة بعد
سقوط نيقية ، ولم يحاول السلطان الدفاع عن المدينة إنما انسحب
منها بعد أن خربها حتى لا يجد الصليبيون فيها ما ينتفعون به ،
ولكن الأرمين بالمدينة قدموا لهم يد المعونة وزودوهم بما يحتاجونه
من مؤن ، وبعد ذلك اتجهوا إلى هرقة ، وكان بها الأمير حسن أمير قبادوقيا
وأمر الدانشمند وانسحب الترك كالمعتاد ^(٢) .

وبعد أن استراح الصليبيون عدة أيام في هرقة انقسموا قسمين ، فقام
فريق بقيادة تانكرد وبلدوين شقيق جود فرى واتجهوا إلى قليقية ثم سهل ^(٣)

Gesta Francorum p 61 (١)

Albert d. Aix. p 338 - 329 (٢)

William of Tyre op cit p 30

Grousset : op. cit vol. I p 247 (٣)

Setton; op cit vol. I p 245

Runicman : op. cit p 188

طرسوس ، أما الجيش الآخر فاتجه إلى الشمال الشرقي إلى قيصرية ثم إلى كومانا وكوكوكسنون وسكانها من الأرمن وقد وجد الصليبيون في الأرمن والمسيحيين بوجه عام الخاضعين للترك خبير عون وكانوا يمدونهم بالمؤن والعتاد ثم عبروا جبل الكام إلى مرعش ولقد فقدوا في هذا الطريق كثير من دوابهم ، ولاقى عدد كبير مصرعه بسبب الأمطار والمنعطفات والمنحدرات ، وكان يحكم المدينة موظف أرمني تابع ليزنطة وأقرناتيكوس حاكمها ومن هناك اتجه الصليبيون إلى الشام^(١)

وبذلك حققت الحملة ما أراده الامبراطور من تحطيم قوة الترك واستعادة آسيا الصغرى ليزنطة ففي نفس الوقت الذي اتجه فيه الصليبيون إلى أنطاكية كان الكسيوس يطهر الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى من البقايا التركية بعد سقوط نيقية وانشغال السلاجقة وأترك الأناضول بأمر وسط وشرق آسيا الصغرى ، اهتم الامبراطور باستعادة الجزء الغربي من الأناضول وخاصة بعد أن ضعفت قوة الأتراك وانشدت جيوشهم نتيجة لخزائنهم أمام الصليبيين ، ويقال أن الامبراطور أراد في نفس الوقت المحافظة على مواصلات الصليبيين ومؤخرة جيوشهم ، وصلاتهم باليزنطين^(٢) .

ولقد أوفى الصليبيون بوعدهم للامبراطور فسلموه ما فتحوه من مدن في آسيا الصغرى بولي عاينها من بشاء فأرسل الامبراطور بصهره حنا دوكاس على رأس جيش يساعده أسطول بقيادة كاسباكس Kaspax فاستولى على ساحل أبونيا وفريجيا^(٣) .

Grousset : Hist des Croisades vol 1p30 (١)

Runicman . op. cit, vol 1p194 (٢)

Grousset. Hist. des Croisades vol 141 (٣)

وكان الأتراك يشعرون بعدم جدوى المقاومة وخاصة أن الامبراطور أرسل مع الجيش المهاجم زوجة قلع أرسلان الأسيرة والتي كانت في نفس الوقت شقيقة زاخاس أمير أزمير الذي يسيطر على جزائر لسبوس وخبوس وساموس وسائر المدن الغربية في الساحل (١) .

وأمام التهديد البيزنطي استسلم زاخاس وانسحب إلى الشرق في مقابل تسليم أخته إليه ، فاستولى قائد الأسطول البيزنطي على لسبوس وخبوس وساموس ، أما حنا فاستولى على البلاد الداخلية مثل سرديس وفلادلفيا ولادوقية ، وانتصر على عدد من الفرق التركية عند بلوادين ، واستولى الامبراطور على يشينيا ، وكان هدف الامبراطور السيطرة على الطريق من Polybolus إلى أضاليا ثم يتجه إلى الشرق عبر ساحل آسيا الصغرى ويؤمن بذلك طريق المؤن إلى الشام (٢) .

وكان على الامبراطور أن يتجه بعد ذلك إلى قليقية ثم إلى الشام حيث كان الفرنج يحاصرون أنطاكية ، وأقام فعلا معسكرا في فيلو ميلون (٣) ١٠٩٨ م ولكن جأته أنباء عن نشوب خلاف بين الصليبيين وفرقة جعلته يتراجع عن ذلك . ومع كل فإن بيزنطة تعتبر قد استردت الأناضول ثانية .

وأزال الصليبيون مالق بيزنطة من هزيمة في ماركرت ١٠٧١ م وتحطمت أسطورة الترك ولقد احتفظت بيزنطة ببعض مناطق آسيا الصغرى للقرون الثلاث التالية (٤) .

Camb Hist of Islam vol p239 (١)
Runciman . op. cit vol I p143-144 (٢)
Grousset op. cit vol p1191 (٣)
Runciman . op. cit vol I p224 (٤)

وسهولة سقوط الأناضول أمام الصليبيين يرجع إلى عوامل عدة منها ضخامة الجيوش الصليبية بالنسبة للأتراك الذين لم يكونوا يعملون تحت قيادة موحدة بل كان العداء على أشده بين سلاجقة الروم والدانشمند إلى جانب عدم انضمام القوى في الشام والعراق إليهم لعدم تفهم بعضهم لهدف الحملة الصليبية ولإشغالهم بقتال بعضهم البعض ، ولأنسى الدور الذى قام به الأرمن والمسيحيين الخاضعين للترك من مد يد المعونة للصليبيين (١) . وأن كان استيلاء بيزنطة على الأناضول يعنى نهاية الوفاق مع الصليبيين .

الخلاف بين بيزنطة والصليبيين :

انتهى الوفاق البيزنطى الصليبي نتيجة لمشكلة انطاكية التى أوضحت الفارق بين وجهتى النظر البيزنطية والصليبية ، واتجه تنكرد النورمان في وجود فرى وايون إلى قلقية في ٢١ سبتمبر ١٠٩٧ م ، وكانت تخضع لفلارتيوس الأرمنى ثم استولى السلاجقة عليها وان احتفظ الأرمنى ببعض المدن (٢) .

أما الجيش البيزنطى الرئيسى فاتجه إلى انطاكية حيث وصل في ٢١ أكتوبر ، وكانت انطاكية كما سبق أن ذكرنا تتبع بيزنطة بل عاصمة الأملاك البيزنطية في الشام ثم انتزعها سليمان بن قتيلش ١٠٨٥ م ، وأثناء هذه الفترة كان يلى حكمها ياغى سيان أحد قادة الترك الذى ولاه تنش (٣) ، ولم يستطع رضوان بن تنش استعادتها . واقد استمر حصار الصليبيين للدينة سبعة أشهر واستنجد ياغى سيان بالقوى الاسلامية ، ولكن الخلاف بين تلك القوى أضعف شأن العالم الإسلامى ولم يحملها تتخذ خطوات ايجابية ،

(١) "Ostrogorsky", op. cit p328

Grousset . Op. cit vol Ip43 (٢)

(٣) ابن الفلانى : ذيل تاريخ دمشق ص ٤٨٤

فالمخلاف كان قائما في الشام بين الفاطميين والأتراك المستقلين والسلاجقة بل حاول الفاطميون التحالف مع الصليبيين ، لعدم فهمهم للهدف من الحروب الصليبية ، حتى الجيوش الإسلامية التي تقدمت لنصرة المدينة كانت جيوش فردية كقوات أمير شزر^(١) .

ولقد حاول يوهنم التورمندی استغلال الأوضاع أثناء الحصار للفوز بالمدينة وخاصة بعد نشوب نزاع بينه وبين ريموند تولوز فأراد التخلص من كل أثر للنفوذ اليرنطى^(٢) .

وبدأ بالتخلص من تانكيوس القائد اليرنطى لكي يحرم يرنطة من أى فضل في الاستيلاء على المدينة فأساء إلى تانكيوس حتى اضطره للانسحاب بدعوى احضار مؤن ، وأومم يوهنم بقية الأمراء الصليبيين بأن الامبراطور الكسيوس يكيد لهم ويتحالف مع السلاجقة ، وزعم أن الامبراطور أخل بشروط يمين الولاء وتخلّى عنهم بقرار تانكيوس^(٣) ، وعدل عن امدادهم بالمؤن واستطاع يوهنم الحصول على وعد من الصليبيين ، بأنه من حقه الانفراد بالمدينة إذا كانت قواته أول من يدخل إليها ، ومالم يتقدم الامبراطور لنجدهم ، وأخيرا سقطت المدينة في ٣ يولية ١٠٩٨ م عن طريق خيانة أحد قادة ياغي سيان وهو فيروز الأرمي^(٤) ، واعترف الجميع بحق يوهنم عدا ريموند الذي أصر على استدعاء الامبراطور ، واستجاب الصليبيون وأنفذوا سفارة لأكسيوس تسأله

Ostrogorsky. op. cit p323 (١)

Grousset . Hist. des Croisades vol I p73 (٢)

Setton . op. cit. vol I. p313

setton . op. cit. vol I p314 (٣)

Ostrogorsky op cit p324 (٤)

القدوم ، ولكن ظروف الإمبراطور منعت من الحضور وبذلك ضاعت فرصته في استرداد أنطاكية وقام الكيسوس بالاحتجاج غير أن بوهمند لم يأبه لذلك ، ولم يسع الإمبراطور إلى اتخاذ خطوة إيجابية وخاصة أنه كان هناك تقارب وتقام بين كلا من الإمبراطور وريموند تولوز (١) رغم أن الأخير في البداية قد رفض أن يقسم له يمين الولاء إلا أنه سلم إلى الإمبراطور المناقذ البحرية الطبيعية لأنطاكية وهي اللاذقية ، وجالانيا وقلبيقية ، فأرسل جيشاً لانتزاع قلبيقية ومهاجمة أنطاكية ، غير أنه لم يستول إلا على مرعش ، نظراً لأن الأرمن بقلبيقية كانوا يؤثرون الفرنج على البيزنطيين ، ولما اتجه الصليبيون نحو جنوب فلسطين توقفت مساعدة بيزنطة الفعلية للحملة ، بل زاد الأمر سوءاً بين الكيسوس والصليبيين ، بينما حاصر الصليبيون بيت المقدس سقطت في أيديهم رسائل متبادلة بين الفاطميين والكيسوس .

ولقد قام الصليبيون في الشرق الأدنى فيما بين ١٠٩٧ م - ١٠٩٩ م بإقامة أربع إمارات هي الزها وأنطاكية وبيت المقدس وطرابلس . وجميع تلك الإمارات مستقلة لاتدين بالولاء لبيزنطة ، ولقد أدى هذا لتغيير موقف بيزنطة من اخلاص الصليبية ، وبدأ هذا واضحاً من موقفها من حملة سنة ١١٠٠ م فلم تنس لبوهمند موقفه ، فرغم أنه أسر على يد الملك غازي دانشمند في أيار سنة ١١٠٠ م عقب هزيمة الجيوش الصليبية في ملطية (٢) فإن تنكرد ابن أخيه سار على نفس سياسة خاله من العداء لليومان (٣)

(١) ابن الأثير الكامل حوادث سنة ٤٩٩ هـ .

ابن العديم : زبدة الخلف ج ٢ ص ١٣٤ .

Camb. Hist. of Islam Vol ٤, p. 239 66 Ostrogorsky op. (٢)

Cit. p. 323 .

Rusman op cit vol I p 300 (٣)

السلاجقة وحملة ١١٠٠ م :

نتيجة لنجاح الحملة الصليبية الأولى فإن الغرب الأوربي وفرسانه فقد بدأت أفكارهم تتجه إلى الشرق وأراضيه ، في نفس الوقت الذي استدعت فيه أحوال الإمارات الصليبية قدوم حملة صليبية جديدة . فلقد تناقص عدد الرجال واشتدت إغارات المسلمين عليهم ^(١) ، وفي عام ١١٠٠ م وصلت حملة إلى القسطنطينية يقودها انسلم رئيس أساقفة ميلان وجيوربرت وهيو من الأمراء ، وانضم إليهم فيما بعد وليم التاسع كونت بواتيه وآلاف من اللومباردين والفرنسيين ، ولما وصلت الحملة إلى القسطنطينية تولى قيادتها ريموند كونت تولوز ^(٢) ، ولكن أصر أفراد الحملة على الاتجاه إلى أملاك الدانشمند لإطلاق سراح بوهمند الذي أسره غازي كمشنكين في قلعة نيكسار على البحر الأسود ، وأمام إصرار اللومباردين استجاب الإمبراطور رغم أنه أراد في البداية استغلال تلك الحملة في تأمين الطريق إلى سوريا . وبذلك يأمن بملكاته في شرق آسيا ، ولقد رحب الكيسوس بالتخلص منهم لقيامهم بأعمال النهب والسلب في ضواحي القسطنطينية ونصحهم باتخاذ الطريق عبر نهر ضريلوم وقونية كالحملة الأولى ^(٣) ، ولكن اللومباردين أصرروا على مهاجمة الدانشمند وأراضيه ، وحدثت الموقعة الفاصلة في أغسطس ١١٠١ م - بين أماسيا وسواس بين غازي دانشمند وحليفه رضوان ملك حلب وبين الصليبيين وهزم الصليبيين وفر اللومبارديون مع أول اشتباك واضطر ريموند والقوات البيزنطية إلى الانسحاب ولحقت

Runciman : op. cit vol Ip 3 1 (١)

Runciman : op. cit vol 2p. 19 (٢)

Setton- op. cit vol 2p: 343 (٣)

بهم بقية الجيوش الصليبية بعد أن عانت الأمرين وغنم منها السلاجقة الكثير (١). ويقال إن عدد القتلى تجاوز المائة وستين ألف ، ولقد حافت بالحملة التي يقودها وليم الثاني كـرنت Nevera والحملة التي يقودها دوق اكونتين هزائم ماثلة على أبدى أترك الأناضول (٢) وترتبت على هذه الحملة نتائج أهمها استعادة السلطان السلجوقي لنفوذه في آسيا الصغرى ، واتخاذة قونية عاصمة له مرة أخرى وتهديده للطريق الرئيسى بين القسطنطينية والشام ، كما مد غازى الدانشمندى نفوذه إلى الفرات وأصبح يهدد الرها ، وأصبح الطريق إلى آسيا الصغرى موحداً مرة أخرى أمام الصليبيين والبيزنطيين .

ولقد ألقى الصليبيون مسئولية الهزيمة على عائق بزنطة في حين اتهمهم بزنطة من جانبها بأنهم لم يتبعوا خطط الإمبراطور البيزنطى ، ونتج عن إغلاق الطريق أنه تحتم على الصليبيين عند توجيه أى حملة أن يسلكوا الطريق البحرى ، واستفادت من ذلك المدن الإيطالية كجنوة والبندقية ، إذ أن الطريق المتاح كان وعراً متعرضاً لهجمات الترك (٣) .

وإن كان البيزنطيون قد استغلوا ضعف اللاتين واستطاعوا السيطرة على قلاع طرسوس وآذنه والمصيعة (٤) ، واستطاع أسطولهم السيطرة على لاذيقا والمدن الساحلية إلى طرابلس .

ولقد تلى المعركة اتخاذ الإمبراطورية موقف عدائى علنى من القوى الصليبية ، وقد أرسل الكسيوس إلى سلطان السلاجقة بغداد يخبره على

(١) Grosset : op. cit vol Ip 325

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٥ .

(٣) Ostrogorsky : op. cit p. 325

(٤) زين العابدين : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩ .

قال الفرنج ، ووصلت سفارته وقت وصول أهل حلب ، فاشتد أهل حلب في حث السلطان على الجهاد ، أما تقي الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حجة منك للإسلام حتى لقد أرسل إليك في جهادهم ، ^(١) وتضمنت رسالة الإمبراطور البيزنطي للسلطان والخليفة العباسي عرض التحالف بين البيزنطيين والمسلمين ، كما تضمن الإشارة من طرف حتى إلى نوابه الصليبيين ، وكانت هذه السفارة تهدف إلى القيام بجهد مشترك بين بغداد وبين نطة ضد الصليبيين ، وكان هدف الإمبراطور لإضعاف كلا الجانبين وخاصة بعد أن تأكد أن لا أمل له في استعادة أنطاكية .

آسيا الصغرى بعد الحملة الصليبية الأولى :

إذا نظرنا إلى خريطة آسيا الصغرى بعد نهاية الحملة الصليبية الأولى ، نجد أن الأوضاع لم يحدث فيها تغيرات جوهرية ، فلم يسيطر الكسيوس إلا على الجزء الغربي فضلاً عن الساحلين الشمالي والجنوبي بينما سيطر الترك على الداخل ، ولقد عقد الإمبراطور اتفاقية مع قلعج أرسلان ضد الصليبيين . وبهذا تفرغ قلعج أرسلان للتأجها إلى الشرق وبدأ بالاستيلاء على ملطية ٤٩٦ هـ - ١١٠٣ م من يد غازي كشتكين ، ثم وجه جنوده إلى شرق الأناضول . وأنجبرهم على الاعتراف بسلطانه ، ثم نشب صراع بينه وبين سلاجقة العراق حين اجتاع الموصل ، واشتبك في معركة على نهر الخابور ضد جيش أرسله السلطان محمود حين لقي مصرعه كآبيه في شوال ٥٠٠ هـ - يوليو ١١٠٧ م ولقد ترك العرش في قونية خالياً لأن أكبر أبنائه شاهنشاه ملكشاه أخذه حاكم الموصل إلى أصفهان أسيراً وظل هناك إلى ٥٠٤ هـ - ١١١٠ م ^(٢) واستغلت بين نطة هذه الفرصة للتوسع على طول

(١) ابن الفلاس : قبل تاريخ دمشق ص ١٧٩ ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٥٧
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٠١ حوادث ٤٩٦ هـ .

(٢) Camb. Hist. of Islam vol I P. 239

الساحل . بل استطاعت مفاجأة جموع تركية معها نسانها وأولادها كانت تتحرك في اتجاه وسط الأناضول وقضت الجيوش البيزنطية على كل من فيها .

وكان من الطبيعي أن يصطدم البيزنطيون بالدانشمندان الذين زاد نفوذهم على بقية العناصر التركية لضعف سلاجقة الروم . فسيطر غازي على وسط الأناضول واشتبك مع الفرنج والأرمن في الجنوب ومع البيزنطيين في الغرب ، وخاصة إمارة طرابزون في الشمال الشرقي ، وفي قبادوقيا دخل الأمير حسن حاكمها في ١١٠٧ في صراع مع بيزنطة (١) . ولكن ملكشاه أكبر أولاد قلع أرسلان استطاع التخلص من أسر سلاجقة العراق ، واتخذ قونية عاصمة له ١١٠٦ - ١١٠٧ م فتحالف معه الإمبراطور البيزنطي ضد حسن الذي تقدم في اتجاه فيلادلفيا . وكان يسمى إلى الاستيلاء على أزمير ، وكان هدف ملكشاه من التعاون مع بيزنطة استرداد أراضي أسلافه التي وقعت في يد الدانشمندان . ولقد تصدى لحسن وقواته القائد البيزنطي Eustathius Philloceas قائد غرب الأناضول واستطاع هزيمته واستعاد الجزء الغربي من الأناضول واحباط محاولة حسن واستنقاذ الشاطئ الإيجيني (٢) .

ولكن مالبث أن غير ملكشاه موقفه ووجه قواته ضد فيلادلفيا البيزنطية سنة ١١١٢ م ، والتحم مع القائد البيزنطي Gabraeus ثم اشتبك مرة ثانية في سنة ١١١٣ م ، فقام القائد البيزنطي بهجوم سريع على يثينا وأسوار قونية . ورد السلاجقة على ذلك بحصار القائد محمد لمدينة

Setton : op. cit I p. 342. (١)

punicman op-cit vol2 p.139. (٢)

Poemarnum وقبض على قائدها البيزنطى .، اتجه بعد ذلك إلى أبيدوس، وحاصر السلطان برجاءه واستولى عليها . فقرر الكسيوس الخروج بنفسه لمواجهة السلاجقة ، وانتظروهم أثناء عودتهم يحملين بالغنائم وفاجأهم ، واشتبك معهم قرب *Gatyaem* ، وبجح فى استعادة الأسرى والغنائم .

وفى سنة ١١١٥ م ترددت الأنباء أن ملكشاه يستعد للحرب مرة ثانية وقضى الكسيوس السنة فى احتلال يديا ، وفى السنة التالية قرر الإمبراطور أن يبدأ الهجوم رغم مرضه ، فاتجه جنوبا إلى قونية وانتصر البيزنطيون فى *Philamelum* ، واضطر ملكشاه لطالب الصلح واعترف بحدود بيزنطة التى امتدت من طرابزون إلى قليقية والمناطق غرب أنقرة^(١) . ولكن تلى ذلك مقتل ملكشاه على يد أخيه مسعود بمعاونة حماته الأمير غازى كشتكين ٥٤٤٩ هـ - ١١٠٥ م - ٥٢٩ د - ١١٤٣ م ، وتقلصت أراضي مملكة سلاجقة الروم وأصبحت لاتتعدى ضواحي قونية وأصبحت تحت وصاية الدانشمندين .^(٢) كل هذه العوامل ساعدت حنا الثانى ابن الكسيوس الذى تولى سنة ١١١٨ م على التوسع على حساب الترك^(٣) .

ضعف المملكة السلجوقية وتراجع الترك إلى قلب الأناضول :
تولى حنا الثانى (١١١٨ م - ١١٤٣ م) خلفاً لأبيه الكسيوس ويعتبر عهد حناومانويل هو الفترة التى بلغت فيها بيزنطة أقصى توسع وقوة وكانت نهايته بداية الانهيار للتوسع البيزنطى . ويعتبر حنا من أعظم أباطرة آل كومنين مهارة فهو قائد يتمتع بنظر ثاقب^(٤) .

(١) Ostrogorsky op. cit p. 329

(٢) Camb. Hist. of Islam I.p. 240

(٣) أسد رستم : الروم ص ١٢٣

(٤) Ostrogorsky : op. cit p. 330

وكان يعرف كيف يحقق أهدافه ، سار على سياسة أياه بإرادة حديدية . ولكنه كان يختلف عنه حيث كان اهتمامه منصباً على الشرق فلم يضارع أباه في الاهتمام بالجانب الأوربي ، وبعد أن انتهى من مشاكلة في الغرب التي تتمثل في الصراع مع البندقية التي احاطت بتجارة بيزنطة بحلقة محكمة وهاجمت الإمبراطور في البحر الايجيني فعقد عاهدة معها ١١٢٢ م ، وفي نفس الوقت حقق نصراً في البلقان على المجر ١١٢٢ ووضع حداً لغزواتهم وأجبر الصرب على السلم ثم اتجه إلى آسيا الصغرى ، إذ رأى أنه لا بد له من تأمين حدوده واستعادة ما فقدته الإمبراطورية من أملاك وتطهير الطرق التي تجتاز الأناضول وتدعيم قواته في المناطق التي تم الاستيلاء عليها في الأجزاء الغربية عقب الحرب الصليبية الأولى ، وأن يمد الحد الداخلي صوب الشمال الشرقي حتى إقليم مشمطون (١) .

وكان في هذا تهديد سافر للدانشمند وهم العدو الذي كان يمثل خطراً مباشراً على الوجود البيزنطي في آسيا الصغرى ، فإن سلاجقة الروم لم يعد لهم بعد موت ملكشاه نفس التأثير الأول والفاعلية في المنطقة ، وكان حنا الثاني عند توليه قد قام بالاستيلاء على مدن لاذيقا ، sozpolla (٢) ولكن الأمير الدانشمندى استغل فرصة انشغال الإمبراطور بأمر البجناك والصرب في البلقان وبدعم من الأرائقة هزم دوق طرابزون ، وحليفه منجوشك حاكم shirvan .

وأتاح النزاع الذي نشب بين مسعود وأخيه عرب حاكم أنقرة وقسطنطين الفرصة أمام الأمير الدانشمندى للاتجاه إلى قونية حيث أستولى على العرش ٥٣٠ - ١١٢٦ م ، فاضطر مسعود إلى الحرب إلى القسطنطينية

Matthieu d, Edesse: p33 (١)

ostrogorsky : op cit Ip 33

Setton : op. cit vol IP 437. Grousset : op cit vol.I p 362 (٢)

حيث استقبله الإمبراطور استقبالا حسناً ولكن مسعود بمعاونة بيزنطة استطاع استرداد عرشه ، فلجأ عرت بدوره إلى قليقية ثم إلى القسطنطينية وبذلك أصبح الإمبراطور هو الحكم في خلافت سلاجقة الروم ^(١) ، وممكنه هذا من استعادة قسطنطيني واعترف له بالتبعية حاكماً كنغري ، وأماسيا ، وإن كان عكر عليه صفوا انتصاراته هروب أخيه اسحاق حيث حيث قضى تسع أعوام يدبر ضده المكائد مع الأمراء المسلمين والأرمن ، ولقد استغل غازي الدانشمند ^(٢) هذه الفرصة ليتوسع على شاطئ البحر الأسود ، بل أن مسعود تقدم في غرب الأناضول وأصبح مسعود يسيطر على الجزء الجنوبي من شبه جزيرة الأناضول من سنجار إلى طوروس ^(٣) . أما غازي الدانشمند فكان يحكم من هاليس إلى الفرات ، والمنطقة بينهما فيحكمها أمراء مستقلون ولقد منح الخليفة و سلطان السلاجقة في العراق غازي لقب ملك بصفته أقوى حكام الأناضول .

وفي عام ٥٢٩ هـ — ١١٣٤ م توفي الملك غازي الدانشمند وخلفه ابنه محمد ، وكان الإمبراطور قد أتمجه بجهوده إلى الأرمن في قليقية ١١٣٧ م واستطاع الاستيلاء على طرسوس وأذنة ومصيصة وهرب أمير أرمينيا ولكن قبض عليه وأرسل أسيراً إلى القسطنطينية ، وبذلك أصبح الطريق لسوريا مفتوحاً ، وحاصر الإمبراطور أنطاكية ١١٣٧ م واضطر حاكمها ريموند بواتيه لقبول الصلح مع الإمبراطور ^(٤) . ثم حاصر حلب ولكن لم يستطع الاستيلاء عليها بسبب قدوم إمداد من قبل زنكي اتابك الموصل ، واضطر الإمبراطور للانسحاب لتعرض بلاده لهجمات الدانشمندی الذي

Camb. Hist. of Islam vol I p. 240 (١)

Ostrogorsky. op. cit. p. 324 (٢)

Setton : op. cit p. 337 (٣)

Grousset. op. cit. vol Ip. 85

(٤) ابن الفلاني ذیل تاریخ دمشق ص ٢٦٣

Setton op. cit vol 2' p. 439

حاولوا مد حدودهم على حساب الأراضي البيزنطية ، فاضطر الإمبراطور للسير إلى عاصمتهم نيكسار في ٥٣٤ هـ - ١١٤٠ م وقرر الإمبراطور تطهير الأناضول منهم ، في نفس الوقت الذي عزل فيه ثيودور جابراس دوق طرابزون ، ورحل إلى نيكسار بعد أن تكبد كثيراً من الخسائر في شمال الأناضول وقد استمر حصار المدينة فترة طويلة تخللها العديد من المعارك بين الجانبين ولقد تسبب طول مدة الحصار في إشاعة الفوضى والقلق في الجيش البيزنطي ، وقام أحد الأمراء البيزنطيين بالهروب إلى معسكر السلطان مسعود حيث اعتنق الإسلام وتزوج ابنة السلطان . ولقد دفع هذا بالإمبراطور لرفع الحصار والعودة عن طريق البحر الأسود إلى القسطنطينية ١١٤١ م ، ونتيجة لهذا تقدم مسعود في الأناضول . ولقد أفاد من النزاع الذي تبلى وفاة محمد الدانشمندی في ٥٣٦ هـ - ١١٤٢ م والذي وقع بين ياغي بازان شقيق الملك محمد وبين ذي النون ابن محمد وسائر أفراد الأسرة ، فتقدم مسعود وحاصر ملطية وطرده الدانشمند من أراضيه ، واستعادت أغلب الأناضول من الدانشمند إلى السلاجقة ، وبينما كان السلطان يمد حدوده إلى الشرق مستفيداً من النزاع بين أتابك الموصل والارائقة^(١) اندفع التركمان في غرب الأناضول عبر وادي الميندر وزحفوا على المناطق الزراعية ، وقصوا على الأمن والرخاء التجاري ، وخربت الطرق التي تربط بين المدن .

وفي تلك الأثناء توفي حنا كومنين وخلفه رابع أبنائه ماتويل الذي نهج سياسة أبيه وجده في محاولة استعادة نفوذ بيزنطة في آسيا الصغرى^(٢) . وقاد الإمبراطور جيشاً كبيراً واتجه به إلى غرب الأناضول لاستئصال

Michel le syrien p : 214 (١)

Camb Hist.of Islam vol 1 p 439

Ostrogorsky ob. cit 32e (٢)

السكان التركي في المنطقة، وبعط أن طهر غرب الأناضول، وهزم قوات السلاجقة في اسكي شهر وحرقت المدينة، ولما سمع السلطان باقتراب الإمبراطور سارع بالحضور من الشرق وأعد جيوشه في Akaray، ولقد عسكرت الجيوش البيزنطية إلى الغرب من قونية وخربوا المناطق المحيطة بها وقتلوا الآلاف من أهلها.

وإن كان الإمبراطور قد اضطر للتراجع بعد هجوم الجيش السلجوقي، وبعد أنباء دوم الحملة الصليبية الثانية، واضطر الطرفان لمقتاف.

الزنكيون وسلاجقة الروم :

كان لسقوط الرها على يد عماد الدين الزنكي أثر كبير بالنسبة للصليبي الشام، وبالنسبة للعالم الغربي عامة (١)، وكانت الرها تمثل خطراً كبيراً على خطوط

(١) الزنكيون : كان أوسفر والد زنكي من أعظم ممالك السلطان ملكشاه ولاء حكم حلب سنة ١٠٩٢م ولكنه في مصرعه ١٩٠٤م ثم دخل زنكي في خدمة جاولي والبرسق واشتهر زنكي بنضاله ضد الصليبيين واشترك في حملة مودود ومنعه السلطان آمد والبصرة وواسط، وظهر زنكي في أثناء القتال الذي وقع بين الخليفة المسترشد بالله وبين السلطان محمود السلجوقي نزاع صيته في بغداد وأتماز زنكي إلى جانب السلطان ونصره. وازداد نفوذ زنكي حين تولى أمر الموصل سنة ١١٢٧م ونفى السنوات إلى ١١٤٤م في نضال مستمر، واستولى على حلب سنة ١١٢٩م وبذلك تهيأت له الفرصة للتدخل في شئون الشام وسمى لنوحيد القوى الإسلامية في بلاد الشام لمواجهة الصليبيين وكانت تلك القوى تتمثل في إمارة حمص، ثم دمشق وساعة في الشمال، وحوارن في الجنوب، واستطاع هزيمة الصليبيين سنة ١١٣٨م وفي ديسمبر سنة ١١٤٤م انه ولى على الرها أول الإمارات الصليبية.

لمزيد من التفاصيل ابن الأثير الكامل حوادث ٥٢٣هـ إلى ٥٢٩هـ
سعيد عاشور الحركة الصليبية ج ٢ ص ٥٩٧.

المواضلات الإسلامية بين الموصل وحلب وبين بغداد وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى وسارع البابا يوجين الثالث إلى الدعوة لحرب صليبية جديدة .

واستجاب لدعوته كل من كثراد الثاني امبراطور المانيا ولويس السابع ملك فرنسا ، وعلى الرغم من أن الحملة الصليبية توافرها كل أسباب النجاح فإنها تعتبر من الحملات الفاشلة في تاريخ الحروب الصليبية ، ولقد افتقرت تلك الحملة لما تتمتع به الحملة الأولى من قوة روحية ودوافع .

ولقد اختلف موقف بيزنطة من هذه الحملة عن الحملة الصليبية الأولى التي كان سببها استنجد بيزنطة بالغرب ، فإن بيزنطة في عهد مانويل كانت قد استعادت آسيا الصغرى وأصبحت الإمارات اللاتينية حاضرة بينها وبين المسلمين (١) ، ثم حالة الضعف التي تمر بها دولة سلاجقة الروم والخلاف بين الأتراك في آسيا الصغرى بحيث لم يعودوا خطراً إلى جانب اعتراف ريموند لأمير أنطاكية بالتبعية ، فرأى مانويل أن كل مانفعه الحملة بالنسبة لبيزنطية جلب المتاعب والاعتماد على أراضيها والمعاناة من تصرفات الصليبيين .

في نفس الوقت الذي تعنى فيه الحملة بدعم اللاتين في الشرق وإمارة أنطاكية خاصة التي هي العدو اللدود لبيزنطة . وكانت علاقة بيزنطة بالغرب متوترة ولم يكن هناك تعاطف بين مانويل وكثراد ، وازدادت العلاقات سوءاً نتيجة ما صاحب وصول الصليبيين ومرورهم بأراضي الإمبراطورية

(١) ابن القلائس ، قبل تاريخ دمشق ص ٢٢٢ / ٢٢٤ .

سيد عاشور الحركة الصليبية ج ١ ص ٦٠٤

من مشاكل^(١) حتى أن مشروع الاستيلاء على القسطنطينية نوقش بين قادة الحملة ، وبذل الإمبراطور غاية جهده لسرعة نقل الصليبين من العاصمة إلى آسيا الصغرى وأصر على طلب قسم الولاء وتسليم بين نطة البلاد التي ستقوم الحملة بفتحها ، ووعد الإمبراطور بتوفير المون ، ولكن لم يقدم البيزنطيون المساعدات الكافية ، ولم يشتركوا معهم في مهاجمة السلاجقة ، وبذلك حال البيزنطيون دون القضاء على العائق الذي يهدد الطريق البرى للجيوش الصليبية الوافدة من الغرب . وفي نفس الوقت تطهير آسيا الصغرى من عدوهم اللادود وهم الترك^(٢) .

عبر كثراد الثالث البسفور إلى آسيا الصغرى ، ولم يتخذ الطريق الذي نصحه البيزنطيون باخذه وهو طريق الساحل الغربى إلى إيطاليا ، والذي يخضع لسلطان بين نطة^(٣) واختار كثراد أن يشق طريقه في جوف الأناضول مخترقاً أراضى السلاجقة ، ودب النزاع بين السلطان ودليلهم البيزنطى فتركهم الدليل وتحلف عنهم بما عرض الصليبين لأسوأ النتائج ودارت في أسكى شهر بالقرب من ضريلوم معركة في ٢٨ رمضان ٤٥٢ هـ - ١١٤٧ م^(٤) . هلك فيها معظم الجيش الصليبي وغنم السلاجقة الكثير ، ولما وصلت لويس السابع تلك الأنباء كان قد وصل أمام أسوار القسطنطينية سنة ١١٤٧ ، وصدم بأبناء الصلح المنفرد الذي عقده الإمبراطور مع سلاجقة قونية ، في نفس الوقت الذى طلب فيه الإمبراطور أن يقسم له يمين التبعية ويعيد له ما يفتحونه من أراضى وإلا قطع عنهم الإمداد . واتخذ الملك الفرنسى الطريق الجنوبي المحاذى لساحل بحر إيجه بعيداً عن السلاجقة^(٥) .

Ostrogorsky . op. Cit p 339 (١)

Ostrogorsky ; op. citp. 329 (٢)

Runicmar : op. cit Voi 2 p 269 (٣)

Grousset : op. cit Vol. 2p 242 (٤)

والتقى بفلول جيش كترار الثالث وانجموا إلى أزمير وانسيوس ، وكان
المروور خلال أواضى وعرة وطرق خطيرة ، إلى جانب الصراع بين
الفرنسيين والألمان وخلافات اللاتين والإغريق .

من أنسيوس عاد كترار إلى القسطنطينية لمرضه^(١) ، واستقبله الإمبراطور
استقبالا حسنا ، وأرسل مانويل رسالة إلى لويس يطلب منه تجنب الاشتباك
مع الأتراك ، فقد كان الإمبراطور ملتزماً بمعاهدة مع المسلمين ، ولم يستجب
لويس لنصيحة الإمبراطور فلقى هزيمة من قبل السلاجقة سنة ١١٤٨ م .
ثم اتجه بعد ذلك إلى إيطاليا واتخذ طريق البحر إلى السويدية وأنطاكية ،
ولما لم يتوافر العدد اللازم من السفن سلك بقية الجيش طريق طرسوس
إلى أنطاكية وتعرض غالييته إلى الهلاك^(٢) ، ورفضت بيزنطة تقديم
المساعدة بل عاقبت مدينة إيطاليا التي عاوتهم ، وعانت الحملة الأمرين من
سوء معاملة البيزنطيين وهجمات السلاجقة ، إلى أن تم تقاهم على دفعات إلى
الشام . ويقال إن الحملة خلفت في آسيا الصغرى أعداد كبيرة تعاني
من الجوع والمرض حتى أن الترك مدوا لهم يد العون وأمدوا جراحهم
بالطعام^(٣) .

ولم تحقق الحملة ما هو مرجو منها فبدلاً من تحطيم قوة نور الدين الذي
خلف أباه عماد الدين زنكي في تزعم حركة الجهاد إذ بها تنجه إلى دمشق
ولكنها لم تنجح في الاستيلاء عليها ، كل ما أفادته زيادة البغضاء ضد بيزنطة
حتى أن لويس السابع تحالف مع النورمان ، وحمل كل الطرفين الآخر
أسباب الهزيمة .

Setton : op. cit. Vol. Ip. 399 (١)

Runicman , op. cit , Vol. 2. p. 273. (٢)

Grousset : op. cit, Vol. 2 p. 248 (٣)

أما بالنسبة للسلاجقة فقد ثبت للعالم الإسلامى أنه من الممكن مواجهة الصليبيين وهزيمتهم ، ودعت مركز مسعود السلجوقى حتى أن الخليفة العباسى أرسل إليه التشاريف والهدايا (١) .

وأثبتت تلك المعركة أنه ليس من العسير على القوى الإسلامية إذا اتحدت أن تهزم القوات الصليبية ، وخاصة أن نور الدين زنكى سار على سياسة أليه فى تكوين جبهة موحدة (٢) وبسط سلطانه على الأمراء المسلمين فى الشام وآسيا الصغرى بالوسائل السلمية ، من ذلك ما حدث من معاهدة بين نور الدين وأمراء السلاجقة فى آسيا الصغرى وترتب على ذلك إقتسام نور الدين والسلاجقة ما تبقى من أملاك الرها ، وقد استولى مسعود على مرعش وكيسوم وعيتتاب ودلوك فى حين استولى نور الدين على عزاز (٣) وكان مانويل قد اشترى بقايا المملكة من وريثتها ولكنهم لم يلقوا بالا إلى انفاقه ، وتقدم حاكم سيواس ياغى بازان فد حدوده إلى البحر الأسود واستولى عليه ولكن فى سنة ١١٥٤ م تحالف مانويل مع مسعود سلطان قونية ضد الأرمن الذين سيطروا على عين زربة وآذنه وطر سوس . وكان أرنط أمير أنطاكية قد حالف ثورم أمير قليقية الأرمنى ضد سلاجقة الروم والذين نظمين جميعاً . (٤) فى الوقت الذى اتخذ فيه مانويل من سلاجقة الروم حاجزاً وعن هذا الطريق استطاع السلاجقة الاستيلاء على عدد من المدن الأرمنية ، ولقد حاول السلطان الاستيلاء على بقية قليقية ولكن انتشار الطاعون فى بلاد منعه من ذلك وما لبث أن توفى سنة ٥٥٧ هـ - ١١٥٥ م . (٥)

(١) Camb. Hist. of Islam Ip-241

(٢) Grousset. op. cit II p 288

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٥

(٤) ابن القلائسى ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٠ ، أبو شامة لزوعين ص ٧١

(٥) Runiomen ; op. cit. Vol . 2p 327

على كل فانه ترك سلطته كأقوى إدارة في الأناضول .

خلف مسعود ابنه قلع ارسلان الثاني (٥٥٩ هـ - ٥٨٨ هـ) ، (١١٥٥ م ١١٩٣) ولقد واجه في أول عهده مشاكل عديدة فلقد ثار عليه أخيه ملكشاه ملك قسطنطين وأنقرة ، والأمير الدانشمندى ياغى بازان صاحب سيواس الذى استنجد بنور الدين فاستجاب له ^(١) وهاجم نور الدين البلاد التى أخذها السلاجقة من قبل من إمارة الرها وهى عتاق دلوک سمساط ولم يسع قلع ارسلان إلا أن يتحالف مع ثورس صاحب قليقية وريجنالد أمير أنطاكية غير أنه لم يلبث أن قبل الأمر الواقع وحدث وفاء بينه وبين نور الدين . ^(٢)

ولما رأى الإمبراطور ازدياد قوة نور الدين سعى إلى التحالف معه ، وكما أن الإمبراطور قد خرج سنة ١١٥٩ م على رأس حملة لتأديب الأرمن وحاكم أنطاكية ريجنالد الذى طلب العفو من الإمبراطور وانضم إليه هو وحاكم بيت المقدس بلدوين للقيام بمهاجمة المعاقل الإسلامية ^(٣) . ولكن مانويل ارسل لنور الدين يدعوه للتحالف وكان دافعه لهذا التحالف ضد سلاجقة آسيا ، إلى جانب احتفاظه بميزان القوى في الشرق حتى يضمن خضوع الصليبيين طالما شعروا بقوة نور الدين ^(٤) .

وكان دافع نور الدين وقوعه بين عدوين الصليبيين والبيزنطيين فسعى للتفرقة بينهما . وعقد معاهدة لتبادل الأسرى سنة ١١٥٩ م فسلم نور الدين من لديه من أسرى الصليبيين واستولى في المقابل على رعبان ، وكيسوم

(١) Gamb. Hist. of Islam vol. I p242

(٢) Gibb; The career of Nureldin p 216

(٣) ابن الفلانى : ذيل تاريخ دمشق ص ٥٧ ، أبو شامة الروضتين ص ١٢٣

(٤) Grousset ; op. cit. Vol. 2. p. 40٦

وبهتا ومرعش في يناير سنة ١١٦٠ م^(١). وهذا الاتفاق مكن مانويل كومنين من العودة إلى القسطنطينية ، ليقوم مباشرة بحملة لقتال سلاجقة الروم سنة ١١٦٠ - ١١٦١ م واستطاع ازال الهزيمة بقلج ارسلان الثاني، مما يوحى بأن الاتفاقية السابقة بين نور الدين وبين الإمبراطور البيزنطي تضمنت نصاً سرياً يقضى بتحالف الطرفين ضد السلاجقة في آسيا الصغرى، وإن كانت راجع العربية لم تشر مطلقاً إلى مثل هذا النص ، ولم يلبث قلع ارسلان أن زار بنفسه القسطنطينية سنة ١١٦٢ م حيث قدم ولاءه للإمبراطور البيزنطي وأعلن تبعيته له وعقد اتفاقية كانت تنص على حماية الحدود البيزنطية ووعد بأن يرسل كتاب من عنده لقتال أعداء الإمبراطور في أوروبا^(٢)؛ وإعادة بعض المدن البيزنطية التي استولى عليها مؤخراً ، ونتيجة لهذه الهدنة أعيد فتح طريق آسيا الصغرى للحجاج^(٣) وبذلك قبل أن ينقضي قرن على موقعة مازكرت اعتبر رجال اللات البيزنطي أن قوته أصبحت محمية تابعة لبيزنطة .^(٤) ورغم ذلك فإن ماتر ضت له دولة السلاجقة على يد البيزنطيين، عوضاً عنه ما تبوأ لها من فرصة للتدخل في منازعات الدانشمند ، فاعترف الدانشمند ذنون بسلطانهم إلى جانب أن وفاة ياغي بازان سنة ١١٦٤ م كانت في صالح قلع ارسلان فتوسع على حسابهم ، كذلك تدخل فيمايجرى على الحدود السورية الفراتية لمملكته، ولقد أفاد قلع ارسلان مثلباً أفاد مسعود من الانتصارات التي حققها نور الدين على الفرنج بأن طالب بشرط من الأراضي الواقعة على سهل سوريا الشمالية

Chalandon: *loc. Commenes* p480 (١)

Grousset *op. cit.* p. 420 (٢)

Setton, *op. cit.* Vol. 2. 540 (٣)

Setton, *op. cit.* Vol. 2, 546 - 7 (٤)

Runicman : *op. cit.* Vol. 2p. 555 (٥)

المجاور لجبال الأناضول . بالإضافة إلى المواضع الشمالية التي كانت من أملاك كرتية الرها^(١) .

ومن الواضح أن نور الدين لن يسمح لهذه الدول أن تنافسه فيما له من نفوذ وسلطان في البلاد التي يعتبرها ملكا له ومن هنا فترت العلاقة بينهما ، في نفس الوقت الذي حرض نور الدين على إذكاء روح الجهاد عند أمراء آسيا الصغرى وخاصة لأنه تحقق لبيزنطة والصليبيين أن ما يهددهم هو نور الدين ، وكان مانويل قد عقد اتفاقية مع الصليبيين للقيام بحملة ضد مصر لاحتلالها وطرده صلاح الدين الأيوبي نائب نور الدين فيها^(٢) . فأرسل نور الدين قلعج أرسلان يحثه على الانضمام إليه وقاتل بيزنطية ، كما أمره بإعداده بما يحتاج إليه من قوات لقتال الفرنج نظرا لأن السلطان السلجوقي يملك طرفا كبيرا من بلاد الإسلام وأنباء أن ترك الروم وجهادهم فكتب إليه : إما أن تنجذب بعسكر لأقاتل بهم وإما أن تجاهد من يجاورك من الفرنج^(٣) ، ولكن قلعج أرسلان كان حريصا على علاقته ببيزنطة إلى جانب تخوفه من نور الدين وبذلك بدا في نظر العالم الإسلامي كحليف لبيزنطة . وبدلا من التعاون مع نور الدين وجه جيوشه إلى الدانشمند وتدخل في خلافاتهم ابتداء من سنة ١١٦٤ م وانتزع قلعج أرسلان أنقرة من أخيه ، واستولى على أملاك ذو النون في قبادوفيا^(٤) ، وكان من الطبيعي أن يستنجد ذو النون بنور الدين باعتباره القوة الفعالة في العالم الإسلامي التي يستطيع اللجوء

(١) Baldwin : op. cit vol. ١, p.355

(٢) ابن الأثير : التاريخ العام ص ١٦٠ - ١٦١

(٣) ابن الأثير : التاريخ العام ص ١٦٠ - ١٦١

Camb. Hist. of Islam vol I p 245 (٤)

إليها^(١)، ورغم أن نور الدين بعد استيلائه على مصر لم يعد يحفل بالحدود الشمالية، فإنه حاز امتيازات إقليمية ضخمة في هذه الجهة بمقتضى تقليد من الخليفة، وبفضل ما حصل عليه من إمداد من قبل أتباعه وحلفائه في الجزيرة، وتعرضت أملاك سلاجقة الروم للغزو ثلاث مرات من ١١٧١ - ١١٧٣ م^(٢) من قبل جيوشه بل قام نور الدين بنفسه بغزو تلك الجهات، واضطر قلعج أرسلان للاعتراف بحكم ذوالنون في أماسيا إلى جانب قيام نائب يمثل نور الدين هناك^(٣). وكذلك استولى نور الدين على مرعش، واضطر قلعج أرسلان لدفع هذا إلى التماس الوفاق مع جيرانه المسلمين، وعقد معاهدة سنة ١١٧٣ م ولكن ابتسم الحظ لقلعج أرسلان في سنة ١١٧٤ م بموت نور الدين فأضحى من اليسير إعادة وحدة الأناضول باستثناء أرمينية لصالح السلاجقة دون خوف من المقاومة، فأضحت يد قلعج أرسلان مبسوطة فان الخوف من نور الدين منعه من التدخل في شؤون الدانشمند، ومن مهاجمة أراضى بيزنطة.

(١) ابن واصل: مغرر الكروب ج ١ ص ٢٢٣

(٢) (٣) Camb. Med. Hist, vol. 4p377

الفصل الخامس

عصر الفضة في التاريخ السلجوقي

معركة ميركيفاليون :

اتجه قلع أرسلان الثاني للتوسع في أراضي بينظنة وشجعه على ذلك أفور منها انصراف الامبراطور البيزنطى مانويل إلى الاهتمام بالأمور السياسية في أوروبا ، منها النزاع مع الامبراطور فردريك بربروسه ، فعمد فردريك إلى إثارة المتاعب بتشجيع قلع أرسلان على الثورة على بينظنة والتوغل في أراضي آسيا الصغرى سنة ١١٧٥ م ، وقام مانويل بتدعيم خط الاستحكامات اللذين يؤلفهما نهرا مايندر وهرموس ، وأرسل إلى البابا يستنجد به ويدعو لحملة صليبية لتأمين آسيا الصغرى (١) .

وكان مانويل يعتمد على المركز الطيب الذى استطاع إقامته لبيزنطية في الشرق مع اللاتين . ولقد استغل قلع أرسلان فرصة انشغال الامبراطور بأمور الغرب لتدعيم مركزه في آسيا الصغرى فأدى هذا إلى تعجل الصراع ، فقرر الامبراطور الخروج للملاقاة فأعد حملتين سنة ١١٧٦م إحداهما قادها بنفسه ، والأخرى عهد بقيادتها إلى أحد أقربائه وهو Andronicus Vatatzes ، وكان الهدف من جيش أندرونيكوس هو إعادة ذواتون السلجوقي إلى ممتلكاته (٢) . ولما سمع قلع أرسلان الثانى بذلك طلب السلام والتفاوض ، ولكن مانويل رفض الاستجابة له على أن حملة أندرونيكوس تعرضت لهزيمة ساحقة وقتل قائدها وأرسل رأسه إلى

(١) Ostrogorsky. op cit p.339

(٢) Runciman . op, cit, vol. 2, p.412

السلطان ، أما الامبراطور فعاد بجيشه عبر نهرات فريجيا الجبلية ونصححه بعض القادة الخبراء في الأمور العسكرية بالألا يتخذ طريق الممرات ، ولكن حماس القادة الشبان حله على اتباع رأيهم بعد أن اقنعوه بالهجوم^(١) ، وحشد قلعج أرسلان الثاني جيشا لا يقل عن جيش مانويل من حيث العدد فضلا عن مهارة الجنود وحاسمهم وفي ١٧ سبتمبر سنة ١١٧٦ م سار الجيش البيزنطى خلال الممر فأحاط بهم الترك من جميع الجهات عند Myriocopholen وسدوا جميع المنافذ وأبادوا مقدمة الجيش وقتلوا أمير أطاكية بلديون ، وحاققت الهزيمة ببقية الجيش وألقى السلاجقة برأس القائد Vatatesen أمام الجنود البيزنطيين وفر الإمبراطور بعد أن خافته شجاعته وحاول من تبقى من الجيش أن يتبعه ولكن لم يحظ بذلك إلا عدد قليل نظرا لأن الترك سدوا جميع المنافذ ولم يسمحوا لهم بالفرار^(٢) . وحدثت مذبحة هائلة للبيزنطيين ، ثم أنفذ قلعج أرسلان رسولا يمرض الصلح على الامبراطور الذى كان يجمع فلول جيشه فى السهل فى مقابل أن يعيد اليه قلعتى ضربليوم وسبلايم Dorylocam , Sublaen بعد نزاع سلاحهما^(٣) ، فبادر الامبراطور بقبول العرض ، وأرسل بصحبة الامبراطور ثلاثة من الأمراء الترك وحامية حمايته من التركمان أثناء تراجعه للقسطنطينية .^(٤)

ولم يدرك قلعج أرسلان الثانى أهمية انتصاره كما حدث مع الب أرسلان من قبل ، ولعل ذلك إلا أنه ركن كل اهتمامه فى الجهة الشرقية . إذا كان

Camb. Med. Hist. vol. Iv. p. 378 (1)

Chalardon op. cit, vol. 2. p. 612

Diehl : Hist. of the Byzantine Empire, 114 (2)

Camb Hist. of Islam : vol, I2p. 233 (3)

Runicman op. cit, vol. 2 p 378 (4)

ما يريده هو تأمين حدوده فقط فقد استولى على مملطية سنة ١١٧٧ م. Ulabola ، كوتيا ، واسكى شهر ١١٧٢ م وحاصر Denizli إيطاليا . و أصبحت الاناضول فعلا ارض الترك . وفي أواخر القرن الثاني عشر أصبحت تطلق عليها المصادر الغربية ارض الاتراك ^(١) . أما مانويل فإن ما حاق به من هزيمة تضارع من الأهمية ما حل بالبيزنطيين في معركة مانزكرت بل أن مانويل نفسه قد قارنها بمانزكرت ^(٢) . ولقد أدت إلى ضياع هبة بيزنطة أمام العالم الغربي ، حتى أن الامبراطور قسطنطين رسالة من فردريك بربروسا يطلب منه فيها الدخول في طاعته ، وأدى هذا أيضا إلى انهيار سياسة مانويل في مختلف القطاعات . وأصبح من غير المجدى أن يؤكد انتصاراته على الولايات اللاتينية في الشرق ^(٣) ، أو يحقق انتصارا على المجر ، أو يحصل على أراضي في إيطاليا . أو يتخذ سياسة هجومية في أوروبا أو الشرق الأدنى ، وجاءت هزيمة ميروكفالين ليثبت فشل سياسته ودبلوماسيته . وفشلت كل مشروعاته الشرقية ، بل وانهار وضع بيزنطة في العالم . فطردت بيزنطة من إيطاليا ، وأصبحت تواجه القوى الغربية ضعيفة منهكة ، حتى مشروع التعاون مع روما انتهى وصور المؤرخ البيزنطى Nicetas Ghoniates الموقف بقوله « أن اللاتين يطعمون في ممتلكاتنا ويرغبون في تدمير سلاطتنا ، بينما وبينهم بقوة واسعة مع الكراهية ووجاهات نظرا تختلف اختلافا تاما وطريقنا يسير في اتجاه معاكس ^(٤) »

وترجع أهمية هزيمة ميروكفالين إلى النتائج التي ترتبت عليها سواء

Cnmb. H i ist' of Islam p. 244 (1)

Ostrogorsky : op. cit. 347 (5)

Runciman , op. cit. vol, 2, p. 414 (3)

Ostrogorsky . op. cit. p 346 (4)

Runciman, op. cit. vol. 2. p. 418

من الجانب الإسلامي أو البيزنطي وأرباطهما بما حدث من تغير الأوضاع بعد وفاة نور الدين ، فقد قضى على الجيش البيزنطي الذي أعده كل من الكيسوس وحناء وتعذر عليه المضي إلى سوريا فزيمية سنة ١١٧٦ م كانت باللغة الأهمية بالنسبة للاتين في الشرق ، فقد أدركوا أهمية بيزنطة بالنسبة لهم وشعروا بلأن وجود بيزنطة مهم لمواجهة القوى الإسلامية النامية في حين أن الزنكيين في الشام الذي تنازعوا الوصاية على الصلح مع إسماعيل بعد وفاة نور الدين لم يشعروا بأهمية تلك المعركة بالنسبة لمستقبل اللاتين في الشرق .^(١)

وتعتبر تلك المعركة بداية الانهيار التام لدعوى بيزنطة في السيطرة على الأناضول وإيدانا بعودة سياسة دولة سلاجقة الروم ، واتجه السلاجقة إلى أقاليم الفرات وخاصة بعد وفاة مانويل كومنين ١١٨٢ م ، وماتلى وفاته من اضطرابات أضعفت بيزنطة فلم يعد بوسعها مواجهة ضغط العناصر التركية النازلة على حدودها ، وما لدينا من وثائق قليلة فإنها تكفي لأن تدل على أن ميروكفاليون ليست غسب مظهره واضحة لقوة السلاجقة الحربية ، بل أن الدولة السلجوقية شرعت في إعداد نظم إدارية ، وفي تنمية مظاهر الحضارة الإسلامية وفي إثارة النشاط الاقتصادي^(٢) وإيجاد قانون منظم فكان هذا نواة الوحدة السياسية التي اكتملت في القرن التالي على أن هذه الحقبة في التوسع كانت فترة لازمة ، وهذا الازدواج استمر طوال تاريخ سلاجقة الروم .

(١) حوّل الامبراطور في سبتمبر عام ١١٧٦ م التحالف مع بلدوين ملك بيت المقدس لمهاجمة صلاح الدين في مصر ولإزالة آثار مزيمية ميروكفاليون وأرسل اسطولا لمصا ولجى البيزنطيون استجابة وكانت هذه آخر محاولة من جانب مانويل .

Hearsey, op. cit. p. 161 (2)

وكان اهتمام السلاجقة بفرض سيطرتهم على الغزاة والتركمان وخاصة الدانشمندان أكثر من اهتمامهم بعلاقتهم مع بزنطة واهتمامهم في هذه الفترة موجه للشرق .

وبدأت منذ سنة ١١٨٥ م ولسنوات عديدة حركة تركانية واسعة بدأت من أعالي الجزيرة ، وانتشرت إلى أرمينية ثم إلى حدود جورجيا ، ومنها إلى قبادوقيا السلجوقية ثم امتدت إلى قليقية وشمال الشام ، وكان زعيم تلك الحركة شخص يدعى رستم لا توجد عنه تفاصيل واضحة بالإضافة إلى أن التركمان في شرق الأناضول تأثروا ببن عمومتهم في إيران حضاريا وثقافيا .^(١)

وكان قلعج أرسلان قد تقدمت به العمر وأراد ارضاء ابنائه وخشى من تضارب الأطلاع وقيام صراع عند وفاته أو استغلال البعض لتلك الظروف فبدأ بتوزيع مملكته بينهم فقسم المملكة إحدى عشر قطاعا وزعها على أبنائه التسعة وشقيقه وابن أخيه وذلك في عام ١١٨٦ م ، غير أن الحقد لم يلبث أن دب بين الأخوة ، وترتب على ذلك أن جرى الاستعانة بالتركمان بقيادة رستم ، فاستعان بهم قطب ملك شاة أمير سيواس أكبر أبناء قلعج أرسلان ، فقد أراد أن يلبى أمر السلاجقة بعد أبيه والاستئثار بالأمر دون أخوته ، فارغم أباه على أن يجعله قسيما في الحكم .

وفي أثناء ذلك وصلت طلائع الحملة الصليبية الثالثة التي كان من قادتها فردريك بربروسيا حليف قلعج أرسلان^(٢) ، وكان أبناء قلعج أرسلان الباقين مشغولون في التوسع على حساب بزنطة ، فلك توقات سليمان وانبه إلى البحر الأسود وفتح سمسون ، وحاكم أنقره مسعود فتح Bola وكيخسرا

اتجه إلى واد المنير كل هذه العوامل جعلت بينة تبحر حليف
ولم تجد غير الاتجاه إلى صلاح الدين . (١) .

السلالة والحركة الصليبية الثالثة :

كان الوضع في الحملة الصليبية الثالثة يختلف عما عهدنا مع الحملات الصليبية
السابقة فإن العلاقات بين الأطراف في المنطقة تغيرت تغيرا جذريا ، فبعد
وفاة نور الدين استقل صلاح الدين بمصر ، وتزعج حركة الجهاد ومضى بها
خطوات مديدة وأخذ تفويضاً من الخليفة العباسي بحكم البلاد من الفرات إلى
التيل وتفرغ ابتداء من سنة ١١٨٦ م لقتال الصليبيين واستولى على أهم
المعاقل الصليبية . وفي معركة حطين في رمضان ٥٨٣ هـ - يوليو ١١٨٧ م
هزم الجيش الصليبي وقبض على ملك بيت المقدس وقادته (٢) ، وكان من
النتيجة أن يشر سقوط بيت المقدس على يد المسلمين العالم الغربي بأجمعه
والبابوية خاصة ، فطالبت البابوية ملوك الغرب بالإسراع لنجدة المسيحيين
في الشرق واستجاب لهذه الدعوة ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وفيليب
أغسطس ملك فرنسا وفريدريك بربروسا إمبراطور ألمانيا (٣) .

وكان الموقف البيزنطي قد تغير تجاه الحملات الصليبية فإذا كانت الحملات
وجدت أباطرة بيزنطيين على استعداد للتعاون مع الصليبيين رغم
" ضا على الحملات الصليبية أولا لأنها اعتادت نهب الأراضي
الدين . وثانيا لأن قادتها لم ينفذوا شروط يمين

Camb, Hⁱ

٥٠ هـ ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٧٥ ، ٧٤

Runciman :

الولاء الذى اعتاد الأباطرة البيزنطيون أخذه عليهم باستعادة كل المدن التى كانت خاضعة لهم قبل ليزنطة فالوضع بعد وفاة مانويل تحول إلى عدااء سافر صريح بين الجانب البيزنطى حكومة وشعباً وبين اللاتين الغربيين حتى انتهى الأمر بتحالف بيننطة مع صلاح الدين ضد الحملات الصليبية (١).

وفى المقابل قام الغرب ممثلاً فى الامبراطور فردريك الثانى بالتحالف مع سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ، وبعد أن كان غرض الحملة الصليبية الأولى تطهير طريق آسيا الصغرى من سلاجقة الروم وإعادة ليزنطة ، إذ بسلاجقة الروم يتحالفون مع فردريك ويمهدون له الطريق إلى بلاد الشام لحرب صلاح الدين الذى كان على عدااء معه واشتبك معه فى قتال سنة ١١٨٠م (٢).

ونجد أن ما مر بيننطة من تطورات بعد وفاة مانويل أدى إلى التقارب بينها وبين الأيوبيين وأدى إلى اتخاذ موقف سلبى مما حدث للاتين على يد صلاح الدين . فبعد وفاة مانويل خلفه سنة ١١٧٢م على العرش ابنه الكسيوس الثانى وقامت بالوصاية عليه أمه اللاتينية التى كانت يكرها الشعب والارستقراطية (٣) ، وإلى جانب أن مركز بيننطة كان منهاراً سواء فى الداخل أو الخارج وجرت عدة محاولات لاغتيال الامبراطور . فبدأ التغيير واضحا فى مخطط السياسة البيزنطية حين أرسل الامبراطور الكسيوس كومنين الثانى سنة ١١٨١م مبعوثاً إلى القاهرة لعقد صلح مع صلاح الدين ولكن قامت ثورة تزعمها أندرونيكوس كومنين ونجح فى الاستيلاء على العرش

(١) أبو شامة : الروستين ج ٢ ص ١٥١ . — ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٠٦

Ostrogorsky : op. cit p. 351 (٢)

Ostrogorsky' op cit. 352 (٣)

والسيطرة على الملك الطفل وتبع ذلك قيامه بمذبحة للاتين . وما ارتكبه من جرائم دفعه إلى أن يلتصق حديفاً في الشرق وخاصة أن التقت أهدافهما وهي استئصال الدول اللاتينية في الشرق إلى جانب تعرض أندرونيكوس إلى الهجوم من القوى الغربية ولذلك أرسل أندرونيكوس في سنة ١١٨٥ م سفارة لصالح الدين يستعيد ما بينهما من صداقة^(١) ويعرض قيام تحالف . وكان من شروطها أنه إذ جرى فتح فلسطين يجرى اقتسامها على أن يتنازل البيزنطيون بيت المقدس والمدن الساحلية ما عدا عسقلان ، وإذا جرى الاستيلاء على آسيا الصغرى فلا بد من إضافتها حتى أنطاكية وأرمينيا إلى الامبراطورية الشرقية . ولاشك أن أندرونيكوس مقابل هذه المساعدة وعد بأن يساعد المسلمين في نضالهم ضد اللاتين في سوريا^(٢) ، ويبدو أن هذا المعاهدة حازت القبول لدى الجانب الإسلامي ولكن أندرونيكوس طرد من العرش في ١٢ سبتمبر ١١٨٥ م قبل أن يصله رد صلاح الدين ، ولقد رحب الامبراطور الجديد إسحاق أنجيليوس بمخالفة صلاح الدين لتعرض عاصمته لهجوم النورمان ، فأقر المعاهدة بعد أن راجعها وعدلها صلاح الدين فيما بعد ، وبعد فتح بيت المقدس أرسل صلاح الدين سفارة إلى إسحاق تعلنه بما حققه وأرسل إسحاق سفارة جددت المخالفة مع صلاح الدين وأخبرته بما حدث في الغرب من الدعوة للحروب الصليبية^(٣)

(١) لم يكن التقارب على المستوى السياسي فقط ، بل على المستوى الشخصي إذ أن أندرونيكوس سبق أن نفي إلى بغداد ودمشق وتوفقت مائته بصلاح الدين ونور الدين ، وكذلك جاء إلى بلاط صلاح الدين كل من الكيوس أنجلوس وأخاه إسحاق .

(٢) Diehl, *Op. cit.* p. 134

Ostrogorsky *op. cit.* p. 135.

(٣) أبوشامة الرومانيين ج ٢ ص ١٥١

Crousset, *op. cit.* vol. 3p. 135

Crousset *op. cit.* vol. 3. p. 135

خاول صلاح الدين توثيق علاقته بإسحاق كيما يضمن مساعده وأراد أن يثير المتاعب لمن يمر بأراضيه من رجال الحملة وأنفذ سفارة من عنده لعرض معاهدة من فصوصها سجن من في القسطنطينية من اللاتين الذين وعدوا بالاشتراك في الحملة الثالثة ، بل أنه وافق أيضا على مقاومة كل جيش يحاول اجتياز مملكته . وفي ١١ مايو ١١٨٩ م أرسل فرديريك أسقف مونستر وبصحبه عدد من القادة الألمان ليخبروا إسحاق بقرب وصول بربروسة إلى القسطنطينية والسماح له باجتياز الأراضي البيزنطية عبر البسفور إلى الشاطئ الآسيوي وإمدادهم بالمؤن ، ولكن إسحق^(١) قبض على السفارة والراجع أنه تم بناء على إلحاح من صلاح الدين ، وأرسل مبعوثين من قبله إلى صلاح الدين للتصديق على المعاهدة في سبتمبر ١١٨٩ م وهو على مرج عيون بالشام وجرت مناقشة ما سوف تلجأ إليه بيزنطة مستقبلا في إخضاع سلطنة الروم في قونية المتحالفة مع بروسيا^(٢) ولعل بيزنطة كانت تزعم الاستيلاء على أرمينيا الصغرى وإنطاكية ، وإذا خشي صلاح الدين بربروسة لم يتردد أن يبذل لإسحاق من الأراضي ما ليس بحوزته مقابل تدمير الجيش الألماني^(٣) .

واقده سعى إسحاق لعرقلة الحملة بكل الوسائل ، وفي المقابل لم يتردد فرديريك في مهاجمة أراضي بيزنطة في نيش وصوفيا ، وفليبوبوليس واضطر إسحاق لإطلاق سراح السفارة في ٢٠ أكتوبر ١١٨٩ م ، وتقدم فرديريك في أراضي بيزنطة واستولى على إدرنة بل أنه أعد خطة لحصار القسطنطينية ، ولم يئأس إسحاق من الحصول على مساعدة المسلمين حتى فبراير ١١٩٠ م

(١) Ostrogorsky. op cit. p. 360

(٢) Ostrogorsky. op. cit P. 360

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٧٧

أبو هامة : الروضتين ج ٢ ص ١٥٩

حين حلت به الهزيمة . ووافق على معاهدة لإدرة التي تقضى بالسباح
للإمبراطور الألماني بشراء المؤن من الأسواق والعبور إلى آسيا الصغرى
وأن يقدم من الرهائن ما يكفل السلوك الطيب من قبل البيزنطيين^(١)، ولقد
أرسل إسحاق رسالة لصالح الدين يستنجد به في محاولة أخيرة ١١٩٠ م
ويذكره باتفاقهم السابق ، وتنفيذه للاتفاق بآثاره المتاعب في وجه
فرديرك .^(٢)

وغادر فرديرك بربروسة أراضى بيزنطة واجتاز آسيا الصغرى حيث
حليفه قلعج أرسلان الثاني الذي أبدى استعدادا لمساعدة الإمبراطور وفق
تعهداتهم السابقة عن طريق مده بالادلاء وبالمؤن ، وحماية حملته أثناء
سيرها . ولكن لم يرضى التركان بهذا وحرصوا على مهاجمة الجيش المسيحي
فاصطدم الجيش مع فرع من التركان هم تركان أوج^(٣) . ثم مع جيش
قطب الدين وملكشاه أولاد قلعج أرسلان بالقرب من اسكى شهر وانضم
إليهم رستم بعساكره التركان . ولكن لحقت بهم الهزيمة ، وكان فرديرك
يريد الوصول إلى سوريا عبر قليقية وأمام هذا التهديد اضطر إلى أن يتجه
لقونية وأبدى قلعج أرسلان استعدادا للتفاوض^(٤) . ولكن أولاده رفضوا
التعاون مع الصليبيين فاشتبك معهم قطب الدين فحلت به الهزيمة هو والتركان
واضطر للتراجع واستولى فرديرك على المناطق المحيطة بقونية وعلى
أسواقها وخربها ، وأرسل قلعج أرسلان يعرض الصلح على الإمبراطور
بعد فتح أبواب المدينة ، فوافق^(٥) وعقد اتفاقية نصت على التعاون بين

(١) Pantleman op. cit, vol , 2 186

Ostrogorsky, op. cit, p. 361

(٢) أسد رستم الروم ص ١٧٢

(٣) Setton, op. cit, p. 114

(٤) أبو شامة الروضتين ج ٢ ص ١٥٤ ابن شداد التوادر السلطانية ص ١٩٢

(٥) القرينى : السلوك ج ١ قسم ١ ص ١٤

كلا الطرفين ضد الأيوبيين واقسام أملاكهم ، وأمنه فرديرك على أراضيـه وأوضح له أن هدفه هو بيت المقدس وصلاح الدين ، وأدمم قلج أرسلان في الفترة التي أقاموها بالمؤن والعتاد ، بل أرسل معهم عدد من الأمراء كرهائن ليرشدوهم إلى الحدود بينهم وبين أرمينية .

وفي نفس الوقت الذي أرسل إسحاق لصلاح الدين رسالة تحدث فيها عن جهوده تجاه الصليبيين استقبلها أخوه العادل ووفقا للقاضي الفاضل رفض صلاح الدين آخر الأمر كل طلبات البيزنطيين وفي مايو ١١٩٢ م أرسل إسحاق سفارة أخرى ردد فيها طلباته إلى جانب طلب إعادة قطعة من الصليب المقدس فرفض الطلبات وأرسل الصليب (١) وانتهت العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية وصلاح الدين عند هذا الحد ، وبذلك فشل تحالف البيزنطيين والمسلمين ضد اللاتين كما فشل تحالف السلاجقة مع الألمان . (٢) وقد ضمن إسحق رأيه في نتيجة هذا التحالف في رسالته لصلاح الدين ، أن النتيجة الوحيدة التي نجمت عن صداقتي لك ، إنما جرت على كراهية الفرنج وجميع أجناسهم (٣) . وكان للتحالف البيزنطي الإسلامي أثر كبير في مجرى الأحداث بالنسبة لبيزنطة فلم تغير المحالفة مع ما كان لها من أثر من وضع الامبراطورية المنهار . أما النتائج السيئة للتحالف مع المسلمين على سمعة بيزنطة فقد تعددت ، واستغلها اللاتين للتشهير ببيزنطة في سائر أنحاء أوروبا ، فقد بعث فرديرك ببروسة أثناء اجتيازه راقيا إلى ابنه هنري يطلب إليه أن يبحث البابا على أن يدعو لحرب صليبية ضد البيزنطيين ، وما حدث من حرص رتشارد قلب الأسد

Runicman : op. cit vol 3. p 29 (1)

Grousset : op. cit. vol. 3. p. 625 (2)

(٣) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ١٧٨

جوفيليب أغنسطس والحملات الصليبية المتأخرة على اتخاذ الطريق البحري^(١) كان شديد الارتباط بعلاقات إسحاق مع المسلمين ، ولا شك أن ذكرى هذه السياسة تأثر بها رجال الحملة الصليبية الرابعة التي هاجمت القسطنطينية .

ولقد ترتب على فشل التحالف مع صلاح الدين تغيير سياسة بيزنطة نهائياً واتخذت صورة التعاون مع الدول الصغيرة في الغرب كجنوة وبيزا^(٢) والنورمان في عنقلية عند أطماع الامبراطور هنرى السادس التي أخذت في الازدياد .

أما بالنسبة للتحالف السلجوقي الألماني فقد انتهى بمصرع فردريك بربروسه وكانت من نتائجه إضعاف الجانب السلجوقي وزيادة حدة الخلاف بين أفراد البيت السلجوقي^(٣) ، فهزيمة قطب الدين أضعفت قرائنه ، وبما أنه كان يسيطر على أبيه وعلى العاصمة قونية فقد دخل في منازعات مع أبيه وأخواته ، واستطاع والده الفرار من الاعتقال الذي فرضه عليه قطب الدين وطاف الرجل الشيخ بأولاده الواحد بعد الآخر يلتمس المأوى ، فأواه آخر الأمر ابنه غياث الدين كيخسرو الذي جعل له السلطنة من بعده ، ومات قلعج أرسلان في سنة ١١٩٢م وهو في السابعة والسبعين من عمره^(٤) .

(١) Runicman: (oP, cit. vol, 3, p 65)

(٢) Ostrogorsky, op. cit. P.388.

(٣) Camb. Hist. of Islam vol. 1p. 244

(٤) وفيها مات قلعج أرسلان بن مسعود بن قلعج أرسلان بن سليمان صاحب قونية ، وقد تغلب عليه ابنه قطب الدين صاحب سيواس وانفصرا وزاد في أن حجز عليه ، وكان موته في شعبان وتولى قونية بعده ابنه غياث الدين كيخسرو قلعج أرسلان :

المغربي : السلوك ج ١ قسم ١ ص ١١٣ . أبو الفدا . المختصر ج ٣ ص ٨٤

وفي البداية نشب صراع على العرش بين قطب الدين وغياث الدين كينخسرو وانتصر فيه كينخسرو، ولكن أخام الثالث استطاع طرد كينخسرو من قونية سنة ١١٩٦ م، ودفعه هذا إلى أن يلتمس الملاذ في الأراضي البيزنطية^(١)، وأعاد سليمان الثاني الوحدة إلى البلاد السلجوقية على حساب أخوته، ولقد استغل البيزنطيون فترة النزاع الداخلي في دولة السلاجقة لمهاجمة التجار الأتراك على البحر الأسود ولكن سليمان استطاع إلحاق الهزيمة بالقوات للبيزنطية وفرض الجزية على الكسيوس الثالث.

وفي سنة ١٢٠١ م قام ملك أرمينيا ليو الثاني باجتياح الحدود التركية فتصدى له السلطان الذي قام بدوره بغزو أراضي أرمينيا، واستولى على إمارة أرزروم التي كانت في حوزة أسرة Saltukids ومنها هدد المسيحيون في طرابزون وجورجيا فقد قام أهل جورجيا بتهديد الطرق إلى فارس وتقدموا إلى أرزروم وفي سنة ١٢٠١ م أعانه مجوشك والأراغقة، ولم يجد من الحكمة إضافة أرزروم مباشرة إلى أملاكه فجعل حكمها لأخيه مغيث الدين طغرل شاه في مقابل حصوله على إقطاع مغيث الدين وظلت أسرة متجوشك في أرزنجان، غير أنه تضائل شأنها منذئذ حتى أصبحت من توابع ركن الدين سليمان، ولقد اتجه السلطان بعد ذلك إلى جورجيا ولكنه فوجيء بجيوش القيقاق وأهل جورجيا قرب Surikamish وتراجع السلطان بعد أن حلت به الهزيمة وفقد عدد كبير من جنوده كآسرى وأعد حملة ثانية لمهاجمة جورجيا بعد استيلائه على أنقرة من مسعود ولكنه توفي سنة ٦٠٠ هـ - ١٢٠٤ م قبل إتمام مشروعه^(٢).

(١) Setton : op. cit. vol. 2. p. 114

(٢) Camb. Hist. of. Islam vol. I. p. 248

أبو الفدا المختصر - ٣ ص ٨٤

وتولى بعده أخوه كيخسرو الثاني ، وكان قد تولى عرش قونية فترة قبل سليمان ولكن استطاع سليمان عزله والاستيلاء على العرش فاجأ إلى بيزنطة ولما عاد من منفاه أصبح بفضل مساعدة قبيلة أوج التركمانية ومساعدة الدانشمند الوارث الوحيد لكل المملكة التي ظلت متماسكة في قبضة يده ويد ابنه من بعده ، ومع أن الصرا عرّيدل على ضعف نظام الملكية السلجوقية فإن توسع السلاجقة والتركمان لم يتوقف بل ازداد واستغل ضعف أحوال بيزنطة فيها بعد سنة ١٢٠٤ م للتوسع على حسابها في آسيا الصغرى ، ولقد خطط عملياته الحربية على أساس الاحتياجات الاقتصادية والتجارية ولقد استقرت الإدارة السلجوقية في عهده نتيجة لتوسع التركمان في المعامل اليونانية فأصبحت Sozonolis التي كانت إقطاعا لكيخسرو نواة لإقليم جرى تنظيمه (١) .

وفي تلك الأثناء وصل التركمان إلى الساحل الممتد شرقا من الشاطئ المواجه لجزيرة رودس ، حتى أطراف إيطاليا وحينما نشبت الاضطرابات في الدولة البيزنطية في عهد إسحق أنجيليوس أعلن أمراء الحدود Akritai التمرد ، بل إنهم انتقلوا إلى المعسكر المعادي فأعلنوا الولاء للترك كيحصلوا على إمدادات عسكرية ومادية ، وقد حصل كيخسرو على لازيقا بهذه الوسيلة (٢) . وقد حصل مكانها بلده Denazle أصبحت منطقة تهدد كل

= وذكر المقرئى أن ابن سليمان فُلج أرسلان حكم فترة بعد والده إلى أن عاد غياث الدين واستولى على العرش ، ومات ركن الدين سنة ثمانية وقام بعده في قونية فُلج أرسلان ابن ركن الدين ، وعند ذلك عاد كيخسرو إلى بلاده « المقرئى » السلوك ج١ ص ١٧٣

Camb. Hist. of, Islam vol. I, p. 248 (١)

Setton, op. cit. vol. 2, p. 147

(٢) المقرئى السلوك ج١ ص ١٨١

سار عز الدين إلى بلاد الأرمن وحاصر جان وهزم عندها جيوش الأرمن ، ورجع =

الماندير في الشمال وم تعد ضوريلوم يونانية ، ولم يعد البيزنطيون يسيطرون
سلطانهم إلا على ساحل البحر الأسود دون أن يسيطروا على شيء من الأراضي
الداخلية ، بل أن الترك استطاعوا في منتصف هذا الساحل أن يصلوا إلى
البحر ، والواضح أنهم احتلوا سمسون لفترة وجيزة وقطعوا طريق الاتصال
بين طرايزون والقسطنطينية .

العلاقات البيزنطية السلجوقية بعد سقوط القسطنطينية:

كان هذا الحدث الهام في تاريخ عالم العصور الوسطى له دوافعه ومبرراته
ولم يكن مفاجئة للعالم الغربي ، فقد ساءت علاقة بيزنطة بالغرب منذ الحملة
الصليبية الأولى وحكم الكيسوس كومنين وازدادت في عهد خلفائه وتحولت
إلى عدااء سافر في عهد أسرة انجليوس . إذ أضعف بيزنطة مانصب بداخلها
من حروب داخلية ثم حملاتها الفاشلة على البلقان^(١) ، وبازدياد تدهور
وضع الصليبيين في سوريا وفلسطين ، والفشل النسبي الذي حاق بالحملة
الصليبية الثالثة اشتد الاهتمام بالامبراطورية البيزنطية ، فما جرى من
مخاضات سياسية ، وما وقع من مناقشات تجارية ، وما حدث من الانشقاق
بين الكنيستين الشرقية والغربية^(٢) كل ذلك خلق وضعاً جعل اشترك الغرب
في القيام بهجوم على الامبراطورية البيزنطية أمراً وشيك الوقوع ، على أن ،

== إلى قيصرية قبل أن يستولى على قلعة جابان ، ثم طلب لأرمي الصلح وأجابه رسل عز الدين .
(١) لم تكن الحرب الصليبية الثالثة لغزيريك إلا ستاراً لأطماعه وخطب لانيهورقة
مملكة صقلية تمهيداً لاتحاد ألمانيا وصقلية تحت حكم أسرة واحدة . وأعد هنري السادس
ابن فردريك حملة صليبية جديدة لفتح القسطنطينية والاستيلاء على الامبراطورية البيزنطية
قبل انضى إلى سوريا وفلسطين ولم يسع الامراء اور البيزنطى الكيسوس الثالث
انجليوس ١١٩٥ - ١٢٠٣ إلا المبادرة بالتسليم بمطالب هنري واتمنى إليه ، ملكاً قبرص
وزمينية الصغرى .

القوات الصليبية لم يوجهها للاستفادة من متاعب بيزنطة سوى البندقية ويطامعها . فإكان من تمزق الإمبراطورية وضعفها هيا الفرصة لتفوق البندقية البحري في القرن الثالث عشر الميلادي ، فلم تكن الحملة الرابعة مفاجئة للدوائر الدبلوماسية في الغرب ، وكانت أحوال بيزنطة الداخلية شديدة الملامة لهذا الهجرم ، ففي عهد إسحاق أنجليوس اهارت الإدارة البيزنطية ، وفقدت القسطنطينية توازنها الاقتصادي ، ودب الفساد في جهازها العسكري . وشدت الثورة في بعض أراضى الإمبراطورية ولا سيما بلغاريا . واستغل الكسيوس أنجليوس شقيق الإمبراطور الفرصة فاستولى على العرش بعد أن عزل إسحق واعتقل ابنه الذي استطاع الفرار إلى زوج شقيقته فيليب في ألمانيا (١) .

أما الأسباب المباشرة للحملة الصليبية الرابعة فقد تعددت ولكنها ترجع أساسا إلى مطامع البندقية . وتغلب المصالح الاقتصادية على ما عداها من الدوافع الدينية فقد كانت الحملة موجهة إلى بيت المقدس ومصر حيث يحكم الأيوبيون وكانت للبندقية علاقات تجارية مع العادل الأيوبي من مصلحتها المحافظة عليها (٢) . فضلا عما تعرضت له مصالح البندقية التجارية في القسطنطينية من مناهضة ، أثار مخاوف البندقية ، وأدركت أنه لا سبيل للمحافظة على امتيازاتها إلا بالقضاء على حكومة القسطنطينية فحرصت على تحويل اتجاه الحملة عن مصر إلى بيزنطة (٣) .

وكانت البندقية قد تعدت بنقل الحملة ومدما بالموثون في مقابل ١٨٥ ألف

Villehardouin : La Conquête de Constantinople p 52 (١)

Runicman. op. cit. vol. 3. p 111

Setton op. cit. vol. 2. p. 158

Vasiliev. op. cit p. 463 (٢)

Grousset - op cit, vol. 3, p 171 (٣)

مارك ، ونصف مايجرى فتحه من البلاد ، ولكن عجز الصليبيون عن دفع القسط الأول فحولت البندقية الحملة إلى مدينة زارا البزنطية ، رغم إصدار البابا قرار حرمان على كل من يعتدى على أرض مسيحية ، واستدعى الكيسوس كومنين ابن إسحاق ليضفي على الهجوم صفة الشرعية واغتم رجال الحملة فرصة قلة الأقوات وحلبوا أن تكون وجهة الحملة القسطنطينية واتفق هذا الطلب استجابة من مونفرات قائد الحملة ، ولم تلبث أن سقطت القسطنطينية في أيديهم ، فلم يكن الجيش الامبراطورى قد استعاد قوته بعد هزيمة ميروكيفالون وكانت غاليته من المرتزقة ، وولى انكيسوس الرابع وأباه اسحق ، وما لبث أن قتل الكيسوس على يد اليرنان الذين اعتبروه خائناً^(١) ، وعاد الصليبيون محاصرة القسطنطينية ولقد استنجد البزنطيون بأعدائهم القدامى السلاجقة . ولكن السلاجقة لم يمدوا البزنطيين يد العون بل وجدوها فرصة سانحة لإزلالهم^(٢) . فإن تدمير بيزنطة يعنى ترك أيديهم مطلوقة في آسيا الصغرى بلا منافس بل قد يستطيعون استغلال هذا الوضع لمصالحهم بالتوسع في بقايا الممتلكات البزنطية .

ولا شك أن للحملة الصليبية الرابعة نتائج بالغة الأهمية سواء بالنسبة للعام الإسلامى أو بيزنطة . فالدولة البزنطية كانت تعتبر معقل الحضارة المسيحية في الشرق لبضع قرون ، ودل سقوطها في أيدي اللاتين على زوال الروح الصليبية وتغلب الصالح الاقتصادية والشخصية والسياسية عند الصليبيين^(٣) . فضلا عن حرمان الصليبيين بالشام من قوة كانت تساند

(١) Runciman : op. cit. vol. 3 p. 125

(٢) من الأثير . الكامل : ١٢٠ حوادث من ٨٠٠

(٣) Runciman, op. cit. vol. 3 p. 139-140

Grousset , op. cit. vol. 3 p. 175

على أن اللاتين في الشرق قد أبدوا سرورهم حينما أصبحت القسطنطينية بأيدي الغرب ، وبذا لا تخضع الحملات الصليبية لتحكم الأباطرة البيزنطيين^(٧) ، ولقد كانت هذه بداية النهاية بالنسبة لبيزنطة لم تعد الامبراطورية بعد بعثها إلى ما كانت عليه . فإحداث سنة ١٢٠٤ م من تفكك بيزنطة وانقسامها إلى إمارات عديدة ، كان في الواقع بداية لتدعيم وتدهورها ثم زوالها آخر الأمر على يد العثمانيين ، ولقد أدرك البيزنطيون بعد فوات الوقت أن ما تعرضوا له من الضرر من قبل اللاتين المسيحيين يفوق ما تعرضوا له على يد السلاجقة .

ولقد ترتب على سقوط القسطنطينية وقيام ملكة اللاتين ١٢٠٤ - ١٢٦١ م تقسيم الامبراطورية فلم تعد بيزنطة إمبراطورية بمعناها ، وحدودها السابقة . بل أصبحت مجموعة من الدويلات اتخذت أسماء مختلفة وتعددت وتضاربت القوى المسيطرة عليها بين لاتينية ويونانية .

فشملت إمبراطورية اللاتين بالقسطنطينية التي تولى حكمها بلدوين كونت فلاندرز الذي أصبح إمبراطوراً ، وإمارة أخيا في شبه جزيرة المورة ، ودوقية أثينا وطيبة في وسط بلاد اليونان .

وامتد سلطان البنادقة إلى الجزائر البيزنطية في بحر إيجه وأيونيان وجزيرة كريت وبعض المراضع الساحلية الداخلية ، إلى جانب ثلاثة أثمان القسطنطينية وسيطرت على الطرق التجارية ولا سيما تلك التي تربطها بمصر .

أما البقايا اليونانية البيزنطية فقد اتجهت إلى آسيا الصغرى فتولى نيودور لاسكارس في نيقية ، والكسيوس كومنينوس في طرابزون . وميخائيل

الأول أنجليوس دو كاس كومنينوس أبيروس وبذلك تجاوزت السلاجقة مع اليونان^(١)، إذ كانت نيقية هي العاصمة السلجوقية قبل الحملة الصليبية الأولى وأصبحت الآن نواة إحياء الامبراطورية البيزنطية وكان من الطبيعي أن تتداخل العلاقات بين هذه الدويلات في القرن الثالث عشر.

ولكن نلاحظ أمراً هاماً هو أن العلاقة في هذه الفترة كانت ذات طابع مميز فلم تعد بيزنطة دولة ذات سلطة إدارية موحدة بل دويلات مختلفة لكل منها حاكم مستقل فعلاقة السلاجقة بكل إمارة منها مختلفة عن الأخرى وتراوحت تلك العلاقات بين التحالف والعداء السافر طبقاً للظروف والاحتياجات.

ولا بد للتعرض لكل منها على حدة لتكمل الصورة.

السلاجقة وإمبراطورية نيقية:

مؤسس هذه الدولة هو ثيودور لاسكارس الذى يمت بصلة القرابة لملك من أنجليوس وكومنين ولقد رشح لتولى العرش البيزنطى بعد مصرع الكيسوس الثالث ولكنه رفض وهرب إلى آسيا الصغرى حيث لحق به عدد من نبله بيزنطة العسكريين والمدنيين، وبعض رجال الكنيسة وحكم ثيودور في ١٢٠٤ م - ١٢٢٢^(٢)، وإن كان وضع الدولة الجديدة بالغ الخطورة، فمن القرب تعرضت للضغط من قبل الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية التى حاول حكامها الهجوم على نيقية مرتين، وفي ١٢٠٧ م

(1) Setton : op cit . vol. 2. p. 161

Runicman : op. cit . vol . 3. p 123 - 125

Grousset : op cit . vol 3. 175

Setton op cit vol 2 p 205 (2)

اضطروا لعقد معاهدة لمدة عامين لانشغالهم بمشاكل البلقان^(١) ولكن اللاتين لم يكونوا الخطر الوحيد الذي يهدد ثيودور بل كان هناك خطراً أشد في الشرق وهم السلاجقة^(٢) وفي البداية تحالف غياث الدين كيخسرو مع ثيودور لاسكارس ضد كومنين في طرابزون فقد هددوا الطرق إلى البحر الأسود والمتوسط ، وأغلقتوا مخرج مينائي . سنوب وسمسون ، كما طهر الأتراك مخرج البحر الأسود عن طريق هزيمة دافيد كومنين سنة ١٢٠٦ م . ولكن وجود لاسكارس حال دون توسع الأتراك نحو بحر إيجه ، وعن طريق وساطة البندقية وقع السلطان غياث الدين كيخسرو الأول^(٣) معاهدة سرية مع إمبراطورية اللاتين سنة ١٢٠٩ ردأ على التحالف الذي عقده الامبراطور ثيودور لاسكارس مع ليو الثاني حاكم ارمينيا الصغرى الذي كان خطر للسلاجقة يهدده هو الآخر . ولقد وجد السلاجقة دافعا أساسيا للصراع مع إمبراطورية الناشئة . حين لجأ إلى قونية الكيسوس الخامس^(٤) امبراطور بيزنطة السابق بعد مكوثه فترة طويلة في أوروبا ، فطلب غياث الدين ثيودور بانتنازل عن العرش لالكيسوس بصفته الوارث الشرعى ،^(٥) وكان من الطبيعى أن يرفض ثيودور ، ودارت معركة عنيفة حول إنطاكية على نهر الميثار ، وكانت قوة الامبراطور البيزنطى متواضعة ومكونة من ثمانمائة من الفرنجية المأجورة ، ولكن استطاعت تلك القوات إلحاق الهزيمة بالسلاجقة

(1) Ostrogorsky : op. cit. p 311

(2) The hist. of Islam. vol. 1 . p. 245

(3) Ostrogorsky. op. cit. p. 380

Vasiliev : op. cit. vol. 2p. 507

(4) كان الكيسوس أنجليوس قد مات وتولى خلفاه الكيسوس الخامس أبناء اخيه سيبية ١٢٠٤ . ولم يكن عزله اللاتين .

(5) Setton : op. cit vol 2 p. 208

Vasiliev : op. cit vol 2 p 507

سنة ١٢١١ م وسقط السلطان قتيلًا (١) وقبض على الامبراطور الكيسوس الذى قضى بقية حياته فى دير فى نيقية ، ومع أن المعركة لم يترتب عليها تغيرات إقليمية هامة فى جانب ثيودور لاسكارس فإنها أحييت الأمل فى نفوس اليونان فى آسيا وأوربا واعتبرا نيقية نواة وحدتهم المقبلة لاستعادة القسطنطينية وهذا النصر أثار مخاوف هنرى فعاد إلى مهاجمة الامبراطورية من جديد فى آسيا الصغرى واستطاع الانتصار فى معركة فى نهر Rbado:us سنة ١٢١١ ، ولكن كلا الطرفين كان منهما فقدا معاهدة ١٢١٤ م فى نيفيم ، وضمت خريطة حدود بينهما فأخذ اللاتين الشمال الغربى من آسيا الصغرى إلى أدومانيوم فى الجنوب . أما المنطقة الباقية وتمتد إلى حدود السلاجقة تركت لامبراطورية نيقية التى دعمت نفسها ، فى حين أن الامبراطورية اللاتينية منذ ١٢١٦ م قد سارت إلى الضعف (٢).

أما بالنسبة للسلاجقة فإن الهزيمة دفعتهم إلى توطيد سلطانهم على السواحل فى الشمال والجنوب وتحديد سياسة الفتح والتوسع على حساب البلاد الإسلامية الواقعة إلى الجنوب الشرقى .

فقد أضاف ابن كيخسرو عز الدين كيكائوس الأول (١٢٦١ - ١١٢٢) الذى سار على سياسة أبيه التوسعية سينوت على البحر الأسود وهى معقل يصلح أن يرتكن إليه السلاجقة حربيًا وتجاريًا . ولقد دعى التجار الأتراك إلى الإقامة فى المنطقة والنهوض بتجارهم وضرد من إيطاليا

(١) يذكر غفرى أن تلك المعركة مع الأرمن خلفاء برهنة عند بلدة خونا ونها قتل غياث الدين كيخسرو بن قلع أرسلان سنغوق صاحب قونية ، وقد حدث ذلك فى أوائل السنة ودر بواقع الأرمن خلفاء الروم عند بلدة خونا من أعمال أفريجيان : المهرزى السونج ١ ص ١٧٣ .

حاكم قبرص الذي اهتم بفرصة حلافه مع اخيه كيقباز على العرش واقتحم المدينة (١).

أما أخوه علاء الدين كيقباز الأول (١٢٢٠ - ١٢٣٧ م) الذي كان عصره أزهى عصور أسرته فقد مد ممتلكاته على الشاطئ الجنوبي للأناضول حتى الساحل المواجه لجزيرة قبرص إلى دروب قتيقية وأقام مقره الرئيسي في موضع أسماء العلایا (الغلانية). واستولى على مدن ساحل شبه جزيرة القرم التي انحازت إلى طرابزون بعد سقوط القسطنطينية في أيدي اللاتين سنة ١٢٠٤ (٢). ولقد اهتم علاء الدين بأمر البحرية، وأعد أسطولاً قوياً هاجم كريشيا في ٦٢٢ هـ - ١٢٢٥ م في نفس الوقت الذي أرسل فيه جيشاً لأرمينيا في الشرق وشمال إيطاليا وإلى هيثوم التابعة للسلاجقة. والتركان الذين احتلوا أخيل أوجدوا أساس إمارة كرمان التي عرفت فيما بعد.

ولقد كانت سياسة السلاجقة تقوم على التحالف مع العناصر المختلفة في آسيا الصغرى ثم ضربها بعضها ببعض ليحوز السلاجقة في النهاية الكسب على حساب جميع القوى الموجودة. فانصرف كيخسرو الأول وكيكاوس الأول وكيقباذ الأول إلى تأمين حدودهم، فأنحازوا إلى الفرنج بأنطاكية لمناوأة قتيقية وإلى اللاتين والبنادقة بالقسطنطينية لمناهضة اليونان في نيقية وتراسلوا مع البابوية، ورجعوا بالبعثات التبشيرية اللاتينية، وذلك لمحاولة

Camb Hist. of Islam P. 247 (١)

Ostrogorsky : op. cit. p. 378

(٢) ذكر كل من المقرئزي الملوک ج ١ ص ١٣٩ وأبو الفدا المختصر ج ٣ ص ٨٤ أن هن الدين كيكاوس « ظفر السلطان عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن أرسلان صاحب بلاد الروم بالاشكري ملك الروم ولكن الذي سقط ليس تيودور إنما هو دافيد كومنين حاكم طرابزون ».

انتزاع رعاياهم اليونان بكل ما يربطهم ببيزنطة من صلات .

إمارة طرابزون :

لم تنشأ تلك الإمارة نتيجة لسقوط القسطنطينية فقد قامت في إبريل سنة ١٢٠٤ على الشاطئ. الجزير البحر الأسود والفضل في إثنائها يعود لالكسيوس ودافيد كومنين أحفاد أندرونيكوس^(١) . فبعد عزل أندرونيكوس الأول أرسل الكسيوس ودافيد وم أطفال صغار إلى بلاد جورجيا حيث تولت رعايتهم الإمبراطورة تامارا Tamara سنة ١١٨٤ - ١٢١٢ م وساعدتهم على الاستيلاء على صرابزون في إبريل ١٢٠٤ م ومن هناك استطاع دافيد الأخ الأصغر المغامر التقدم في اتجاه الغرب على ضول الشاطئ. واحتلوا سنوب واستطاع أن يضم بافلجونيا وبانونيا وهرقليا ، ولكن اصطدم مع مملكة نيقية ومع ثيودور لاسكارس في آسيا الصغرى وخاصة أن دافيد بعد سقوط القسطنطينية اعترف بتبعيته لحاكم القسطنطينية اللاتيني فاشتبك مع ثيودور بدعم من حلفائه اللاتين ولكن لما ترك لمصادره الخاصة لم يستطع المضي طويلا في الصراع^(٢) .

في نفس الوقت اشتبك دافيد مع السلطان غياث الدين كيخسرو في سنة ١٢٠٦ م نتيجة لتوسعه في البحر الأسود وإغلاق مداخله ، ولقد تحالف السلطان مع ثيودور لاسكارس وانتهى الأمر بهزيمة دافيد واستيلائهم على سنوب ، وسقط دافيد أسيرا في يد عز الدين كيكاوس

(1) Ostrogorsky : op' cit. p. 371

Miliet ; Trebizond p. 28.

Vasiliev, The Foundation of the Empire of

Trebizond, p. 28, *aspeclum* 1933»

(2) Ostrogorsky ; op' cit, p. 263

ابن غياث الدين الذي قتله وقبض على الكسيوس كومتين^(١) وثبته على العرش كتابع لسلطنة السلاجقة ، وتعهد بدفع الجزية ، ولقد ترتب على استيلاء السلاجقة على سنوب نتائج بعيدة المدى فقد تضاءلت المملكة إلى شريط ضيق من الأرض واقطعت من آسيا الصغرى ، وقد أدى هذا لمنع اتصالها المباشر بالإمبراطورية نيقية ، ورغم أن هذه الإمارة لها أهمية تجارية كبيرة فإنها لم يكن لها تأثير كبير على تطور الأحداث في مستقبل بينظنة ولم تشارك تلك مشاركة فعلية في أحياء الإمبراطورية وعلى كل فقد تجدد التحالف بين طرايزون والسلاجقة في عهد ثاني أباطرتها وهو أندرونيكوس الأول ، ولكن ما لبث أن نشب خلاف بينهما نتيجة للجوء إلى إحدى سفن طرايزون المحملة بالجزية من إحدى الولايات وهي ولاية كرميان ، وعلى ظهرها أحد الأرخونات وعدد من النبلاء ، وتعرض لعاصفة شديدة ألجأتها إلى ميناء سينوب ووفقا للمعاهدة التي عقدها أندرونيكوس مع علاء الدين كيقياذ ، قام هيثوم حاكمها الذي يدين بالتبعية للسلاجقة بالاستيلاء على السفينة وشحنها وبجارتها ، كما أرسل السفن لنهب خيرسون وكريميا ، وحين وصلت الأنباء طرايزون ، حشد أندرونيكوس أسطولا وجهه إلى سينوب حيث استولى على جميع السفن الراسية في الميناء .

وكان من الطبيعي الا يتقبل علاء الدين^(٢) هذا الوضع فأعد أسطوله واتجه إلى طرايزون وسارع أندرونيكوس بتحصين المدينة والطرق

(1) Miller; The Trebizond p'19 - 20
Vasilev. The Foundation p. 29 .

المريزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ١٧٩ - أبو الفدا - المختصر ج ٣ ص ٨٤

(٢) علاء الدين كيقياذ بن غياث الدين كيخسرو كيقياذ

زايابور : معجم الأنساب والأسماء الحاكمة في التاريخ الإسلامي ترجمة د . زكي عبد حب
حسن أحمد محمد ج ٢ ص ١٦٣

المؤدية لها . وحاصر غياث المدينة من جهة البحر وحاول الإمبراطور أندرونيكوس التفاوض وعقد معاهدة سلام^(١)

ودعى ، فد سلجوقي لرؤية المدينة وتحصينها ، ولكن هبت عواصف دمرت معسكر السلاجقة ووقع السلطان في الأسر ، فاستقبله أندرونيكوس بمفاوة بالغة وأجلسه بجانبه ، وبعد أن استشار أندرونيكوس مجلسه ، تقرر إرسال السلطان إلى بلاده ، وتجدد الاتفاق السابق بين طرايزون وقونية مع رفع الشروط الخاصة بالتبعية والجزية والخدمات الحربية ، ولكن فترة الاستقلال هذه كانت قصيرة المدى فقد تنازع جلال الدين خوارزم شاه السيطرة مع السلطان السلجوقي على غرب آسيا وعقد اندرونيكوس اتفاقا مع جلال الدين الذي أصبح جاراً لطرايزون ولكن عند هزيمته في خلاط سنة ١١٢٣ م كلفت هذه الغلطة أندرونيكوس جميع الامتيازات التي حصل عليها في اتفاقه مع علاء الدين ، وعادت طرايزون تابعة لسلطان قونية في سنة ١٢٤٠ م^(٢) .

أما الدولة البيزنطية الثالثة في آسيا الصغرى فكانت أيروس التي أنشأها ميخائيل أنجليوس . وفي البداية اعترفت بالتبعية لنيقية وتحالفوا ضد اللاتين واستطاعت صد قوات سالونيك . وامتد نفوذ حاكمها من الأديرييك إلى البحر الأيوني واتخذ لقب باسليكوس ولم تكن لتلك الدولة علاقات مباشرة بالسلاجقة . وبذلك قامت على أنقاض القسطنطينية ثلاث

(1) Miller ; Trebizond. 19,

Vasiliev; The Foundation* p 26

Camb. Med. Hist. Vol 4, p. 514

(2) Miller op. cit* p. 20 - 25

Camb. Hist. of Islam vol . 1 , p. 247

نذكر أن الحرب في عام ١٢٢٨ كانت نتيجة لتعاضد أندرونيكوس مع جلال الدين خوارزم شاه .

لإمبراطورين اثنتان أغريقيان وواحدة لاتينية مستضعفة واقعة في وسط يوناني يكن لها السكراهية تحيط بها المتاعب الاقتصادية والدينية والسياسية تقلص حجمها فلم يتعد العاصمة وما يحيط بها من أراضٍ ، في حين نولى نيقية قائد ماهر هو حنا الثالث Vatatzes ١٢٢٢ - ١٢٥٤ م الذي نهض بها من ولاية صغيرة إلى دولة قوية واستغل ضعف اللاتين وأخطأ أعوانه من البلغار واليونان وقام خليفته ميخائيل بالنيولوجس بإحياء الإمبراطورية البيزنطية والقضاء على ملكة اللاتين (١) .

ولقد استغل السلاجقة الصراع الدائر بين العناصر اليونانية واللاتينية وفترة السلام التي نعموا بها بعد سقوط القسطنطينية وتفككها لتوجيه قواتهم إلى جيرانهم المسلمين .

السلاجقة والقوى الإسلامية :

كانت سيادة السلاجقة بصفة عامة في الفترة من سقوط القسطنطينية إلى ظهور المغول في آسيا قائمة على أساس علاقة ودية مع الفرنج وحياد مع اليونان وعداوة لإخوانهم المسلمين ، واتجهوا في هذه الفترة للتوسع صوب الجنوب الشرقي ، وهذه السياسة سبق أن طبقوها في بداية القرن الثاني عشر ، وتغلوا عنها أثناء الخصومات الأسرية التي نشبت ، وبدلاً من أن يستغلوا الصراع بين القوى البيزنطية القائمة في آسيا الصغرى لصالحهم إذ بهم يتجهون إلى الشام والجزيرة حيث ساد الصراع بين أمراءها والاضطراب والخلاف فاشتركوا فيه وعملوا على زيادة حدته ، فاستغلوا الخلافات في الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين لصالحهم وضد أعدائهم من المسلمين في آسيا الصغرى والشام ، واتخذ كل من كيخسرو وكيكاوس سياسة التحالف مع الظاهر غازي صاحب حلب ضد ليون الثاني ملك أرمينيا الصغرى ،

(١) Ostrogorsky : op. cit, 305,

Seiton: op. cit vol. 2 p. 214.

وكان غازي الأيوبي يأمل من وراء هذا التحالف أن يجد فيه الحماية من
 عمه العادل الأول ، وعند وفاة الظاهر سنة ١٢٢٦ م ^(١) أراد كيكاوس
 أن يساند ابنه آخر لصالح الدين وهو الأفضل الذي كان يتولى سميساط
 منذ سنة ٦٢٧ هـ - ١٢٣٠ م إقطاعاً من السلاجقة ^(٢) ، وكان يرشحه
 لأن يتولى حكومة حلب ، غير أنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً ^(٣) ، بسبب
 ظهور الأشرف بن العادل ^(٤) ، واستطاع بفضل التحالف مع الأشرف
 أن ينتزع من مودود الأتقي صاحب آمد وحصن كيفا كل ما يملك
 من حصون واقعة وراء الفرات وتمتد إلى جنوب أذربيجان فأضاف إلى
 أملاكه أذربيجان سنة ١٢٢٨ م وبعد ثلاث سنوات من وفاة أميرها
 بهرام شاه وفي غمرة هذه الأحداث ظهر عامل جديد في سياسة غرب آسيا
 هو الخوارزمين بقيادة جلال الدين خوارزمشاه ، وفي البداية لم يظهر
 السلطان السلجوقي العداء لجلال الدين خوارزمشاه الذي لم يهدد سوى
 أرزروم التي يعادى صاحبها كيقباز ^(٥) ، وسوى أملاك الأشرف الشمالية
 الشرقية ، مثل خلاط على بحيرة أن غير أن الأمور لم تلبث أن تغيرت حينما
 ظهر أن جلال الدين يستعد لغزو الأناضول بعد أن دانت له أخلاط ،
 ولقي التأييد من جهان شاه صاحب أرزروم الذي صار من أتباعه .

واستطاع كيقباز أن يجرى الأشرف الذي قام بنفسه بقيادة الجيش

(١) ابن واصل : مفرج الكرب ج ٢ ص ١٨١

(٢) أبو الفدا : المختصر ج ٣ - ١٢٤

(٣) انقريعي : السلوك ج ١ - ٢٣٨

(٤) حمد خلاط بن الأنصاري وكيكاوس لاستيلاء كيكاوس على تل دياشر ورفعه

استيلائها ، وفقاً لاتفاقهم

(٥) أبو الفدا : المختصر ج ٣ - ١٢٤

انقريعي : السلوك ج ١ رقم ٢٣٨

وانضم إليه في حلب فضلا عن السلطان الأيوبي الكامل^(١) ، وقرر أن يرسلوا إمداداً .

واجتمعت القوات في سيواس ونجحت القوات المتحالفة في إززال الهزيمة بالخوارزمية في سنة ١٢٣٠ م في غرب أذربيجان^(٢) .

وفر جلال الدين بعد أن قتل رجاله وإذ تورط بهرام شاه في تحالفه مع الخوارزمية ، وحل به ماحل بهم من الهزيمة ففقد أرزروم التي أضافها كيقباز إلى بلاده فأصبحت أملاك كيقباز تتأخم أطراف أذربيجان^(٣) ، وأضاف أيضا أملاك منجوشك^(٤) .

وإذا كانت بلاد الكرج وجورجيا ، ساندت الخوارزمية ، فإن ما حدث من تهديد السلاجقة لهم أرغمهم وحلفائهم حكام طرايزون اليونان على أن يتخذوا سياسة المسالمة نحو كيقباز .

ولما لم يكن هناك دافع حقيقي للتعاون بين الأيوبيين والسلاجقة فقد تصادمت أطماعهم على ملكية خلاط والرها وحران التي سعى سلطان السلاجقة لضغطها^(٥) ، إلى جانب أن بعض الأمراء السوريين أنبأوا الكامل في سنة ١٢٣١ م أن السلاجقة في آسيا الصغرى يمرون بفترة ضعف ، وأن البلاد ليس بها من يدافع عنها ، فاتجه الكامل إلى الأناضول وبعد أن اجتاز الجبال الواقعة في شمال الشام توجه صوب الشمال الشرقي حيث دعاه صاحب

(١) أبو الهيثم : التجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٧٣

(٢) فيها قدم رسول السلطان علاء الدين كيقباز الساجوق صاحب الروم على الملك الكامل ، وأخبره بأنه جهز خمسة وعشرين ألفا إلى أذربيجان ، وعشرة آلاف إلى طرابيزة القرينى : السلوك ج ١ قسم ٩ ص ٢٢٨

(٣) القرينى : السلوك ج ١ قسم ١ ص ٢٤٧

(٤) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٥٤ ، أبو الهيثم التجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٧٣

(٥) القرينى : السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٢٤٨

خربت ، غير أن الحليفين الظاهر والكامل تعرضا لهزيمة ، وذلك أن القوى الأيوبية في شمال الشام خشيت من ازدياد نفوذ السلطان الكامل لو استطاع القضاء على سلاجقة الروم وضم الأناضول . فقد بلغهم أن السلطان قال لبعض خداه : أن صار لنا ملك الروم فإننا نعوض ملوك الشام والشرق بملك الروم بدل ما بأيديهم ، ونجعل الشام والشرق مضافا إلى ملك مصر ^(١) فانفقوا على الملك الكامل ، وكتبوا إلى علاء الدين كيقياد سلطان السلاجقة ووعدوا بالانضمام إليه وخذلان الكامل وسيروا الكتب ولكن تلك المراسلات وقعت في يد الكامل ، فاضطر للتراجع ^(٢) ، وأخذ علاء الدين قلعة خربت ، وست قلاع أخرى كانت مع الملوك الارتقية وضم إليه حران ، والرها سنة ٦٣٢ هـ ١٢٣٥ م وبذلك امتدت أملاكه إلى ما وراء نهر الفرات . ولكن لم يلبث أن استردها الكامل دون تعب ثم حاصر أمد .

ولما مات علاء الدين كيقياد الأول سنة ٦٣٤ هـ - ١٢٣٧ م خلفه ابنه غياث الدين كيخسرو وبعث ملوك الشام رسلهم إلى السلطان الجديد بعزونه في أبيه ، ويخفونه على ما اتفقوا من مخالفة الكامل ^(٣) . ولكن شغل غياث الدين بالخلاف الذي نشب بينه وبين الخوارزمية الذين فروا إلى الجزيرة . غير أن ما حدث من وفاة الأشرف ثم الكامل هيا له أن يشترك في التحالف مع أمراء الشام والجزيرة ضد الصالح أيوب بن الكامل والخوارزمية ^(٤) فدخل أمد التي تعتبر أمنع المعاقل في ديار بكر وحاصر ميفارقين الواقعة وراء دجلة فامتدت حدود السلاجقة إلى نفس الحدود التي كانت للدولة البيزنطية من قبل ، بل أنها في اتجاهها نحو الجزيرة قد

(١) المقرري : السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٢٤٨

(٢) المقرري : السلوك ١٠ قسم ٢ ص ٢٤٩

(٣) المقرري : السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٢٥٤

(٤) أوشامة : الدبل على الموشن ص ١٨

تجاوزت حدود بزنطة السابقة وهي تطابق منازل أتركان، ولقد خطب باسمه في سنة ٦٣٨ هـ على منبر دمشق (١).

ولقد بلغت دولة سلاجقة الروم في زمن كيقباز الأول أقصى اتساع. ورغم تزايد الخطر المغولي في مستهل حكم كيخسرو الأول فقد بلغت المملكة النخوة في القوة العسكرية، وفي التوسع الإقليمي يحيط بها أتباع أو حلفاء من كل جانب: المسلمون في حلب والجزيرة، المسيحيون في طرابزون وقبرص الذين اعتادوا أن يرسلوا إليها امدادا كلما طاب إليهم ذلك. وكانت هذه أيضا هي الفترة التي اكتملت فيها نظم الدولة ونضجت الحياة الاقتصادية والحضارية وشاهدت البلاد حركة إنشائية ضخمة وإقامة العديد من المدن والمساجد والمدارس ولقد عرف كيقباز في التاريخ السلجوقي باسم كيقباز العظيم.

ولكن الحقيقة أن دولة سلاجقة الروم كانت تخفي وراء واجهتها القوية ما كان ينخر في داخلها من عوامل الضعف. على حين أن الخطر المغولي بدأ يلوح في الشرق إذ أن المغول قد بدؤوا في ارتياد أملاك السلاجقة في أواخر أيام كيقباز الأول، ولكن ما حدث من مشاكل داخلية في الدولة المغولية هيا لكيخسرو فترة من الراحة لم تستمر طويلا.

(١) التبريزي: السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٠٨

الفصل السادس

انهيار دولة سلاجقة الروم

الغزو المغولي :

المغول وآسيا الصغرى :

اجتاح المغول كل شرق أوروبا والشرق الأدنى^(١) فغضت روسيا للغزاة لمدة قرنين من الزمان ، واستولوا على ' Silicia ' بوهيميا ، مورافيا ، المجر وحوض الدنوب ووصلوا إلى شاطئ الأدرياتيك ثم اخضعوا شبه جزيرة البلقان وأراضى السلاف في الجنوب وأجبروا بلغاريا على دفع الجزية ، في نفس الوقت الذي غزت فيه جيوشهم الشرق الأدنى ، وشعر سلاجقة الروم وامبراطورية نيقية ، وطرابزون أن هناك خطرا يهدد وجودهم فسعوا للتحالف ضد الخطر المشترك سنة ١٢٤٣ م ، وإن لم تستطع آسيا الصغرى التي قاست من الحروب والصراعات داخلها أن تقاوم عدواً امتد نفوذه من الباسفيك إلى قلب أوروبا .

(١) المغول : ليس هناك معلومات واضحة عن المغول في الفترة السابقة جنسكيزخان وأمكن ما عرفت هو أنهم كانوا يقطنون المنطقة المنعثة من سد الصين جنوباً إلى بحيرة يقال شمالاً وكان مستواهم الحضارى على درجات مختلفة وقد ذكر الصينيون ثلاث أنواع من التتار : التتار الأبيض ، التتار السود ، والتتار المتوحشون بارتولد ص ١٠٢ .

ذكر أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٤١ فقرة عن أسل المغول وظهور جنسكيزخان

ولكن منذ القرن الثاني عشر ظهر المغول كقوة حربية هائلة حين استطاع زعيمهم جنكيز خان أن يجعل نفسه سيدا مطلقا على جميع قبائل المغول في آسيا ، فضلا عن قبائل الأتراك في مناطق السهوب الآسيوية ، ذلك أن جنكيز خان استولى على الصين فيما بين سنتي ١٢١٠ - ١٢١٦ ثم اتجه بعد ذلك غربا فاختضع تركستان الشرقية ثم أترك خوارزم سنة ١٢٢٠ م ولم ينتصف القرن الثالث عشر حتى كانت جيوش المغول مستولية على فارس ومعظم جنوب روسيا وأطراف أوروبا الشرقية .

ولقد بدأ ارتياد التتار للأراضي الإسلامية منذ أوائل القرن السابع الهجري فيذكر المقرئ في عام ٦١٦ هـ - ١٢٠٠ م « كان ابتداء خروج التتار من بلادهم الجوارية إلى بلاد العجم ^(١) » ، لقد استطاع التتار خلال سنوات قليلة الاستيلاء على العديد من المدن الحصينة والتوغل في قلب العالم الإسلامي دون أن تستطيع أن تتصدى لهم أى قوة فملكوا سمرقند ، همدان ، قروين ، فرغانة ، الترمذ ، خوارزم ، مرو ، نيسابور ، طوس ، هراة غزته ، وفي ٦٢١ م ضموا قم وشاشان في العراق العجمي . وفي ٦٢٨ م هزموا جلال الدين خوارزم في ميافارقين ووصلوا لأربل ^(٢) ودخلوا أراضي آسيا الصغرى ٦٢٩ م واستولوا على أرمينيا وخلطوا واستنجد الخليفة المستنصر العباسي بالقوى الإسلامية في مصر والشام « سير عدة رسل يستنجد بالأشرف في مصر ويستنجد العربان وأخرج الأموال فوقع الاستخدام في جميع البلاد لحركة التتار » ^(٣) .

لقد رأى السلطان كيقباز أنه لا أمل له في صد المغول فسعى لمهادتهم

(١) المقرئ : السلوك ج ١ قسم ١ ص ٢٢٨

(٢) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٤١

(٣) المقرئ : السلوك ج ١ قسم ١ ص ٢٤٢

ليضمن سلامة أراضيه ، فعقد مع الخان الأعظم أوغدى Ogedei معاهدة سلام ، وفي عهد ابنه غياث الدين كيخسرو الذى خلفه سنة ١٢٣٤ هـ - ١٢٣٦ م بدأ الزور الفعلى لدولة السلاجقة ولقد ساعدت الأحوال الداخلية وحالة الضعف التى كانت تعانيها الملكية السلجوقية فى عهد كيخسرو على سهولة فتح البلاد فعده يعتبر بداية النهاية لسلاجقة الروم .

فلقد ترك السلطان تدير أمور الدولة لرجل يدعى سعيد الدين كويك كان قد عاونته فى تولي العرش ، ثم أحكم السيطرة عليه واستغل نفوذه فى التخلص من أعدائه ، مما أوجد حالة من عدم الاستقرار إلى جانب قيام الفتن والاضطرابات ، كانت أخطرها فتنة بابا الرسول (١) .

فنتيجة لافتح المغولى (٢) هاجرت أعداد كبيرة من التركمان إلى الأناضول كما حدث فى الهجرة السلجوقية الأولى . وظهر بينهم رجل يدعى النبوة يسمى بابا إسحاق يدعو إلى الزهد والتقشف ، ويقترح فى السلطان غياث الدين كيخسرو وحاشيته لانغماسه فى الترف ، ولقد بشر التركمان ببداية عهد جديد ورجل أتباعه على أن يقولوا « لا إله إلا الله ، البابا رسول الله (٣) » وانتشرت الفكرة فى مرعش ، خلط ، أبلاستين ، سلطية ، ثم وصلت إلى سيمواس وأباسيا ، واستطاعت جيوش السلطان عزيمته وقتله ، وأسكن التركمان الذين استقبروا فيه تبعدوا الجيش السلطاني ، واضطر السلطان إلى الهروب من قونية ولكن جيش أرزروم استطاع هزيمتهم قرب klisb hir سنة ١٢٤٠ م فى الوقت الذى بدأت فيه جيوش المغول تتوغل فى آسيا الصغرى .

وفى سنة ٦٣٥ هـ - ١١٤٢ م بدأ الفتوح المغولى لدولة سلاجقة

الروم باستيلائهم على أذربيوم وفي العام التالي سنة ١١٤٣ م - دشت الغزو الكبرى وكان كيخسرو الثاني مشغولا في حروبه في ديار بكر فسارع بالعودة وحشد كل ما استطاع جمعه من قوات بلغت ثمانين ألفاً ، وكانت القوات تتألف من عناصر مختلفة بل كانت تضم فرنجا من الذين انضموا إليها أثناء صراعها مع نيقية (١) . أما الجيش المغولي فكان يقوده بيجونين وكان تعدادة ثلاثين ألفاً مقاتل والتقى المغول في Kosodaght بالقرب من سيواس في محرم سنة ٤٦١ هـ - يونيو ١٢٤٣ م ؛ ورغم أن السلاجقة قالوا قتالا مستميتا إلا أن الهزيمة حانت بهم وتقدم المغول من سيواس إلى قيصرية التي خربوها. واضطر السلطان للفرار وتخلي عن معسكره بكل ما يحويه من كنوز وتحف وهرب إلى أنطاليا ومنها فر والتجأ إلى سرديس ثم القسطنطينية ، أما وزيره مهذب الدين فقد كان أشد مراسا منه ، إذ توجه إلى القائد المغولي بانجو ثم سارا معاً إلى الأمير المغولي باطوخان (٢) ، وحصل من الأمير المغولي على معاهدة صلح تقضى باستمرار بقاء دولة السلاجقة مقابل أن تؤدي الجزية وترسل الامداد كلها إليها ذلك ، وقدم التتر بلاد الروم ، وأوقفوا بالسلطان غياث الدين كيخسرو ابن كيخباد بن كيخسرو بن فلج أرسلان ، وعزموه وملكوا بلاد الروم وخلاط وآبد ، فدخل غياث الدين في طاعتهم . على مال يحمله إليهم ، وملكوا أيضا سيواس وقيساريه بالسيف وقرروا على صاحبها في كل سنة أربع مائة دينار . ففر غياث الدين منهم إلى القسطنطينية (٣) .

عاد كيخسرو إلى قونية وحرص على الانتقام من الأرمن الذين سلموا أمه للغزاة ، بعد أن لجأت إليهم أثناء البرو المغولي . وهزيمة سنة ١٢٤٣ م

(١) - ريد الدين الغمضاني جامع الروايع ج ١ ص ٢٣٨

(2) Howarth : Hist of The Mongols vol. 3. p. 1

(٣) انقريزى السوك ج ٢ ص ٢١٢

بدو كمركة خسرهما ، ولكنها من الناحية الواقعية كانت إبدانا بنهاية دولتهم . فلهذه البقية من ملكة السلاجقة التي أراد لها المغول البقاء تحت سيطرتهم كانت بالغة الضعف من الداخل تمزقت تحت ضغط الخلافات الداخلية والصراعات الأسرية والغزو الخارجي الذي لم يستطع السلاجقة تحمله (١) ، وكانت المعركة بداية لعملية طويلة الأمد من أجل سيطرة المغول في آسيا الصغرى (٢) .

الوحيد في منطقة آسيا الصغرى الذي لم يتأثر بالغزو المغولي بل استفاد من ضعف جيرانه كان يوحنا قيتاتريس حاكم نيقية (١٢٢٢-١٢٥٤م) الذي أفاد استراتيجيا واقتصاديا . فإن السلاجقة نتيجة لحاجتهم للسلع التجارية لجأوا إلى حنا لشراؤها بأثمان مرتفعة من الذهب .

أما من الناحية الاستراتيجية فقد أفاد حنا من الاخطار التي أحاطت بأعدائه من اللاتين والأغريق و"بلغار والسلاجقة لصالحه ، فقد مكنته ضعف السلاجقة من ترك آسيا الصغرى والاتجاه إلى البلقان ، فحارب البلغار وانتصر عليهم واستعاد الأراضي التي سبق لحاكمها أن أخذها من الأغريق ، وكذلك انتصر على امبراطورية الأغريق الغربية سنة ١٢٤٦م ومد أراضيه إلى تراقيا ووصل مرسيا ومقدونيا واستولى على سالونيك سنة ١٢٤٦م وولى على الجزء الأوربي أندرونيكوس Palaeologus وحكم ابنه ميخائيل الامبراطور المقبل من سيراس وملنيك ابيروس تابعا له ، وحاول الاتحاد مع الامبراطورية الألمانية والباوية (٣) .

وعند نهاية حكم قيتاتريس تضاعفت أراضى نيقية وأصبحت آمنة سواء

Vasiliev: op. cit p. 530

(١)

Ostrogorsky: op. cit. p. 393

Setton op. cit Vol. 2, p. 225

(٢)

Ostrogorsky, op. cit. 393

Vasiliev, op. cit. Vol. 2 p. 476

في آسيا الصغرى أو البلقان فأعادوها السابقون بعضهم اختفى من الوجود كما ملك اللاتين في القرب أولم يعد يمثل خطراً كبيراً على مملكة ابيروس أو بلغاريا ، أما مملكة اللاتين في القسطنطينية فقد تقلصت ممتلكاتها إلى الأراضي المحيطة بالقسطنطينية وتحيط بها أملاك فيتاتريس من جميع الجهات ولقد عاد حنا للاهتمام بأمر حدود آسيا الصغرى وكان دافعه لهذا أن القبائل التركية التي اتجهت إلى آسيا الصغرى نتيجة للضغط المغولي اندفعت بمجموعها إلى المقاطعات البيزنطية بحثاً عن مأوى ، فأعاد نظام الأكراتين ولكن جعلهم تحت إشراف وسيطرة الحكومة المباشرة ، ولقد اعتبر المؤرخ George Pachymeres أن إعادة هذا النظام أعظم ما قام به حنا من منجزات ^(١) ، ولقد استخدم بعض عناصر الكومان الذين انضموا لبيزنطة تحت ضغط التتار فوطنهم في تراقيا ومقدونيا وادى المنيار في فريجيا .

مملكة سلاجقة الروم كإمارة تابعة للدول :

نتيجة لهزيمة سنة ١٢٤٣ م سيطر المغول على دولة سلاجقة الروم سيطرة تامة وتدخلوا في إدارة الدولة ، والخلافت الاسمية ، وكان الخان في الأردو هو صاحب الكلمة الأخيرة في مملكة سلاجقة الروم وكان يمثل في المملكة شحنة أو قائد ترى يقيم بصفة دائمة في قونية .

وبعد وفاة غياث الدين كيخسرو سنة ٦٤٣ هـ — ١٢٤٦ م أصدر الخاقان كيوك يارليغ بأن يتولى أبناء السلطان الثلاثة وهم عز الدين وركن الدين وعلاء الدين المملكة مشتركين وظهرت أسماء الثلاثة على النقود ، ولكن ما لبث أن نشب خلاف بين عز الدين وركن الدين على العرش في الوقت الذي أرسل الخان يطلب إليه المشول بين يديه فسار إلى سيواس ولكن بلغه أن هناك مؤامرة تحاك من عدد من الأمراء لعزله

وتولية أخيه ركن الدين ، فسارع بالعودة إلى قونية وقضى عن أخيه ركن الدين وأرسله إلى أماسيا . وقرر أن يرسل أخاه الأصغر علاء الدين كيقباز عن طريق البحر الأسود وبلاد القفجاق مصطحبا معه سيف الدين حاكم أماسيا وواحدة من كبار قادته ، واعتذر للخان ^(١) في رسالته بأن مدبر مملكته جلال الدين قرطاي قد مات ^(٢) ، وأن البين نظيون قد يهاجمون البلاد أثناء غيابه فذكر في رسالته للخان ، إني قد سيرت أخى علاء الدين وهو سلطان مثلى وأنا لم يمكنني المجيء بسبب أن أنا بكى ومدبرى جلال الدين قرطاي قد مات وظهر لي أعداء من ناحية الغرب فإذا كفينا شرهم جئت المرة الأخرى ^(٣) ، ولكن الحزب المؤيد لركن الدين زور رسالة من عز الدين إلى قرطاي ورفاقه فأمرهم بأن يسلبوا علاء الدين وما معه من هدايا إلى قاضي القضاة شمس الدين والأمير سيف الدين جاليس الذى يحمل الخطاب والذي سيصحب الأمير إلى بلاد التتار ، وأخذوهم إلى القائد باتو وأخبروه بأن طرطاي أصيب بالجنون ، ولا يستطيع المثل بين يديه وأنه ساحر يريد أن يسم الخان منجر ، فأمر باتو بتفتيش أمتعتهم فوجدوا بها بعض الأعشاب مما زاد شك باتو فأمر أن يذهب الجميع إلى الخاقان علاء الدين ومن معه وطرطاي ، ولكن مات علاء الدين في الطريق وأجرى الخاقان استجوابا لمعرفة من كان له يد في وفاة علاء الدين الذى يشك في وفاته مسموما ^(٤) ، وفي تلك الأثناء استطاع ركن الدين الفرار من سجنه وقرر الخان تقسيم المملكة بينهما مناصفة ، فيصير من نهر سيواس إلى حد بلاد الأشكرى لعلاء الدين كيكاموس ، ومن سيواس إلى تخوم أرزن الروم

(١) بعض المراجع تذكر أنه كيوك خان Howorth, op. cit vol. 2, p. 380 في حين

يذكر بييرس الدوادار زيادة الفكرة ج ٩ ص ١ أنه منكوخان

(٢) ابن العرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٦١

(٣) ابن العرى تاريخ مختصر الدول ص ٤٦١

(٤) Howorth Hist. of the Mongols Vol: 3, P: 48

D,ohs,vol. ١ Histoire des Mongols,vol, 3p, 73,

من الجهة الشرقية المتصلة ببلاد التار لركن الدين قلع أرسلان أخيه (١) ، ولكن بعد الاتفاقية حاول ركن الدين مهاجمة قونية فهزم وأخذ أسيراً إلى قلعة Davatu وفي العام التالي ١٢٥٥ م تضايق منكروخان من عدم إرسال عز الدين الجزية وأرسل إليه يطلب تسليم بعض القلاع التي استحسناها في موغان (٢) ، ولكن السلطان رفض فأرسل إليه الخاقان جيشاً يقوده بنجو ، وخجانونين وهزم السلاجقة ودخل المغول قونية وهرب عز الدين إلى العلایا (٣) ، ومنها ذهب إلى تيودر لاسكارس الثاني الذي خلف حنا فيتازيس (١٢٥٤ — ١٢٥٨ م) ولكن تيودور خاف انتقام المغول ونصحه بالعودة إلى وطنه، وفي نفس الوقت أرسل تيودور سفارة للمغول ، واستقبل سفرائهم في بلاطه لكي يضمن سلامته من سادة آميا الصغرى .

ولقد عاد عز الدين إلى بلاده وأرسل يدي خضوعه لهولاكو (٤) ويشكو بالنجوتين وأنه قد أزاخه عن ملكه فأمر هولاكو أن يتقاسم المملكة هو وأخوه ركن الدين ، ولقد انحاز إلى كل منهما جماعة من الأمراء فمكان بما انحاز إلى السلطان عز الدين طر نطاي الأتابك وشمس الدين يوتاش والطغرائي وما انحاز إلى ركن الدين سيف الدين طر نطاي صاحب أماسية ومعين الدين سليمان البرواناه (٥) .

(١) الأشكرى المقصود به هنا تيودور لاسكارس الثاني ولقد أطلق المسلمون على كل أباطرة بيزنطة منذ سقوط الفسطنطينية لقب الأشكرى وأول من أطلق عليه تيودور لاسكارس الأول حاكم نيقية .

(٢) بيبس الدودار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٦

(٣) Howorth op Git: vol. 3p. 184

(٤) بيبس الدودار: زبدة الفكرة ج ٩ ص ٦ العلایا بلد صغيرة في أنطاليا

(٥) معين الدين سليمان الداوناه : البرواناه بمعنى الحاجب وهو يطلق على الوزير الأكبر ولقب بالمحجب ، وكان أباه قد ذهب لتجربة حظه في بلاد الروم فتبناه وزير مالية السلطان =

في هذا الوقت كانت قوات المغول تتقدم لفتح الأراضي الإسلامية فقد أوفد منكوقخان هولاكو إلى الشرق ، فسقطت في يده قلاع الباطنية ١٢٥٦ م ثم اتجه إلى الخلافة العباسية حيث استولى على بغداد ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م وقتل الخليفة المستعصم بالله ثم تقدم المغول إلى بلاد الشام ولم تستطع بقايا الأيوبيين مقاومتهم تخضعت لهم الأراضي الإسلامية من أمد وديار بكر إلى غزة ، ولقد صاحبت القوات السلجوقية المغول في فتحهم للدين الإسلامية في بلاد الشام ، حين عزم هولاكو على المسير إلى حلب استدعى عز الدين وركن الدين لمصاحبه ، لما عزم هولاكو على المسير إلى حلب وعبر القرات استدعاهما فسارا إليه وحضرا معه أخذاه (١) وكانت القوة الوحيدة التي تصدت للمغول هي قوة حكام مصر من المماليك ، وعند عين جالوت في رمضان ٦٥٨ هـ - سبتمبر ١٢٦٠ م لقي المغول هزيمة ساحقة على يد السلطان سيف الدين قطز المملوكي ، وتلك الهزيمة جعلت المد المغولي يقف عند حدود وأنقذت العالم الإسلامي من خطرهم . ولكن رغم التعاون الظاهري بين عز الدين والمغول فإن عز الدين كان لا يأمن جانبهم فسعى للتحالف مع بيبرس البندقدار سلطان مصر الذي خلف قطز ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م وقد أعانه على ذلك نائبه شمس الدين يوتاش ، فراسل بيبرس ووعد بتسليم نصف مملكته وأعطاه اختيار توزيع تلك الإقطاعات على من يريد ، وأمر بيبرس جنوده أن يسيروا إلى دمشق وحلب

= السلجوقي علاء الدين كيقباد وزوجه ابنته وأصبح وزير وأثر ترك الوزارة لابنه سليمان الذي عرف بالبرواناه وأعطى له سينوب كاتضاع من ركن الدين

Enc. of Islam Art. Meinal Dia sulman .

Quatremere : Hist. des. sultan Mamloukp. 57-64

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٧

المصري : الملوك ج ١ ص ٤٣٠

أوالفدا : المختصر حوادث سنة ٦٥٨

ليساعدوا عز الدين ، قدم الأمير شرف الدين الجاني ، والشريف عماد الدين الهاشمي من عند صاحب الروم وهو السلطان عز الدين كيكاوس ابن كيخسرو ، ومعهم ما رسل المذكور وهما الأمير ناصر الدين نصر الله ابن كوخ وслан أمير حاجب والصدر صدر الدين الأتخلاطي . وكتابه المتضمن أنه ترك نصف بلاده للسلطان ، وسير دروجا فيها علاتم بما يقطع من البلاد لمن يختار السلطان ويؤمره ،^(١) واستغل البرواناه الفرصة وأبلغ التتار بأمر المراسلات ، فأمر هولاء كيكاوس بخلع عز الدين ، وقرر عز الدين الذهاب إلى هولاء كيكاوس ، ولكن بلغته أنباء أن ركن الدين ووزير البرواناه والقائد المغولي بيان نوين سائرين إليه ويريدان القبض عليه وأخذاه إلى بلاد المغول ، والتقى الجيشان عند موضع يسمى بلدورزاع ، وتأويله جبل التجم ، فهزم ركن الدين من التتار ، وعاد إلى أرض كان فاقاموا بها وأرسلوا إلى هولاء كيكاوس يستمدون منه مددا فأرسل إليهم قوات لمساعدتهم ، وفي نفس الوقت أرسل إلى عز الدين يستدعيه فأبى ، ولكن استطاع ركن الدين بمساعدة قوات التتار الاستيلاء على قونية . وهرب عز الدين إلى القسطنطينية إلى بلاد ميخائيل باليولوجوس الذي تولى عرش القسطنطينية في ١٥ أغسطس سنة ١٢٦١ م بعد قضائه على مملكة اللاتين وهزيمة لبلندوين الثاني ملكهم^(٢) ، ولجأ عز الدين إلى هناك بصحبة أخواله كرخيا وكر كديد

(١) الممالك : اعتمد سلاطين بن أبوب علي المالك وم من الرقيق الأبيض من بلاد ما وراء النهر والفتاح وتضخم نفوذهم في عهد الصالح أيوب ، ولجؤهم يود الفضل في الانتصار على حملة لويس التاسع ، وفي ٢ مايو عام ١٢٥٠ م تخلى المالك من تورنشاء وبوفاته انتهى حكم الأيوبيين في مصر وتولت الحكم شجرة الدر عام ١٢٥٧ م وتعهدها بعض المراجع أول سلاطين الممالك وتزوجت عز الدين أيك وتولى عرش سلطنة الممالك ثم تخلفت منه بالقتل ثم قتل هي الأخرى وتولى المنصور علي ابن أيك الذي عزله فظفر

سميد عاشور : والحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٧٨

القرنيزي : السلوك ج ١ ص ٤٧٠ — العيني عقد الجان في تاريخ أهل الزمان ج ١ ص ٤٧٣

(٢) بعد وفاة تيودور لاسكارس خلفه ابنه حنا الرابع ولكن استطاع ميخائيل باليولوجوس =

وعدد من الأمراء ، وكانت أم عز الدين متسجبة ابنة كاهن أغريق^(١) ولذلك استقبل في القسطنطينية بترحاب د هرب السلطان عز الدين منهزما إلى الأشكرى بالقسطنطينية وصحبته أخواله كرخيا وكركدبد وهما على دين النصرانية وثلاثة نفر من أمرائه وأخلى البلاد فلبكها ركن الدين واستولى عليها سوى اثنتي عشرة سواحل التي بأيدي التركان^(٢) ، وبذلك أصبح ركن الدين الحاكم المنفرد لدولة سلاجقة الروم ، وإن كانت القبائل التركانية قد رفضت الاعتراف بسلطانه ، واعترفوا بسلطان المغول بصفتهم حكام مستقلين فأرسل عدداً من أمرائهم وهم محمد بك ، وأخوته الياس بك وصهره على بك قريه سونج يطلبون فرمان بتقليد وشحنه يقيم عندهم وكتب لهم فرمان بالبلاد التي بأيديهم وهي طنغزولو وخوناس وطلباني وما حوله^(٣).

== أن يصل إلى الحكم ويصبح امبراطوراً شارك في ١٢٥٨ م . ومن اللحظة الأولى سعى لاستعادة الامبراطورية فبدأ بالقضاء على الفتن في الداخل متمثلة في ثورة أخيه حنا حيث انضم اليه جيش من الكومان والسلاجقة واستطاع ميخائيل هزيمة في ١٢٥٩ م والاضطر الحاربية المنحلة في اماره ابيوس أو فريدريك ابن مانفرد حاكم صقلية . وكانت الخطوة التالية الاتجاه إلى القسطنطينية فبعد محاصرة مع جنوه في مقابل حصولها على مزايا تجارية نسكية في البندقية . طيفه اللاتين ، واستطاع بسهولة دخول العاصمة في ٢٥ يوليو سنة ١٢٦١ م بلامعارضة دهرت بلديون الثاني وفي ١٣ أغسطس توج ميخائيل امبراطوراً وبذلك عادت بيزنطة دولة موحدة ، ولكن فترة حكم اللاتين تركت في جسد الامبراطورية جراحاً لا تلتئم ، جعلت بيزنطة الجديدة لا تتمتع بمرات وقومات الدولة القديمة ، فهي بحاجة إلى إمداد من كل جهة ، والمدن الاطالية تتحكم في المياه البزنطية وتستعمراتها في قلب الامبراطورية وفي معظم الجزر في شرق البحر المتوسط وهناك اغريق تحت حكم اللاتين ، وشمال البلقان سيطر عليه الساكنان البلقار والصرب وتوسعا على حساب بيزنطة ، ولكن في هذا الوقت لم تكن لهم قدرة لأخذ خطوة إيجابية ضد بيزنطة ، ولكن كانت على استعداد للانضمام إلى عدو بيزنطة من دون الغرب ، كل هذا دفع ميخائيل باليولوجس إلى ترك أمر حدوده الشرقية في آسيا الصغرى والاتجاه الغرب .

Ostrogorsky op. cit. p. 40

Enc. of Islam Art. kaikaus

(١)

(٢) يبرس الدوادار زبدة الفكرة ج ١ ص ٦٤

(٣) الفقهندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٦٦ — ٢٦٩

ولقد اشتهر من طوائف التركان تلك ست طوائف أولاد قرمان ، بنوحيد ،
بنوايدين ، بنومتشا ، بنواورخان .

وقد وجد عز الدين في القسطنطينية كل ترحاب فأكرمه ميخائيل وأقبل
عليه وعلى من معه من الأمراء ولكن أمراء عز الدين حاولوا تهديد مؤامرة
وقتل ميخائيل والاستيلاء على العرش البيزنطي ، وطلبوا منه كتمان الأمر
عن إخوانه كرخياوكر كديد ، فاستدعى عز الدين خاليه وأخبرهما بما عزم
قواده عليه وطلب منهم لإبلاغ الإمبراطور بذلك ومنعه من الخروج إلى
الميدان ذلك اليوم ، فتوجها إلى ميخائيل وأخبراه فقبض عليهم وعلى عز الدين
الذي أرسله هو وأولاده إلى قلعة Anios من القلاع الغربية (١) ،
أما المتآمرين فقد سمل أعينهم . وجمع الإمبراطور غلمانا وحاشيته وجند
عز الدين وعرض عليهم الاختيار بين اعتناق المسيحية أو سمل أعينهم
« أمر أن يجتمع كل من يلوذ بهم من الجند والغلمان والعامة والحاشية
لجميعهم في الكنييسة الكبرى جميعاً وحصر البطارقة وعرضوا عليهم دخول
دين النصرانية ، فمنهم من تنصر فسلم ومن أبى إلا البقاء على إسلامه
فكحل (٢) » .

ولقد ظل عز الدين معتقلاً إلى سنة ثمان وستين وستمائة حين أرسل
منه كوتمرخان القيماق جيشاً استولى عليها وأطلق سراح عز الدين (٣)
وأحضره إلى القرم حيث تزوج إحدى بنات بركة خان وبقي هناك لوفاته
سنة ٦٧٨ هـ - ١٢٧٧ م (٤) « تنبكر الخان من كوتمر بن طغان ، ملك التتر

Enc. of Islam Art. kaikâra

(١)

Enc. of Islam Art. Kaikâra

(٢)

(٣) بيريوس المودار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٩٩

(٤) القرينى : السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٥٨٨

يبلاد الشام على الأشكرى ملك طنطنية قبض الخاق جديماً من التتر حتى أغاروا على بلاده . وحلوا عن الدين كيقباز بن كيخسرو (١) .

أما دولة سلاجقة الروم فقد سيطر عليها ركن الدين منفرداً بعد فرار عن الدين ، ولكن الحاكم الحقيقي كان البرواناه الذي أحكم سيطرته على السلطان ولكن البرواناه خاف أن يثور عليه سيده الأسمى ، فأثار المغول عليه بدعوى عصيانه ، واستولى على السلطنة وقتل التتار ركن الدين بوتر قوس سنة ٦٦٤ هـ - ١٢٦٦ م وتولى ابنه غياث الدين كيخسرو بوصاية البرواناه وهو لم يتجاوز الرابعة ، وبذلك انفرد البرواناه بأمر المملكة السلجوقية وإن كان التتار قد أقاموا معه مقدما منهم هو صفغان ومعه حامية تركية .

معركة ابلسنين :

توفي هولاكو سنة ٦٦٣ هـ - ١٢٦٥ م وخلفه ابنه ابغا واقدم استمر على سياسة أبيه العدائية تجاه العالم الإسلامي وكان من الطبيعي أن يصطدم بالدولة المملوكية وهي أقوى دولة إسلامية في المنطقة ولم يأس المغول ما حان بهم على يد الجيش المملوكي في عين جاتو ، وحاولوا الثأر عن طريق مهاجمة المالك في الشام فهاجموا البيرة سنة ٦٦٣ هـ ١٢٦٥ م ولكن ردهم جيوش بيبرس ولما ثبت لهم قوة الجيوش المملوكية حاول ابغا إجبار بيبرس على عقد صلح عن طريق التهديد ولكنه لم يجدى فعاود الهجوم على الساجر ثم على عينتاب والعمق ، ولما شعر ابغا أن محاولته الهجومية لم تجدى سعى للصلح ثانية فأرسل ٦٧٠ هـ - ١٢٧٢ م

(٢) تقرير : فوك م - ٢ ص ٥٢٢ . وكان موت ركن الدين حقة بالوتر .
وذلك أن ميس الدين الرواه اتفق مع التتر المقيمين معه على قتل ركن الدين كيخسرو .

سفارة كان يصحبها رسول البرواناه حضر إليه رسل البرواناه ، النائب بالروم . ورسول صغار مقسديم التتار المقيم بها ، فخير الأمير نجر الدين لما بال مقرى والمبارز الطورى أمير طبر صحبة وسلمهما هدية إليهما وإلى إبنهما قد خلا قيسارية واجتمعا بصغناز والبرواناه وأرسلا إليهما الهدية وأبلغهما جواب الرسالة وتوجها إلى الأزدوا واجتمعا بأبغا وأرسلا إليه هديته^(١) ، ومع ذلك فإن تلك المفاوضات لم تأت بنتيجة مرضية بالنسبة لأبغا وانقضى الأمر بغير اتفاق^(٢) .

جدد المغول هجماتهم على البيرة ٦٧٣ هـ^(٣) ، فى الوقت الذى وصل فيه عدد من أمراء السلاجقة النافرين على البرواناه . اختلفت أمراء الروم على البرواناه ، فقوامته جماعة من قيسارية^(٤) ، كان منهم الأمير سنان الدين موسى بن طرناى ونظام الدين أخو محي الدين الأتابك ، ضياء الدين محمد ابن الخطير والأمير سيف الدين جندربك صاحب الأبلستين وعدد آخر كبير ، وحرصوه على محاربة البرواناه وحلفائه المغول^(٥) . فاستجاب لهم وفى ٢٥ رمضان ٦٧٥ هـ - ١٢٧٦ م خرج السلطان بجيوشه بصحبة الأمراء الروم ثم اتجه إلى الشام وقضى الدربند ووصل إلى ألبانال المشرفة على صحراء هون من بلد أبلستين^(٦) حيث عسكر المغول بقيادة تانوق والسلاجقة برآسة معين الدين وأخاه ولقد نظموا أنفسهم فى أحد عشر طبعا ، كل يزيد عن ألف فارس وعزلوا عسكر الروم وجعلوه طلبا منفردا لئلا يكون

(١) بيريوس الدوادار : زبدة الفكرة ص ١١٨

(٢) ابن تقي بردي : التجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٥٨

(٣) (٤٣) المغريزى السلوك ص ٦٢١

(٥) رشيد الدين فضل الله الهمذاني : تاريخ جامع النوارخ ج ٢ ص ٦١

(٦) رشيد الدين : جامع النوارخ - المغريزى السلوك ج ١ قسم ٢ ص ١٣٦

بيريوس : زبدة الفكرة ص ١١٠

خلفاءهم^(١) . ووضح تفوق المالك فسادع معين الدين البروانه ،
بالفرار وأخذ السلطان غياث الدين معه ونظر الدين الوزير وكان بقبسارية
وتوجه بهم إلى توقات ، كانت إقطاعه .

وحاقت الهزيمة بالمغول ولم يتج منهم إلا القليل ، وكان من بين القتلى
تاتون مقدم التتار^(٢) وأمر السلطان بقتل من أسر من التتار وإن كان قد
عفى عن بعض أمراءهم ، وأبقى على من أسر من أمراء الروم وأعيانهم
ومنهم أم البروانه ، وابنه مهذب الدين علي وابن ابنته^(٣) . واتجه ببر من
بعد ذلك إلى قيسارية ، وأرسل البروانه يثأره فدعاه السلطان للحضور^(٤)
رأى البروانه طلب إمهاله خمسة عشر يوماً وكان هدفه أن يصل إربغا الذي
كان البروانه قد استخذه على القدوم بنفسه ليدرك الظاهر بيبرس وهو يولد
الروم . ولما تأخر البروانه عن الحضور يأمر السلطان من أمره
ولقد راسل السلطان أولاد قرمان وحكام وأمراء التتركان ودعاهم إليه وكان
يلى دولة بن قرمان محمد بن قرمان^(٥) . ولقد ورد رده عند وصول السلطان إلى
در بند قد كر المقریزی جمع التتركان وحضر في عشرين ألف فارس وثلاثين
ألف راجل متركشة للخدمة^(٦) . وترك السلطان قيسارية الثمن وأبلغ
إربغا بما حدث لجيوشه في أبلستين ، فتوجه هناك حيث رأى القتلى مكسدة
أجسادهم ووجد أن جميعهم من المغول وعدد قتلى الروم قليل فغضب على
البروانه إلى جانب أن أحد أمراء السلطان بيبرس وهو أليك الشينخي

(١) المقریزی : السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٦٢٨

(٢) المقریزی : السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٦٢٩

(٣) بيبرس : زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٤٠

(٤) المقریزی : السلوك ج ١ ص ٦٣١

Eor. Islam Art karaman Oghlu

(٥) المقریزی : السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٦٣٣

(٦) رشيد الدين : جامع التواريخ ص ٦٣

قد فر من عسكر الشاطان وتوجه إلى إلبغا لأن يبرز قد ضربه على وجهه وأطلعه على أن البرواناة هو الباعث لذلك الظاهر على الحضور إلى بلاد الروم بتكرار كتبه وتوارد رسله^(١) فتتحقق ظن إلبغا على خيانة البرواناة فأمر بنهب بلاد الروم وقتل المسلمين منها فتفرقت عساكره تنهب وتفتك وتقتل وقتلوا من المسلمين خلقا لا يحصون كثرة ولم يتعرضوا إلى نصارى البلاد وامتدت غاراتهم مسافة سبعة أيام ، ويقال أن عدد القتلى بلغ خمسمائة ألف .

سار إلبغا مع السلطان غياث الدين صاحب الروم ووكل بالبرواناه من يحفظه ولما وصل الأردوا استشار أمرائه في أمره فقوم أشاروا بقتله وقوم أشاروا بإيقائه على البلاد ليحفظ نظامها ويحضر خراجها ولكن أمر إلبغا بقتله فقتل وعدد من أصحابه ٦٧٦ ٥٠ ١٢٧٥ م .

ولقد كان لمركة إبلستين تنازع عظيمة الأهمية : أهمها أن دولة السلاجقة لم تعد ملكة مستقلة إنما أصبحت ولاية تابعة للمغول يتولاهما أحد قادتها كنائب عن الخان في الأردو ، فأرسل إلبغا الخواجة شمس الدين^(٢) وانتقلت الإدارة الداخلية للبلاد إلى يد المغول ، وسرح الجيش السلجوقي ، وأصبح الجند الذين فقدوا وظائفهم مصدر قلق وشغب ، وفرض المغول على الشعب كثيراً من الضرائب التي لم تكن موجودة من قبل كضريبة التمتع^(٣) .

(١) يبرز : زبدة الفكرة ص ١٤٢ وذكر يبرز : في التبعة المملوكية ص ١٦٩ أن الأمير معين الدين سلاط قد كاتب السلطان وفاوضه من الاتفاق وقاعه فوقع التمتع أبطاي المذكور قاصد من قصاده ومعه كتاب الملك الظاهر .

(٢) يبرز : الدوادار : زبدة الفكرة ص ١٦٩ — رشيد الدين الهمداني : جوامع التواريخ ص ٦٣

(٣) رشيد الدين : جوامع التواريخ ج ٧ ص ٦٥

(٤) رشيد الدين : جوامع التواريخ ج ٦ ص ٦٤

وخلال السنوات القليلة التالية تضائل حجمها وانقسمت إلى أمارات صغيرة بل لم يعد حكامهم لهم الحق في حمل لقب سلطان ففي ١٢٧١ هـ - ١٢٨٣ م عزل السلطان أحمد تكدار سلطان المغول غياث الدين كيخسرو وأرسله إلى أرزنجان . وولى مسعود بن السلطان عز الدين كيكافوس فاستقر بها ليس له منها إلا الاسم والحكم كله فيها للتتار وشعائهم ، فلما جلس آرغون في السلطنة دس إليه وهو في أرزنكان من خنقة ميونر فات^(١)، ويذكر المفريزي أن مسعود بن عز الدين لم يكر له أى حول ولا قوة تجاه المغول بل عانى من الفقر كما عانى شعبه ، مسعود بن عز الدين كيكافوس ابن كيخسرو بن كيقباز كيخسرو بن قلاج أرسلان بن سليمان بن قهلووش ابن أرسلان ييغر بن سلجوق وهو آخر من سعى بالسلطان من السلجوقية ببلاد الروم، افتقر وانكشف حاله ومات قريب سنة ثمان عشر وسبعائة^(٢)، ونلاحظ أن المراجع البيزنطية والإسلامية لم تعد تشير إلى سلاجقة الروم أو مملكانهم فقد أصبحوا ولاية لا تختلف عن أى ولاية تركانية في المنطقة.

الإمارات التركانية في آسيا الصغرى :

ولكن هذا لا يعنى نهاية الوجود التركي فلقد بدأت عناصر تركية أخرى من الغز تنتشر في المنطقة على نطاق واسع وتغزو قلب شبه الجزيرة ، ولقد ساعد على ذلك تغيير سياسة بيزنطة في عهد ميخائيل باليولوجس تجاه آسيا الصغرى ، فانهيار السلاجقة دفع الإمبراطور إلى الانتقال باهتمامه من الحدود الشرقية إلى جهة أخرى فاتجه إلى الغرب ، حيث تجدد الصراع في البلقان وحتم عليه تركيز قواته في الجانب الأوربي ،

(١) بييرس الدوادار : زبدة الفكرة ج٢ ص ٢٧٥

(٢) المفريزي : السلوك ج١ قسم ٢ ص ٢١٨

Runcman n. The fall of constantinople p 30

وكانت موارد الأمبراطور المالية والحربية غير كافية لحماية أراضيها في آسيا فانهارت في عهده فرق الحدود من الأكرانيين التي أعاد إحيائها حنا فينا ترين ولم يعودوا يحصلون على أجر ، ووجدوا أنفسهم بلا دعم من الدولة وخاصة في منطقة الحدود المشتركة مع السلاجقة ، فانتقلوا إلى المناطق الشرقية ويشير أحد المعاصرين للأحداث إلى أن الفرس ، والأتراك اجتاحتوا الأراضى ولا توجد قوة تصدم فالنظام الإقطاعى الذى أقامه آل باليولوجين أسرع بإسقاط نظام الحدود الذى أقامه حنا فينا ترين .

كل هذه العوامل ساعدت قبائل الأتراك على التوغل في أراضى بيزنطة وبدأت فترة جديدة في تترك المنصقة بظهور الإمارات التركية المستقلة على نطاق واسع نتيجة للضغط المغولى وبدأوا توسعهم على نطاق كبير من أذربيجان إلى قلب آسيا الصغرى وانتشروا على شاطئ البحر الأسود ووصلوا إلى كليشيا . وكانت الدولة السلجوقية الخاضعة للمغول تسيطر على قلب الأناضول والسهول المجاورة ، ولكن القوات التركمانية كانت تتركز بالقرب من الحدود في الجبال ، وفي البداية اعترفوا بالولاء للسلاجقة ولكنهم دأبوا على الثورة والخروج عليهم بل ومساعدة الخارجين عليهم ، وكان يصحب تلك الجموع التركمانية عدد من الدراويش وانشيوخ لجأوا إلى تلك المناطق بدافع دينى وهو قتال الكفار والجهاد فى سبيل إلى الله ، ولقد كان هؤلاء الشيوخ قد هربوا من تركستان وأذربيجان وفارس تحت ضغط المغول وأمكنهم تحويل التركمان الشامانيين إلى الإسلام ، ولقد أضافوا هرا على فتح التركمان لبيزنطة طابعاً جديداً وهو طابع الجهاد الدينى واتخذ التركمان لقب غازى (١) .

وهذه الإمارات تعتبر تطورا لإمارات الحدود التركية التى نشأت

(١) أخذوا لقب غازى تشبها بالفرزاة فى نظام النغور فى العصر الإسلامى الأول

مع قيام الدولة السلجوقية في مواجهة الحدود البيزنطية، ولقد تركز أمراء الحدود في عدد من المناطق أولها في الجنوب في مواجهة قليقيا حول العلمايا وإثاليا لصدة غزوات الأرمن والقبازصة^(١). وفي الشمال على حدود إمارة طرابزون وعلى طول شاطئ البحر الأسود وهؤلاء ينقسمون قسمين قسم اختفى في الشرق حول سمرنا وسمسون وبافارا^(٢) والآخر في الغرب حول قسطنطين وسنوب. ولقد استقر أمراء الحدود الغربيين في قرا حصار، دنلي، وكوتنيا دانليزي على الحدود الغربية التي تمتد من قسطنطين إلى خليج Maki في الجنوب، وكانت الدولة السلجوقية تمثل في كل منها بقائد أو أمير وكانوا يتوارثون الإمارة. وكان أمراء الحدود في الغرب هم أكثرهم أهمية على الإطلاق وفي ٦٥٩ هـ - ١٢٦١ م تولى أمرهم نصرة الدين حسن وتاج الدين حسين أولاد الوزير السلجوقي نغر الدين على وسيطروا على المنطقة بين كوتنيا واسكي شهر^(٣) وكانت عاصمتهم قلعة قرا حصار، وكان اعتماد إمارات الحدود تلك على قوات التركان وعلى قادتها الذين حملوا لقب غزاة ولقد مارس الغزاة نوعاً من الاستقلال الذاتي على قواتهم، ومع ضعف الدولة السلجوقية وازدياد الضغط المغولي هاجرت القبائل التركمانية واستقرت في المنطقة بين هضبة وسط الأناضول والسهل الساحلي حيث يوجد المرعى صيفاً، ولقد اتخذت تلك الإمارات الدولة السلجوقية كنموذج لها. وكان للحضارة السلجوقية تأثير كبير على مدنهم ككوتنيا وقرا حصار واسكي شهر وقسطنطين وإن كانت المصائد السلجوقية في فترة سيطرة المغول قد بدأت تصفهم

Camb. Hist. of Islam Vol. Ip. 252 (١)

Enc. Isl Art karman. (٢)

Camb Hist of Islam Vol. Ip. 268 (٣)

Ottoman sky up c t.p.361 (٤)

كثيرى ذهب وقطاع طرق ولقد لعبت تلك الإمارات دورا هاما في الأناضول وفي الصراع بين أمراء السلاجقة ، فلقد ناصروا عز الدين على قوة أمراء الحدود ولقد اضطروا البرواناء والمغول آنذاك لمسألة التركان وبقال أن فرق من التركان لحقت بعز الدين في بزنطة (١) . واقد استغلت تلك الإمارات فرصة الاضطرابات والصراعات في كلا الجانبين السلجوقي والبيزنطى للاستقلال والتوسع في آسيا الصغرى وأقدم تلك الإمارات أمرة بنى قرمان Karaman Oghuli قامت على أراضي أرمنك وقسطنطين في جنوب آسيا الصغرى في أواسط القرن السابع الهجرى ومؤسسها قرمان ابن نور صوفى المتوفى ٦٦٠ - ١٢٦٠ م وتولاها بعده ابنه محمد بك ويذكر القلقشندى أنه كان يتولاها معه الياس بك وصهره على بك وقرية سونج (٢) . ولقد رفضوا الاعتراف بسلاطنة ركن الدين بعد فرار عز الدين ٦٦٠ هـ وراسلوا هولاكو حيث اعترفوا للمغول بالتبعية المباشرة ، ولكن بعد معركة ابلستين انضموا إلى جانب بيبرس ، وأحضروا عشرين ألفا من التركان لمناصرته (٣) .

وفي نهاية ٦٧٥ هـ - ١٢٧٦ م استولوا على قونية وقرروا التزكية كخانة رسمية بدلا من الفارسية ، ولكنهم هزموا على يد السلاجقة واضطروا للعودة إلى كرمان ، وإن كانوا استطاعوا استعادة قونية في ٧٣٦ هـ - ١٢٣٥ م حيث أقاموا فيها دولة قوية (٤) .

Hearsey City of Constantinop. 227 (١)

Baynes : Byzantium p17 (٢)

Ostrog or-ky op cit p. 438 (٣)

Hugsey : The Byzantine world p. 79 .

Camb. Hist of Islam Vol Ip. 296 (٤)

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٢٦ - ٢٢٩

Etc. of Islam Art karman,

ولإمارة منتشا في الجنوب الغربي من آسيا الصغرى وتاريخ إنشائها يقارب تاريخ قيام مملكة قرمان^(١)، فقد كان حاكمها منتشاك يدين بالولاء لأمير الدين كيكاوس الثاني وقد بدأ توسعه على حساب بيزنطة فترك الشاطئ الجنوبي واتجه إلى كاريا حيث اتخذها مركزا لعملياته ثم انضمت إليه قرارات تركانية وسيطر على كل إقليم كاريا وتقدم في ١٢٧٨ إلى وادي Boyuk في الميندر وأخضع مدن برين ، ملطية ومجدون^(٢) وتقدم ١٢٨٢ إلى ترالس ونيش ولقد أكل ساس بك ابنه سياسة الفتح وإن كان أضعف من أرمم قيام مملكة الاستباز في رودس وإمارة كرميان في المنطقة بين Denizli وكوتيا وعاصمتها كوتيا ويخضعون لأسرة Alishir وكانوا من مؤيدي سلطنة السلاجقة وأعانوا كيخسرو الثالث والوزير نغر الدين على ضد الثائرين عليهم ، ولكن نبذوا الولاء للسلاجقة بعد تولية المغول لمسمود الثاني وانضم إليهم الطبقات التي ضاقت بعبء الضرائب وانتهت الحرب سنة ١٢٨٩ م بانتصار يعقوب بك ابن الشير الذي بلغت المملكة تحت سلطانه أقصى اتساع ووجه قواته ضد بيزنطة وإمارة أيدين التي كونها محمد بك ابن أيدين الذي أرسله يعقوب لفتح وادي الميندر فكون إمارة وكانت أكثر الإمارات الآسيوية اجتياحا للشاطئ الأوروبي ، ولقد اتحدت ضدها في الشمال أمراء صاروخان ورناستهم في مريسيا أو مقبسيا ثاني عاصمة لإمبراطورية نيقية وأمراء سهل تروى ، وعلى البحر الأسود إمارة غازي جاليوزلي في سنوب ، والإمارة التي أنشأها Eshiesaghia ، وأخرى أنشأها القاضي برهان الدين وإمارة قراصيا وولاية جنداوغلي في قسطنطيني ، وإمارة دلفادر في مرعش وإبلستين ، ورمضان في أذنة وقلقية ،

(١) القرنى : السلوك ج ٢ قسم ١ ص ٦٢٣

القرمانى : أخبار المون وآثار الأول من ٢٤٠

ودولة الشاة السوداء ، والشاة البيضاء في شرق الأناضول^(١) ثم
الإمارة العثمانية في بيلينيا واستطاعت قبيلة Tzane التركية عبور جبال
البحر الأسود وإقامة إمارة هناك ، المنطقة الوحيدة التي لم يحتلها الترك
كانت شرق البحر الأسود حيث طرابزون . ولقد دفعت تلك الأوضاع
التي تعرضت لها آسيا الصغرى وأراضي بينظنة الأسيرية خاصة الغرب
بإرسال حملة صليبية ضدها ولكن قيام حرب المائة عام جعلتهم يتركون
هذا المشروع جانبا .

التوسع التركي في أراضي بينظنة :

ساعدت ظروف بيئة الداخلية الإمارات التركمانية على التوسع
على حساب أراضيها الآسيوية ، فلقد ترك ميخائيل باليولوجس خلفه
أندرونيكوس الثاني ١٢٨٢-١٣٢٨ تركه مثقلة بالمشاكل ورغم نجاح سياسته
الداخلية^(٢) فإنه ترك خلفه من المشاكل الخارجية والصراعات الكثيرة
سواء في البلقان أو مع الغرب وأصبحت بينظنة دولة من الدرجة الثانية ،
ومجرد رابطة في العلاقات بين الأطراف في المنطقة بل إن الرابطة بين
العاصمة والولايات أصبحت واهية . وازدادت سلطة كبار الملاك في نفس
الوقت الذي زاد فيه العبء على الطبقات غير القادرة ، واعتمدت الدولة على
الجند المأجورين وعلى أسطول جنوة ، وكلف هذا مالية الدولة أعباء
لا تقدر على تحملها . فاضطر أندرونيكوس لتخفيض أعداد الجيش فأصبح
الجيش في نهاية القرن الثالث عشر لا يتجاوز عدده بضعة آلاف . وهذا
يوضح فشل القوات البيزنطية في صد القوات التركمانية وخاصة أمراء منمنشا

Ostrogorsky : op.cit. p. 438 (١)

Runicman : op cit p 26 (٢)

Ostrogorsky : op. cit p 433 (٣)

Camd Hist. of Islam. vol 1p266 (٤)

وإبدن الذين اشتبكوا معها برا وبحرا ، ولم تستطع منعهم من احتلال غرب
الأنابضول ولقد حاول أندرونيكوس تدعيم موقف امبراطوريته المنهار عن
طريق عقد معاهدات سلام ومصاهرات مع الغرب^(١) ، ومع حاكم الصرب
ولكن جيوش الصرب في عهد داسان استمرت في تغلظها في أراضي
الامبراطورية ، ثم تدخلها في الصراع بين البندقية التي تسيطر على الجزء
الجنوبي من البحر الإيجهيني وجنوة التي تتدفقونها على الجزء الشمال من الأرخبيل
وعلى بحر مرمره وبونتس وقد تورطت الامبراطورية في الاشتراك في هذا
الصراع ١٢٩٤ م وانتهت الحرب بينهما بالحصول على مزايا اقتصادية على
حساب الامبراطورية بل استولى أحد القادة الجنوبيين على "حيوس" ١٣٠٤ م

فالامبراطورية كانت تسير في طريق الانهيار داخليا بأزماتها الاقتصادية
ونظامها الحربى المتداعى ، وخارجيا بسبب تكتل الأعداء ضدها في نفس
الوقت الذى ظهر فيه خطر الترك في آسيا الصغرى ، وهذا يوضح سرعة
وسهولة توغل الأتراك في قلب الامبراطورية وفي سنة ١٣٠٠ م أصبح
كل آسيا الصغرى في يد الترك ولم ينجوا من المد التركى إلا عدد قليل من
المدن والقلاع كنيقية ، نيقوميديا ، بروسا ، سارديس ، فلادلفيا ،
مغنيسيا ، وبعض المواضع كهرقليا ، بونتس ، فوكيا ، سمرنا وقسم القادة
الأتراك المدن بينهم وتحول غرب آسيا إلى ولايات تركية سقطت فيما بعد

(١) رغم نجاح سياسة ميخائيل الداخلية واستعادته للسلطانية فإن سياسته الخارجية
لم تلاق نفس النجاح لمواجهة العديد من المشاكل في البلقان بسبب الباغار - ويطر
الابطاليون على العارق البحرية ، وبجهودات جارية استطاع استعادة جزء من البانونيا
ولكن الجزء الأكبر ظل في يد الفرنج وسالبا وبروس واكرينيون خاصة لبنت انجلوس
Ostrogorsky op' Cit' p. 419.

سمى اندرونيكوس أحد مصاهرات لبنت خلفاء بلانيه فتزوج ابنة مونتفات لبنت
سالونيك ، وحاول أن يزوج ابنة ميخائيل التاسع بقيدوس الثاني ولكن قوة الإمبراطور
في المنطقة ضعفت بسبب الصراع بين ابروس وبلانيا .

بسمولة في يد عثمان مؤسس الدولة العثمانية، وبذلك نرى أن بينة ما كادت تتخلص من خطر الأتراك السلاجقة الذين اغتصبوا أراضيها في بداية القرن الحادى عشر حتى ظهر في أوائل القرن الرابع عشر خطر أشد وطأة هو العثمانيون ، وإذا كان السلاجقة في عنفوان قوتهم لم يستطيعوا الوصول إلى القسطنطينية فإن الأتراك الجدد كانوا على عكس ذلك . فقد استطاع العثمانيون أن يضموا صفوفهم وقيموا دولة موحدة توسعت على حساب بينة لا في آسيا الصغرى فحسب ، بل في أوروبا ، وأخيراً أسقطت القسطنطينية العاصمة التي استمرت لإحدى عشر قرناً مركزاً قوياً يحمى العالم المسيحى والغرب الأوروبى .

Ostrogorsky : op. cit, p 439 .

Baynes : Byzantium 78 .

Heurley. op. cit 70

(1)

الفصل السابع

العثمانيون

أصل العثمانيين :

من بين الإمارات التركية التي انتشرت على حدود بيزنطة واتخذ أسرائها لقب الغزات كانت إمارة صغيرة أقيمت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر على مناطق الحدود الممتدة في الاتجاه الشرقى من بيشيا إلى أولمبيوس^(١)، وؤسسها أرطغرل مات في سنة ١٢٨١م وخلفه ابنه عثمان مؤسس الأسرة العثمانية ولقد وردت قصص عديدة عن أصل العثمانيين ونشرت حوليات مختلفة عن أصل السلالة العثمانية بعضها ابرخ في العهد العثماني بل بعض من تلمذوا العثمانيين في القرن الثامن عشر ذكروا أنهم من سلالة النبي، وأشارت بعض الحوليات إلى قائمة ذكر فيها احدى وعشرين إسما من سلالة عثمان ونسبوه إلى الخان بطل الأتراك Oghuz وإلى ابنه جوك ألب وحفيده شمندور . وذكر في حوليات أخرى أنه كان أحد أربعة وعشرين ابنا كانوا لاوغز ، والسلطان محمد الفاتح حاول التوحيد بين شطرى شعبه التركي والاغريقى بادعائه أن أسرته من سلالة آل كومتين الذين ارتحلوا إلى قونية واعتنقوا الإسلام وتزوجوا من أميرات تركيات من السلاجقة ولا يوجد دليل قاطع على صحة أى من تلك النظريات ولكن

Hearsey : op. cit p. 220

(١)

Ostoyorsky : op. cit p. 448

Gaston Gillard : op Cit 10

Norman Itzkowitz : The Ottoman Empire p226

المؤرخين أثبتوا أن أرطغرل هذا لم يكن رئيس قبيلة وإنما قائد فرقة من الغزاة وينتمى لعشيرة صفرى من قبيلة kayi^(١)، واستطاع بمعاونة التركان أن يشق طريقه إلى حدود بينظة وأقام إمارة هناك ، ولما كانت إمارات الحدود لا تكفي بمحدودها وإنما تعتمد على التوسع ، ورأى عثمان أن قدراته لا تتناسب مع صغر إمارته فقرر أن يتوسع على حساب جيرانه ولدينا تفصيلات قليلة عن الفترة الأولى من تاريخ عثمان ولكن هناك نص في مسجد بروسا في عهد أورخان ابن عثمان يذكر أنه : ابن السلطان سلطان الغزاة غازى الغزاة بطل العالم^(٢) ، وهذا دليل على أن عثمان بسط سلطانه على غالبية الغزاة آنذاك ، وكان عثمان يشترط على من يدخل في خدمته أن يكون غازيا .

التوسع العثماني في أراضى بينظة الآسيوية :

امتدت الأراضى التى يسيطر عليها عثمان من اسكى شهر إلى السهول المجاورة النيقية وبروسا وأصبحت إمارته أقوى الإمارات فى المنطقة وشعرت بينظة بتهديد تلك القوة النامية فقرر الامبراطور تركيز اهتمامه وقوته فى الجانب البحرى لئمنع توسع العثمانيين فى أراضيه الأوربية . فى حين أن عثمان كان يخشى أن يتوقف المد العثمانى بسبب إغلاق البينظيين لطريق البحر ، وخاصة لتفوق بينظة البحرى ، فعنى هذا انحصاره فى منطقة محدودة ، وربما يؤدى هذا بدوره إلى ترك أتباعه له للبحث عن أراضى جديدة (٣) .

(١) Camb. Hist. of Islam Vol Ip 268

(٢) Hussey, The Byrantine World p 79

ostrogorsky : op. cit. p. 43

Runicman op cit. p.23 (٣)

Hussey : Byzantine World. p. 80

Itzkowitz. op cit. 226

وبدأ عثمان بالتوسع فيما جاوره من أراضي بزنطة فهاجم نيقية وأرسل
الأمبراطور جيشا بقيادة Muzalon لتحرير المدينة ولكن عثمان هزم
الجيش البزنطى فى بافيوم وقام مواطنى تلك المدن من المسيحيين بتركها
واللجوء لنيقوميديا . وفى سنة ١٣٠١ م استقروا فى شمال جبال الأولمبس .
ولقد أثار هذا اهتمام بزنطة وجزعها ، فبزنطة تحشى احتلال آخر
ممتلكاتها فى الشاطئ الأسيوى والى على مرأى من العاصمة نفسها ، فبفقد
تلك الأقاليم تعتبر بزنطية قد فقدت آسيا الصغرى إلى الأبد .

ولقد حاول أندرونيكوس الثانى محاولات يائسة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه
فحاول التحالف مع غازان خان وبعد وفاة الأخير ، تحالف مع الكيخسرو خان
ولكن لم تجدى تلك السياسة ^(١) . بل اشترك فى الهجوم على بزنطة أمراء كرميان
ومنتشاوايدن . واضطر الأمبراطور لطلب المساعدة من اللان فى مقابل
وعد باستقرارهم داخل الأمبراطورية ^(٢) ، فجهأوا فى حوالى عشرة آلاف
نفس بأولادهم ونسائهم ، ونحت قيادة ابنه ميخائيل التاسع تقدمت جيوش
آلان فى آسيا الصغرى ولكنها لقيت هزيمة كبرى على يد العثمانيين ٧٠١ هـ
- ١٣٠١ م . وفى تلك الأثناء عرض روجر ووتلور قائد الكيكلان
خدماته وخدمات رجاله ضد الترك ^(٣) ، وقبل الأمبراطور العرض بكل
ارتياح ووصل القسطنطينية ١٣٠٣ م حيث استقبله الأمبراطور بالترحاب
وكان يصحبه ٦٥٠٠ من رجاله ووعد بمنحهم مرتب أربع شهور وكذلك
منحه لقب قيصر .

Camb Hist of Islam Vol I p. 168 (1)

(٢) نفس السياسة التى اتبعها الأمبراطور نيكوسوس الأول .

Setton : Catalan Domination p 125 (3)

Utkrotsky op cit p 248

ومع بداية عام ١٣٠٤ عبر الكتلان إلى كونيكيوس وتقدموا إلى
 غلادليا التي يحاصرها الترك واستطاعوا هزيمة الأتراك، ولقد أثبت انتصاره
 هذا أمراها ما أن يزنقة لو تيسر لها القوات الكافية والإمكانات المتاحة
 لأمكن لها أن تقضى على قوة الأتراك الناشئة ولكن يزنقة آنذاك لم يكن
 لديها لا القوات ولا المال، وترك الكتلان حرب الترك وهاجموا مغنيسيا
 البيزنطية، ولقد ارتاح الأهل البيزنطيين برحيلهم بعيداً وقد شغلوا
 الأباطورية بعشر سنوات من الحروب وخلال تلك السنوات بدأ
 العثمانيون يعبرون الدردنيل واستطاعوا بسط سلطانهم على مناطق جديدة
 بل عاون عثمان أمراء Aydin الأتراك في الاستيلاء على أفنوس واستولى
 هو على الممتلكات البيزنطية في المنطقة من Iteb-ia إلى Zangarus وقد تبع
 مغادرة الكتلان للمنطقة حروب أهلية داخلية في يزنطية وكانت سياسة
 العثمانيون قائمة على عدم الاستيلاء على المدن الحصينة إلا في حالات نادرة
 لعدم توافر أدوات حصار كافية ولكن كان يسترقون أهل المناطق المجاورة
 ويقطعوا عن المدينة إمدادها .

وسعى عثمان لاتخاذ عاصمة تكون ذات موقع حصين تتوسط فتوحه
 فحاصر مدينة بروسا وهي مدينة بطبيعتها حصينة في الانحدار الشمالي
 لجبال الأوليمبوس ويستطيع عن طريقها مهاجمة شاطئ بحر المرمرة
 ولقد استطاعت المدينة المقاومة لمدة عشر سنوات (١) . ولما لم يرسل
 الأباطور أى قوات لإنقاذها سقطت سنة ١٣٢٦ م وعثمان على
 فراش الموت .

(١) استولى دك على برجي وسمرنا أيضا وأصبح أقوى أمراء في غرب الأناضول
 وأخذ ماروخان بك مغنيسيا في ١٣١٣ وقراسيا بك Balikesir
 Runciman. op. cit p32 —Camb. Hist of Islam vol. Ip 259
 Laien: The Provisiong of Constantinople p 111

التوسع العثماني في الجانف الأوروبى من بزنطة :

توفى السلطان وترك عدداً من الأبناء أكبرهم أورخان وكان وفقاً للأقاليد التركية يشاركه فى العرش أخاه علاء الدين ولكن علاء الدين تنازل عن حقه لأخيه أورخان الذى يعتبر عهده من الفترات الهامة فى تاريخ إمارة آل عثمان

وفى عهده استقرت الإمارة العثمانية فى آسيا الصغرى وامتدت سلطات السلطان فشملت غالبية إمارات الغزاة. وبعد ضم قرصيا أصبحت حدوده تمتد من Edrnea إلى كوزيكوس ووجد العثمانيون أنفسهم فى مواجهة الشاطئ الأوروبى .

فى نفس الوقت الذى قام أندرونيكوس الثالث بعزل جده ١٣٢٨^(١) وتولى عرش القسطنطينية ودخلت العلاقات البيزنطية التركية طورا جديدا فلهذا أنجحه العثمانيون للجانف الأوروبى خاصة فى عهد الإمبراطور كنتاكرزينوس Cantacuzenus . فى البداية حاصر أورخان نيقية سنة ١٣٢٩ وحاول أندرونيكوس الثالث وحنوازيه بذل آخر محاولة لصدىم فاعدا قوة تعداها ألفى رجل لرفع حصار المدينة ، ولكن باءت جهودهم بالفشل وسقطت المدينة فى أيدى العثمانيون بعد معركة Philarene ودخل أورخان المدينة فى مارس سنة ١٣٣١ . وفى الأسيرات التالية سقطت نيقوميديا . وفى سنة ١٣٣٧ لم يبق فى آسيا الصغرى إلا بضعة مدن متناثرة هنا أو هناك أفلاذلفيا وهرافليا على شاطئ البحر الأسود وأصبح من السهل عليه أن يحتل كل المناطق المؤدية للبحر، ويبسط سيطرته على شاطئ بيشنيا وزاد

سلطانته على حساب القبائل التركية المجاورة ثم انجبه في هجومه إلى الشاطئ الأوربي . (١) .

بينما كان العثمانيون يهاجمون الجزء الشمالي من البحر الإيحيى، كان أمراء السلاجقة في الإمارات الساحلية في آسيا الصغرى يهاجمون الجزء الجنوبي وكان هجومهم مركز على اللاتين حكام تلك الإمارات ، ولم يكن له تأثير كبير على بيرنطة التي تحتل أملاكها مناطق صغيرة في شواطئ تراقيا وآسيا الصغرى وفي هذه الظروف لم يكن غريبا أن يتفاهم السلاجقة والبيزنطيين فالسلاجقة كانوا أعداء للعثمانيين واللاتين على حد سواء كالبيزنطيين ، وكان أندرونيكوس ووزيره كاتاكوزينوس قد حاولا إعادته بسط نفوذ بيرنطة في البحر وبناء أسطول جديد . وفي سنة ١٣٤٩ خرجت البحرية الامبراطورية لمهاجمة الإمارة التي تملكها أسرة زكريا الجنوبية التي اعترفت في البداية بسيطرة البيزنطيين ثم عادت ونقضت إعرافها ولكن أغلب الجزر عادت مرة ثانية إلى الامبراطورية وظلت في حوزتها إلى سنة ١٣٤٦ . وبمساعدة السلاجقة أخضعت الإمارة الجنوبية في فوكيا التي مالبت أن اعترفت بسيادة بيرنطة كذلك أنقذت بيرنطة لسبوس من الخضوع للقوى الغربية .

وفي ١٥ يونيو سنة ١٣٤١ توفي أندرونيكوس الثالث (٢) ، وكان ابنه حنا التاسع لا يتجاوز التاسعة من عمره وكان وزيره حنا كنتاكوزينوس هو الحاكم الحقيقي خلال عهد والده وكان من الطبيعي أن يسمى لتولى العرش البيزنطي ولكنه وجه بمعارضة قوية زعمتها الإمبراطورة أنا سفوى والبطريك حنا كاليبكس ولكن المعارضة الفعلية جاءت من صديقه السابق

Ruicman : op. cit p 37 (1)

Hessey op. cit p 80

Ostro, or-ky op cit. p 453 (2)

الكسيوس الكوكوس وأعلن حنا كنتا كوزينوس نفسه امبراطورا
مشاركاً في ٢٦ أكتوبر ١٣٤١ م.

واعتمد حنا كنتا كوزينوس في ذلك على المساعدة العثمانية ولم يتردد
في إعطاء ابنة زوجته ثيودورا إلى السلطان وأرسل السلطان في مقابل ذلك
سنة آلاف مقاتل ليحاربوا في تراقيا. واقد لامة كثير من معاصريه
لدعوته، عمر واورخان وفتح الباب أمام العثمانيين في أوربا ولقد ساعدت
الحروب الأهلية العثمانيين على شق طريقهم في أوربا حيث تنافس البيزنطيون
على كسب دودهم، ففي نفس الوقت كان أفراد البيت الحاكم في القسطنطينية
قد بذلوا مساعى للحصول على مساعدات الأتراك ولكن مساعيهم لم
تحقق نجاحاً (١).

واقد توج كنتا كوزينوس في ٢١ مايو ١٣٤٦ إمبراطورا في إدرينوبل
وأصبحت الإمبراطورية آنا محدودة السلطات. ولقد نجحت الإمبراطورية
أخيراً في عقد تحالف في ١٣٤٦ م مع الأتراك السلاجقة وقدم ٦٠٠ سلجوقي
من إمارة صاروخان لمساعدتها وبدلاً من مهاجمة كنتا كوزينوس هاجموا
بلغاريا بل في طريق عودتهم نهبوا المنطقة حول القسطنطينية.

وفي عام ١٣٤٧ م فتحت أبواب القسطنطينية لكننتا كوزينوس وتوجه
البطريك وعاد الوفاق بين حنا كنتا كوزينوس والأتراك مرة ثانية
واتحاداً ضد الصرب (٢) ولكن الأتراك كانوا سلاحاً ذو حدين فبدأت
تستقر أعداداً كبيرة منهم في تراقيا. وعند وفاة أورخان ١٣٦٢ م أصبح
الأتراك سادة غرب تراقيا وأدى هذا إلى ازدياد العداء والكراهية في
القسطنطينية ضد كنتا كوزينوس وتجمع الناس حول الإمبراطور لترعى

حنا الخامس بن ميخائيل وكان كنتا كوزينوس قد منح إبنه مقاطعة أدر يانوبل في (١) سنة ١٣٥٢م ولكن استولى عليها حنا الخامس بواسطة دعم البندقية المالى وأستسلمت القسطنطينية للإمبراطور الشرعى وسارع كنتا كوزينوس لطلب مساعدة الترك وتعرضت المدن البيزنطية لإجتياح الفرق التركية واستعان حنا باليولوجس بالعرب والبلغار ولكن أورخان أرسل عشرة آلاف جندى لمساعدة حليفه تحت قيادة إبنه سليمان وانتصر كنتا كوزينوس بفضل مساعدة الترك وتراجع الجيش البلغارى حين علم بتقدم العثمانيين وهزم حنا الخامس وجنوده وأعلن كنتا كوزينوس نفسه إمبراطورا سنة ١٣٥٣م ولكن وضعه الفعلى كان أعلى من Despot وأقل من إمبراطور .

أما النتيجة الفعلية للصراع فهى استقرار الترك فى أوربا ابتداء من سنة ١٣٥٢م واستولوا على قلاع Tzymba قرب جاليبولى فى مارس ١٣٥٤ وبعد ذلك احتل سليمان بن أورخان جاليبولى نفسها ولم يكن هناك جدوى من استعطاف كنتا كوزينوس للسلطان أو مناشدته باسم الصداقة أن يحلوا عن الأراضى التى إستولى عليها ولم يكن فى استطاعته أيضا دفع مقابل للجلاء عن تلك المدن لحالة بيزنطة آنذاك (٢) ولم يكن هناك أمل فى تخلى العثمانيين عن الأراضى التى ستفتح أمامهم طريق تراقيا ، وبدأ الشعب فى القسطنطينية يشعر بخطر الترك الفعلى وحلوا كنتا كوزينوس مسئولة كل ما حل بهم وبدأ مركز كنتا كوزينوس يصبح غير مستقر ، وأخذ حنا

Camb. Hist. of Islam Vol Ip274 (١)

Ostrogor-ky : op. Cit. p 477 (٢)

Camb. Hist. of Islam Vol I p. 274

تذكر أنهم استولوا على Hexamilion

Hussey op. cit. p ٢٠

الخامس يتقرب من أعدائه السابقين وهم الجنوية فطلب معاونة أحد القراصنة الجنويين ويسمى فرانشيسكو ماتيوز وهو صاحب سبعينين ، ووعد حنا الخامس بمساعدته لاستعادة عرشه مقابل زواجه من اخيه مارييا ومنحه جزيرة اسبوس كهر . وبالفعل في نوفمبر ١٣٥٤ م اتخذ طريقه إلى القسطنطينية وانتصر على حنا كنتا كوزينوس وأجبره على دخول الدير باسم الراهب يوسف وظل به ثلاثين عاما حيث تفرغ لكتابة التاريخ ^(١) وتلى ذلك هزيمة ابنه ماتيوز على يد الصرب وقبض عليه وسلم لحنا الخامس واعتلى حنا العرش منفردا ^(٢) عام ١٣٥٧ م ولكن ظلت المورة في يد ابن كنتا كوزينوس مانويل .

العلاقة بين بيزنطة والبابوية :

سارت أحوال بيزنطة من سوء إلى أسوأ حتى أن ييلو السفير البندقي في القسطنطينية ذكر أنه أخبر الدوق داندلو ... دوق البندقية في أغسطس سنة ١٤٤٤ م ، أن بيزنطة يهددها الأتراك وأن جنوده مستعدة للخضوع لأي قوة سواء كانت قوة البندقية أو حكام الصرب أو ملك هنغاريا ، ^(٣) . وفي أبريل سنة ١٣٥٥ نصح السفير مارينو فاليريو الجمهورية بمساعدة الإمبراطورية فإن الوضع اليائس الذي أصبحت فيه الإمبراطورية يجعل من السهل سقوطها في يد الأتراك وأصبح السؤال الذي يثار الآن هل تستقط الإمبراطورية على يد الأتراك : أم القوى المسيحية ، وبعد وفاة دسان حاكم الصرب القوى لم تعد هناك أي قوة في البلقان يمكن أن تتصدى للترك وكان الأتراك قد استقروا نهائيا في تراقيا .

Greasy « Edwards » Hist. of the Ottoman p. 40 (١)

Runicman : op. cit, p80 (٢)

Runicman : op. cit p. 80 (٣)

Jorga: Latins et Grecs p 22

وكمحاولة لحماية بيزنطة من الخطر الذي يتهدها لجأ الإمبراطور إلى الوسيلة المعتادة وهي فتح باب المفاوضات الخاصة بالاتحاد مع كنيسة روما وهي الورقة التي لعب بها آل باليولوجس بمهارة ولكن كان هناك اختلاف بين الموقف في الماضي والموقف الآن فأنشاء حكم ميخائيل الثامن كانت الإمبراطورية مهددة بقوى غريبة وكان البابا يستطيع أن يمارس عليها ضغطا قويا أما حنا فكان يواجه أعداء لا يمكن الضغط عليهم إلا بقوة السلاح . فبعد فشل محادثات ليون التي تمت مع روما أهدمت فكرة الاتحاد لمدة أربعين عاما ، ولقد سبق أن اتجه أندرونيكوس الثاني أثناء الحرب الأهلية إلى نفس الخطوة وتكررت المحاولة في عهد الإمبراطورة آنا وفي الساعات الحرجة التي أحاطت بحكم كنتاكوزينوس ولكن بدون أى نتيجة محسوسة ومع ذلك سعى حنا الخامس للعمل على تحقيق هذا الاتحاد بإيحاء من أمه الكاثوليكية وفي ١٥ ديسمبر ١٣٥٥م أى في السنة التالية لتوليهِ العرش أرسل خطابا إلى أفنيون يوضح فيه نواياه الطيبة تجاه البابوية وطلب من البابا خمس سفن كبرى و ١٥ سفينة نقل وألف من المشاة وخمسمائة من الفرسان وتعهد في مقابل ذلك أن يجعل شعبه يهتدى إلى العقيدة الكاثوليكية في مدى لا يزيد عن ستة شهر وتعهد بتقديم العثمانيات اللازمة للبابوية التي تثبت استعداده لتنفيذ القرار وتعهد بإرسال ثمانى أبنائه مانويل وكان لا يتجاوز الخامسة أو السادسة ليتعلم في البلاط البابوي^(١) بل زيادة على ذلك تعهد بأنه إذا لم يستطع تنفيذ وعده أن يقنازل عن العرش لابنه مانويل تلميذ البابا^(٢) فإن كان ما يزال صغيرا هياّن العرش يؤول للبابا بوصفه أبيه بالتبني ، ومع ذلك فإن انسونت

Ostrogorsky : op. cit. p.473 (١).

Rubiegan : op. cit. p. 80 (٢).

السادس لم يأخذ هذه العروض مأخذ الجد . وعلى أى حال فإن إجابة البابا على حنا الخامس لم تحتوى على أى إشارة لعرضه بخصوص لابنه مانويل بل تجاهل ذلك ولكن أرسل رداً ودياً يشيد بمشاعر الإمبراطور مع رسله واضطر الامبراطور لإخبار البابا بأنه لن يستطيع إجبار شعبه على قبول الاتحاد ما لم يكن الرسل مصحوبين بقوات حربية وبحرية ، وإذا لم تكن هناك معاهدة فورية فإن شعبه لن يستجيب لتوجيهاته .

ولقد لقي هذا العرض معارضة شديدة في القسطنطينية^(١) وظهر حزب قوى معارض للاتحاد وكان يرأسه البطريرك كالمستوس فقد كانت البطريركة أكثر حرصاً على حقوقها من الإمبراطور ، وإذا كانت الامبراطورية بدأت تفقد معقلاً بعد الآخر فإن الكنيسة البيزنطية استعادت نفوذها السابق وخاصة في روسيا وبين شعوب البلقان وإن كان هناك حزب يؤيد الاتحاد ويمثله رجل البيان ديمتريوس^(٢) .

Runicman, op cit, p 80 (١)

Ostrogorsky, op cit, p 473 (٢)

Baynes op. cit, p, 44

الفصل الثامن

استقرار العثمانيين في البلقان

في هذه الفترة دخل العثمانيون مرحلة جديدة في تاريخهم فقد انتهت مرحلة الغزو الأولى باستقرارهم في أراضي بزنطة الآسيوية وسيطرتهم على إمارات الغزاة وبدأت مرحلة جديدة متمثلة في غزوم للجانب الأوربي من أراضي بزنطة وتوغلهم ثم استقرارهم في البلقان وإخضاعهم لإمارات الصرب والبلغار ثم تهديم الوجود والكيان البيزنطي متمثلاً في عاصمته القسطنطينية والفضل في هذا يرجع لاثنين من سلاطين العثمانيين وهما مراد الثاني وبازيد الأول .

ولقد اتجهت أنظار العثمانيين منذ عهد أوروخان إلى العاصمة القسطنطينية فظهرت القوات التركية على حدود القسطنطينية في عام ١٣٥٩ م ، ومع ذلك فإن الإمبراطورية المهرقة كانت مستعدة للمقاومة ولم يكن هناك آنذاك خطر مباشر يهددها فأسوار القسطنطينية ما زالت حصينة (١) .

ولكن تراقيا التي عانت من الحزوب سقطت مدينة بعد الأخرى وفي عام ١٣٦٧ م سقطت ديموتيكس ، وفي العام التالي أذربايونيل . وانتصرت السلطان أوروخان في الشاطئ الآسيوي والأوربي شجعت غيره من الأتراك على الانضمام إلى الغزاة والاستقرار في الأقاليم المفتوحة وعند وفاة أوروخان أصبح الأتراك مائة غرب تراقيا (٢) وسعى العثمانيون لتثبيت نفوذهم على بقية العناصر التركية لضمان وحدة قواتهم وعدم الدخول في صرعات جانبية فأخضع السلطان إمارتي صاروخان

Ostrogorsky : op, cit' p. 473 (١)

Baynes : op cit p. 44

Baynes op, cit, p 47 (٢)

وقراصيا في الشمال الغربي في نفس الوقت الذي ضممت فيه قوة كرميان واستطاع السلطان تثبيت حكمه في أقشهر وأقرة وكان العدو الوحيد الباقي له إمارة Aydene التي أغلقت أمامه باب التوسع في الجنوب الغربي أمام عن الأوضاع الداخلية للسلطنة وموقفه تجاه البلاد المفتوحة فإن أورخان كان قائداً عظيماً وإدارياً ممتازاً وساعده في ذلك وزيره علاء الدين فاهتم بنشر تعاليم الاسلام فاذا أخذت مدينة بالفتح لم يكن للمسيحيين أى حق تجاه السلطنة ، وخمس السكان كانوا يستجدون فيرسل الرجال للعمل في الأراضي المفتوحة والاولاد يعدون ليدخلوا في الجيش^(١) . أما إذا استسلموا يسمح لهم بالاحتفاظ بكنائسهم وشعائرهم وكانت الضرائب التي تفرض عليهم أقل ، والبعض اعتنق الاسلام لينضم للطبقة الحاكمة ، وقد كان من عادة العلماء إقامة مدرسة وجامع في كل مدينة مفتوحة . وفي سنة ٦٧٣ هـ — ١٣٦٢ م توفي أورخان .

مراد الثاني والهراع الداخلي في القسطنطينية :

حلف مراد أورخان وكان أخاه الأكبر سليمان قدامت قبل وفاة أورخان بشهور وأم مراد لإغريقية ابنة أحد الأكراتيين ، أما أخاه غير الشقيق إبراهيم فقد تخلص منه مراد بالقتل وهلال بن ثيودورا مات ميتة طبيعية وبذلك آمن ألا يتنازعه في العرش منافس . ولقد كان مراد قائداً ممتازاً وسياسياً ماهراً فاهتم بأمر البلقان ولم يوجه نشاطه للإغريق فقط بل ضد اسلاف في الجنوب أيضاً فقد كانت الأحوال في البلقان مضطربة بسبب المشاكل الاقتصادية^(٢) والهراع الداخلي فاستولى لالاشاهين على

Ostrogorsky . op cit . p. 4 73 (١)

Hearsey op. cit p. 223 (٢)

فليوبوليس ووطد مركزه هناك وأصبح ييلر اى (حاكم) وجعل السلطان مقره في Didymotichus وفي ١٣٦٥م تم التمسك بـ إدريانوبل^(١)، أما السلطان ففضل أول عهده بالشاطيء الآسيوى وبالقضاء على بعض الأمراء الذين أثاروا له المتاعب^(٢) وقد استغل البيزنطيون هذه الفرصة لاستعادة بعض ممتلكاتهم في تراقيا لكن حين عاد السلطان إلى المنطقة سنة ١٣٦٥م لم يجد صعوبة في استعادتها وأصبحت القسطنطينية وما جاورها معزولة فيما عدا المنطقة المجاورة للبحر ، كذلك جميع ضواحيها الآسيوية أصبحت في أيدي الترك ، ولقد شعرت البندقية وجنوه بالمخطر ولكنها لم تتخذ أى خطوة فعلية غير إبداء الرغبة في التحالف الذى لم يتحقق ، وسعت بلغاريا لإنفاذ نفسها عن طريق التسليم للفاحين وشعرت بضرورة أنها تقف في الميدان منفردة لعدم نجاح التحالف مع رومانيا نظرت حولها سعيًا لحليف فلم تجد غير الصرب فذهب البطريرك كالستيموس وقابل أرملقة مشان للتفاوض ، وفي نفس الوقت سعى للتحالف مع جنوه والبندقية ولم تجد المحادثات مع مدن إيطاليا البحرية. وفي خريف ١٣٦٥ تم إعداد حملة صليبية أعدها ملك قبرص ولكن كانت وجهتها مصر.

وفي ربيع ١٣٦٦ سافر الإمبراطور إلى المجر ليطالب المساعدة ، ولكن لم تجد توسلاته بل أغار المجرىون على بعض ممتلكاته ، وأثناء عودته منعه البلغار من العودة إلى القسطنطينية رغم أن ابنه أندرونيكوس كان متزوجاً أميرة بلغارية فإنه لم يفعل إلا أن شيئاً لإنفاذ آييه، ولكن تدخل كونت سافوى

Runicman : op. cit. - p. 39 (١)

Baynes : op. cit p 47 (٢)

Hussey : op. cit, p. 81

Gray : op. cit p 64

قريب الإمبراطور^(١) وظهر على رأس جيش صليبي في المياه البيزنطية واستطاع استعادة جاليبولي من الترك ثم أجبر اللغار عن الإفراج عن الإمبراطور وإعادة سيمبريا وسوتربوس وبذلك عاد لبيزنطة وجودها في الشاطئ الشرقي في البحر الأسود .

وكان حاكم سافوى يرى أن حملته جزء من مخطط صليبي يهدف للاتحاد مع كنيسة روما والقيام بعمل مشترك ونصح حنا الخامس بالتوجه لروما للتحالف مع البابوية ولكن قبول هذا الإجراء بمعارضة كبيرة في القسطنطينية . ورغم ذلك فقد سافر الإمبراطور ١٣٦٩م ووصل إلى روما عن طريق نابولي وكان يصحبه عدد من الأشراف ولم يكن معه أى ممثل ديني فقد عقد رجال الدين في القسطنطينية مجمع ديني أعلنوا فيه الاختلاف بين الكنيستين ورفضوا أن يصحبوه أو يشتركوا معه في المفاوضات بل أرسل البطريرك ييلوسيموس الذى تولى بعد كالستوس دعاه لنشر المذهب الأرثوذكسى خارج نطاق بيزنطة في سوريا ومصر ، وفي الجنوب بين السلاف في آسيا^(٢) والمحادثات التى أجراها الإمبراطور ١٣٦٩ اعتبرت كإجراء شخصى ولم تأتى بنتيجة تذكر^(٣).

ولم يحدث اتحاد فعلى بين الكنيستين ولم يتلقى الإمبراطور أى مساعدة من الصرب ولكن أثناء عودة الإمبراطور حدث له أمر يوضح مدى ما آل إليه أمر بيزنطة من انحدار ، فقد اتخذ حنا الخامس طريق البحر وكان على الإمبراطور دين لقومون البندقية فقضوا على الإمبراطور بوصفه دائنة

Baynes : op. cit p. 47 (1)

Camb - Hist. of Islam. Vol. I. p. 276

Hearsey : op cit, p. 224. (2)

Ostrogorsky . op, cit, p. 479 (3)

مفلسا للمرة الثانية فإن ابنه أندرونيكوس الذى كان ينوب عنه فى القسطنطينية رفض اتخاذ أى إجراء لإنقاذ والده ولكن الذى سارع لإنقاذه مانويل ابنه الأصغر الذى كان يحكم سالونيكاً. وأفرج عن والده بعد أن دفع المال وعاد الإمبراطور فى أكتوبر سنة ١٢٧١ بعد عامين من الأسر (١).

ورغم أن حنا الخامس فشل فى الحصول على مساعدة من الغرب فإن بيزنطة استطاعت استعادة بعض أراضيها عفوا بسبب انتصار الأتراك على الصرب. فالصرب الذين كانوا القوة الرئيسية فى شبه جزيرة الأناضول انقسموا قسمين بعد موت دوسان فى ١٢٥٥ وكانت بلغاريا تخضع لهم بعد هزيمتها فى فليزاد فى ١٢٣٠. وكان من الطبيعى أن يصطدموا بالعثمانيين فبعد أن أقام العثمانيون فى تراقيا أصبحت مقدونيا الصربية أم ولاية معرضة لخطر الترك، فقام الملك Vukosin أقوى حكام الصرب وأخيه حنا وأجلوز الذى كان يحكم الجنوب الشرقى من مقدونيا بالتصدى للعثمانيين بجيش قوى، ولكن لقوا هزيمة على يد العثمانيين فى معركة فاصلة فى *Gernomon* ١٢٧٣ م وهذه النصر جعل أكبر جزء فى بلغاريا وهى مقدونيا الصربية يخضع للعثمانيين، واعترف حكام الصرب بسلطان الأتراك وكان هذا بداية اجتياح الأراضي الجنوبية التى يسيطر عليها السلاف واستغل مانويل ابن الإمبراطور الوضع واستطاع الاستيلاء على بعض أراضي أوجليز ودخل سيواس فى نوفمبر ١٢٧٢. ولقد اضطر مانويل وحكام بيزنطة المتأخرين لحاجتهم إلى دعم مادى لتجريد الأديرة من نصف ممتلكاتها إلى أن تتحسن الظروف، ولكن الأراضي رجعت فيما بعد إلى أيدى الأديرة فى مقابل ضرائب باهظة.

(١) Ostrogorsky : op. cit, p. 481

Camb. Med. Hist. Vol 4 p. 691

Halecki, un Empereur p62

وبعد عشرون عاما من أول وجوه الترك في أوروبا اعترفت كل من
 بيزنطة والبلغار بالسيادة لهم ، وفي ربيع سنة ١٢٧٣ اعترف حنا الخامس
 بسيطرة الترك ودفع جزية سنوية وضريبة وبدأ يمارس واجباته كتابع
 فصاحب السلطان في حملته على آسيا الصغرى وأرسل ابنه مانويل لتقديم
 فروض الولاء في بلاد مراد . ولقد استغل ابنه أندرونيكوس هذه الفرصة
 في غياب أبيه وأخيه وقام بالثورة ضده واتصل بقوات الأمير العثماني
 Sandrie الذي كان قد ثار على أبيه مراد أيضاً . فقام مراد بإخماد الثورة
 وسمل عيني ابنه وأمر حنا بتنفيذ نفس العقوبة على ابنه ، ولكن سوت
 الأمير العثماني أنقذ أندرونيكوس من نفس المصير فخففت العقوبة ولكن
 حرم من حق وراثته العرش ونقل إلى أخاه مانويل (١) .

وفي تلك الفترة نشب صراع بين جنوه والبندقية على Tendes التي
 تعتبر مدخل الدردنيل وكانت كلا الجمهوريتين تسعى للحصول عليها ووعد
 حنا البندقية بها ، وقررت جنوه التدخل لتغيير حكام القسطنطينية لمنع
 أي فائدة أو امتياز تحصل عليه البندقية فسعت لتهديب أندرونيكوس من
 سجنه وقد اتجه بمد هروبه إلى غلطة وأمدته جنوه بجيش لمحاربة حنا الخامس
 والبندقية . وفي ١٢ أغسطس شق أندرونيكوس طريقه إلى القسطنطينية بعد
 حصار دام اثنان وثلاثون يوما وقبض على أخيه وأبيه وسجنهما وقرر
 أن يمنح جنوه Tonedes ولكن سارع البنادقة بالاستيلاء عليها وكان
 أهلها يؤيدون حنا ، وسعى أندرونيكوس إلى استمالة الأتراك باعظائهم
 جاليلولي التي كان أمير سافوى قد استولى عليها من قبل ، ولكن بمعاونة

Ostrog orsky : op. cit, p. 473. (١)

Baynes : op. cit, p. 47

Camb. Hist. of Islam Vol. I, p. 275

Gillard. op cit p 25

لبنديقية استطاع حنا الخامس وابنه مانويل استعادة العرش بعد أن ظل أندرونيكوس من ١٣٧٦ - ١٣٧٩ مسيطراً على الأمور .

تلك الصراعات الداخلية كانت لها دلالات خاصة أهمها أن أحكام بزنطة أصبحوا مجرد أداة في أيدي مدن إيطاليا البحرية وفي أيدي الأتراك فقد زاد اعتماد حنا وابنه مانويل عليهم وبدءوا عهدهم في سنة ١٣٧٩ بدفع الجزية للأتراك وتقديم الخدمة الحربية ومصاحبة الجيش التركي في فتوحه كاتباع^(١) . بل قد اضطر حنا للاعتراف بابنه أندرونيكوس الرابع الذي ثار عليه ولابنه حنا السابع كورثة شرعيين بناء على رغبة السلطان وأن يمنحهم رdstوس وسلبيريا وهراقليا وبانديوس . وأصبحت الإمبراطورية مقسمة كما يلي الإمبراطور حنا الخامس في القسطنطينية وأندرونيكوس الرابع في سلبيريا معتمداً على تأييد العثمانيين وكان في حوزته أيضاً حكم المدن على بحر مرمره ومانويل يحكم سالونيكاً وثيودور الأول الإبن الثالث للإمبراطور يحكم مستريا ، وكان ثيودور الوحيد في آل البيلولوجس الذي سعى لاستعادة أملاك بزنطة في البليونيز من آل كمننا كوزين . فثيودور الأول ١٣٨٢ - ١٤٠٦ بعد اعتراجه بسلطان الأتراك كان من حقه التمتع بالدعم ضد أعدائه في الداخل والخارج ضد الاستقراطية المحلية في الداخل واللاتين في الخارج . وبذلك استطاع تثبيت نفوذ بزنطة في المورة^(٢) ، ووطن في تلك المناطق الألبان وأصبحت المورة أهم مركز بزنطى ، بل في وضع أفضل من العاصمة .

وحاول أندرونيكوس القيام بثورة جديدة ، ولكن أنقذت وغاته سنة

Baynes , op. cit. p. 47 (١)

Ostrogorsky , op. c t. p. 486 (٢)

Camb. Hist of Islam Vol: I. p. 276,

١٣٨٥ البلاد من الاضطراب وعاد مانويل الوريث الشرعى ثانياً . ولكن لم تستقر الأمور في بيزنطة فقد استولى العثمانيون على فلادلفيا آخر إمارة بيزنطية في آسيا ، وهى جزء من إمارة طرايزون وقد أثار هذا الحدث الغرب وتعلات أصوات بحملة صليبية ، ولكن لم تخرج إلى حيز التنفيذ القوة الوحيدة التى واجهت العثمانيين هم الاسبتار فى رودس ولكن كان عدوهم الأساسى أمير Aydien العثمانى .

معركة كوسفو :

انتقل بعد ذلك مراد إلى ميدان البلقان ثانية وكان الصرب قد تم الإطاحة بهم وهزيمتهم وأصبح أكبر جزء من بلغاريا ومقدونيا الصربية فى أيدى مراد وكذلك اعترف ملك البلغار شيشمن بمراد كسيد أعلى له ، وأرسل ابنته سمارة كزوجة فى حريم السلطان ، ولكن طراً على الموقف تغير بسبب تغير القيادة فى الصرب والحاكم الذى خلف داسان فى مملكة الصرب الشمالية لاذار استطاع توحيد المملكة عن طريق الزواج والتحالف ضد الترك (١) . ولقد عادت علاقهم طيبة بيزنطة بعد رفع قرار الحظر ضد كنيستها ، ولقد تحالف لذار مع Tvrtko حاكم البوسنا ، ونتيجة لذلك تقدم الأتراك فاستولوا على سيرا سنة ١٣٨٣ وصوفيا سنة ١٣٨٥ ونيس سنة ١٣٨٦ وسالونيك فى سنة ١٣٨٧ بعد حصار طويل ، ولكن القوة التركية التى اجتاحت بوسنيا فى سنة ١٣٨٨ هزمت . فى حين قرر مراد أن يتجه لمناطق السلاف الجنوبية (٢) ، وأول ماواجههم

Hussey, op. cit p. 81. (١)

Ruicman , op. cit. p: 84,

(٢) الغزو التركى أخذ ثلاثة طرق رئيسية فى البلقان فى الوسط اتخذوا طريق وادى Maritza ووصلوا لأسفل نلال البلقان ومنها إلى صوفيا ونيس ، وفى الجانب الأيمن الطريق إلى وادى Tundya وفى اليسار طريق سيرا .

أمير البلغار الذي كان يعينه لآذار ويحرضه ضد الأتراك وقد رفض تقديم الخدمة الحربية واندفع العثمانيون في بلغاريا الشرقية في سنة ١٣٨٨ . فأخذوا أولاً ترنوفو وعدة قلاع على الدانوب ، وأجبر البلغار على الخضوع وحاصروا سلسترا ، وبعد ذلك تحولوا إلى الصرب وتقابل لآذار والصرب والبوسنيون مع مراد في سهل كوسفو في المعركة التي قررت مصير البلقان في يونيو ١٣٨٩ وكان الحظ في البداية مع الصرب فقد استطاع أحد الصرب الدخول إلى خيمة السلطان بدعوى أنه يرض عليه بعض الطلبات الخاصة بالمسيحيين ثم طعنه بمدة ، ولم يغير قتله من الموقف كثيراً فولداه كانا مع الجيش وابنه الأكبر يازيد تولى القيادة فوراً . وأخفى خبر وفاة أبيه إلى نهاية المعركة ، ولكن تسربت أنباء وفاته للجيش فسارع الجناح الشمالى للأتراك بالفرار ووصلت أنباء تلك الانتصارات للملك Tvrtko ملك بوسنا . ولكن تحت قيادة السلطان الجديد بايزيد انتصر العثمانيون وأخذ لآذار أسيراً وقتل مع نبلائه في نفس الخيمة التي قتل فيها مراد ، وخضع حلفاؤه للفاحين ووعدوا بدفع جزية وتقديم الخدمة الحربية وبذلك انتشر الترك في البلقان (١) .

حصار القسطنطينية الأولى

بايزيد وحصار القسطنطينية الأولى :

تولى بايزيد عرش الدولة العثمانية خلفاً لمراد . وأم بايزيد جارية أغريقية ، ولقد اشتهر بحدة الطبع والقسوة واتسمت تصرفاته بالاندفاع وكان يطلق عليه بالدرهم أى صاعقة الرعد ، وبدأ عهده بداية لامعة

فنهض كوسفو جده سيد البقار وتبع ذلك اجتياحه لمساحات أخرى . أما الحرب فقد نجح ابن لذار في أن يلى عرش الحرب ولكن حمل لقب Despot فقط وكتابع للسلطان الذى تزوج أخت زوجته ماريا ، ولم يكن أمر ملكة البلغار في ترنوفو أفضل حالاً فى سنة ١٣٩٣ قضى عليها بايزيد ، وتقدم جيشه في الميونيز سنة ١٣٩٤ هـ وأجبر أمراء المنطقة على الخضوع له .

أما بالنسبة للقسطنطينية فقد زاد نفوذ السلطان وتدخل في أمورها الداخلية وأعان بايزيد حنا السابع بن أندرونيكوس على أن يغتصب العرش في ١٢ أبريل سنة ١٣٩٠ ووجد المعتصب حليفاً في جنوة ، ولكن جنوة والبندقية لم يعودا في وضع يسمح لهما بلمس نفس الدور القيادي الذى كان لهما أيام ثورة أندرونيكوس الرابع فالصراع على تيندوس أضغها وأصبح تأثيرها غير ذى موضوع ، ولذلك أصبح السلطان التركى هو القوة الحقيقية القادرة على التدخل (١) .

ولكن حنا السابع لم يستمر طويلاً كحاكم فقد استطاع مانويل الحرب إلى ليونيز ، وبعد محاولتين غير ناجحتين ، استطاع في سبتمبر سنة ١٣٩٠ طرد عدوه واستعادة عرش أبيه وعاد حنا إلى عرشه ولكن بلا سلطات فعلية ، فالسلطة الحقيقية في يد الأتراك وأصبحت سيطرة الأتراك أمراً معترفاً به . وأجبر مانويل على أن يصبح الإمبراطور في جميع غزواته لا تلك التى تهاجم أراضي سلجوقية فقط (٢) . بل أجبر على الاشتراك

(١) Baynes : op cit. p 81

Charanie, Palaco'egland Ottoman p304

(٢) أخضع بايزيد جميع إمارات الفزاة في غرب الأناضول كابدين وسارومان ومنتشا وبقانايت حيد وأجر أمير كرمان ٧٥٣ - ١٣٩١ على طلب الصلح ، والإشارة الوحيدة الى صمدت هى التى تنسح برهان الدين حاكم سيواس .

في محاصرة فلادلفيا آخر معقل البيزنطى في آسيا .
ولكن بايزيد تمادى في استخفافه بالبيزنطيين بأمر الإمبراطور حنا
بهدم التحصينات التى أقامها حول القسطنطينية للدفاع عنها ضد أى خطر
ولكن حنا رفض الاستجابة لهذا الأمر وأنفذه الموت من هذا الموقف
الحرج إذ توفى في ١٦ فبراير سنة ١٣٩١ بعد حياة من المهانة (١) .
وكان ابنه مانويل في بروسيا فسارع إلى القسطنطينية لتأمين عرشه خوفاً
من قريبه الطموح حنا السابع .

ومانويل يعتبر أحد معالم التاريخ البيزنطى الإنسانية الأخيرة ورغم أنه
حكم بيزنطة في فترة من أسوأ فترات تاريخها ورغم وضعه كتابع الأتراك
فإنه حظى باحترام الجميع حتى الأتراك فقال عنه السلطان بايزيد أن أى
شخص لا يعلم حقيقة أنه إمبراطور فإنه يستطيع استنتاج هذا من
مظهره (٢) ، وكان واضحاً أن أيام الإمبراطورية معدومة فلم يعد لبيزنطة
في المورة إلا عاصمتها ولم يكن بايزيد بالحاكم الذى يقنع بالسيطرة الاسمية
بل سعى إلى الاستيلاء على العاصمة الإمبراطورية ذاتها وضمها إلى الأراضى
العثمانية ، وأعلن ذلك صراحة في مقابلة مع أتباعه السلاف والبيزنطيين
في بروسيا ١٣٩٣ - ١٣٩٤ واعتبر بايزيد القسطنطينية مدينة محاصرة .
ولكن قبل القيام بالحصار الفعلى قام بايزيد بإخضاع كل القرى الموجودة
في البلقان حتى لا تمد إحداهما يد المساعدة الفعلية للقسطنطينية . وكانت
أحوال الإمبراطورية قد ساءت نتيجة نقص الإمدادات فيها وخاصة
بعد اجتياح الترك للبورة .

(١) Ostrogorsky, op cit, p. 87

Dogler, johannes VII p28

Ostrogorsky, op cit, p. 487 (٢)

Grousset. L'empire de steppes p 486

Camb Med Hist, Vol. 4. p. 692

Barant op. cit 304

وفي عام ١٣٩٤ استولى القائد التركي أفرينوز بك على تساليا ثم اتجه
العثمانيون إلى بعض بلاد الإغريق التي كانت تسيطر عليها نافارا في ١٣٧٩
فغزوها ثم اتجهوا إلى أنيكيا وكان يسيطر عليها دوق أثينا نيرود (١٣٨٨ -
١٣٩٤) وهو أصلاً من عائلة تشتغل بالتجارة في فلورنسا ، وكانت
هناك صداقة وصلة مصاهرة بينه وبين ثيودور باليولوجس وكان كلاهما على
خلاف مع البندقية ولكن ما لبث أن توفي نيرود وخلفه كاولوتوكو الذي
استنجد بالعثمانيين فسانده جيش أفرينوز بك وانضمت إليهم نافارا التي كانت
على عداوة مع حاكم ميسترا البيزنطي وهزموا ثيودور عند أسوار كورنثة
واستولى العثمانيون على Akova-Leontarion وانتشرت الفتوح العثمانية في شمال
البلقان ، وكانت بلغاريا قد خضعت في ١٣٩٣ للعثمانيين واستمروا في
سيطرتهم عليها خمسمائة عام . وكذلك استولوا على Dobrudgia ، والانتصار
العثماني الأخير له نتائج هامة فعنى احتلال بلغاريا أن المجر وإمارات اللاتين
في بلاد الإغريق أصبحت مهددة فاستنجد سيجموند ملك المجر بالغرب
واقبلت دعوته استجابة وانضم إلى حاكم المجر عدد من الفرسان من الدول
الأوروبية خاصة من فرنسا وبعد تردد اشتركت البندقية وأعدت أسطولاً
صغيراً في الدردنيل لتفتيش المضيق ولجعل خط الإمدادات متصلاً مع
القوات الموجودة في المجر ، ولكن تلك الجيوش هزمت في معركة
نيقوبوليس في ٢٥ سبتمبر ١٣٩٤ بسبب الجفاء بين الفرنسيين والمجر ، وهرب
سيجموند ، وبهزيمة أصبح الوضع في البلقان أكثر سوءاً وأصبح
الطريق مهدداً أمام الترك^(٢) . وكانت إمارات فيدن البلغارية قد استطاعت
النجاة من أبدي العثمانيين سنة ١٣٩٣ فاستولوا عليها هذه المرة سنة ١٣٩٧

(١) Camb. Hist. of Islam Vol 1 p. 285

Setton, Catalan Domination of Athens p. 25

Rosetti, The Battle of Nicopolis p. 69 (٢)

ثم احتلوا أثينا وعبروا أمسيوس واجتاحوا أرجوس واتهموا على قوات بيزنطة هناك. ثم اجتاحوا شاطئ الجنوب وكان ذلك إيذاناً بأذن القسطنطينية قد جاء دورها بعد القضاء على كل العناصر المناوئة أو التي باستطاعتها أن تمد يد المساعدة للقسطنطينية وكانت المدينة تمر بفترة ضعف في السنوات العشر الأخيرة.

إلى جانب أن بيزنطة فقدت كثيراً من تأثيرها وهيبتها بعد معركة نيقربوليس ولقد طلب مانويل الثاني المساعدة من روسيا ومن دوق البندقية وملك فرنسا وإنجلترا ، في نفس الوقت الذي كان حنا السابع منافسه يتفاوض في فرنسا لبيع حقه في العرش لملك فرنسا مقابل فصر هناك ودخل مائتان وخمسين ألف فلورين ولكن شارل ملك فرنسا لم ينظر لهذا العرض باعتبارها محاولة جديدة ، ولكنه استجاب لطلب مانويل وأرسل فرقة من ألف ومائتان رجل تحت قيادة المارشال Boucicaut الذي سعى لشق طريقه إلى القسطنطينية ولكن كان واضحاً أن القوة صغيرة. ولن تستطيع انقاذ القسطنطينية^(١). وقرر الإمبراطور الذهاب إلى الغرب لطلب المساعدة وتدخل بوكيكر للصالح بين الإمبراطورين البيزنطيين المتنازعين حنا السابع ومانويل ، وتقرر أن يحكم حنا السابع كإمبراطور في القسطنطينية في غياب مانويل ومع ذلك فإن مانويل لم يكن يأمن له فأرسل أسرته عند أخيه في المورة ، وذهب في رحلة لطلب المساعدة من الغرب فزار البندقية وعدداً من المدن الإيطالية ثم ذهب إلى باريس ومنها إلى لندن وكان ظهوره في ذلك الوضع له تأثير كبير في نفوس عدد من مفكرى الغرب الذي عبر أحدهم عنه بقوله ، إنها كانت أميرة على الأمم وملكة على العالم ثم استعبدت ،^(٢) ولم تحقق الرحلة نتائج إيجابية إلا بعض الوعود

Ostrogorsky ; op cit. p. 493 (١)

(٢) يقصد ما آل إليه حال بيزنطة وما كانت عليه سابقاً

التي لم تتحقق، فرحل الإمبراطور إلى باريس ثانية وأقام عامين إلى أن وصلته
أخبار هزيمة السلطان على يد المغول .

ففي ربيع ١٤٠٢ أرسل بايزيد رسالة إلى الإمبراطور يطلب منه تسليم
المدينة واتبعها بالاستيلاء على الشاطئ الآسيوي وعلى شريط ضيق من
البحر (١) ولقد رد الإمبراطور حنا السابع على رسالة السلطان برسالة
يقول فيها : قل لسيدك أننا ضعفاء ولكن نؤمن بالله الذي سيجعلنا أقوياء
ومن الممكن أن يسقطهم من عروشهم واجعل سيدك يفعل ما يريد ، (٢) .

العثمانيون والمغول : معركة أنقرة :

ولكن أنقذ بيزنطة ظهور قوة جديدة على مسرح الأحداث وتمثل
في التتار وقائد تيمورلنك وهو تركي الأصل من فرع جنكيزخان ويعتبر
أهم حاكم مغولي منذ عهد جنكيزخان (٣) ، ولقد ولد في تركستان ١٢٣٦
وكون إمبراطورية تمتد حدودها من الصين والبنغال إلى شواطئ البحر
المتوسط ولكنه كان يفتقد المهارة والمقدرة لتنظيم الفتوح ورغم أنه فاق
جنكيزخان في المقدرة الحربية والوحشية . وكان يكره أن تكون هناك
قوة تركية أقوى منه أو منافسة له ولخوفه على إماراته الغريبة اتجه
إلى العثمانيين .

وفي سنة ١٣٦٨ تقدم في شرق أناتوليا وهزم جيشاً لأمرأه الأناطوليك
في أرونجان ولكنه تراجع وإن كان قد هدد بالعودة ثانية ، وفي سنة ١٣٨٣

Hearsey, op. cit, 232 (١)

Grousset : op. cit p48 Ostrogorsky ; op' cit, p. 498 (٢)

(٣) ابن حجر : أنباء الفرج ١ ص ٢٨٠ .

ظهر تيمور مرة ثانية في سيواس^(١) وأجرى مذبحة هناك وقتل ابن بايزيد الذى كان يحكم الولاية ولكن أنقذ العثمانيين اتجهوا التتار إلى حلب ودمشق وظن السلطان أن المشكلة انتهت ولكن الحقيقة أن تيمور كان ينوى العوده ثانية^(٢). فأنشأ حصار بايزيد للقسطنطينية وصَلَّت رسالة من تيمور بأمره بإعادة جميع أراضى بيزنطة التى سبق له الاستيلاء عليها ورفع الحصار ونقل جيشه إلى أناتوليا ، ثم وصل تيمور لجأة إلى سيواس وحدثت المعركة الفاصلة فى أنقرة ٢٥ يوليو ١٤٠٢ وتسبب جهل بايزيد فى وضع نفسه فى مركز سيء من الناحية التكتيكية ، وكان جنوده لا يميلون إليه بسبب شحه وبخله وسقط بايزيد وابنه فى الأسر وهرب معظم الجيش التركى وترك لمصيره ، وكان الجيش الوحيد الذى ثبت فى المعركة هو جيش الصرب الذى قاده ستيفن لادار وأمكنه إنقاذ ابن بايزيد الأكبر سليمان. أما أخوه مصطفى فاختنى فى المعركة ولم يعرف مصيره . وفلول الجيش التركى الذين بقوا على قيد الحياة ذهبوا إلى أندلوهيسار ، وتقدم تيمور خلال غرب أناتوليا بجناحها مدنها وخاصة بروسا العاصمة القديمة للعثمانيين .

ولقد عامل تيمور بايزيد بوحشية وقسوة إذ وضعه فى قفص من الذهب وحمله معه ، ولقد انتحر بايزيد فى الأسر فى مارس ١٤٠٣ . وترك تيمور أناتوليا ورجع إلى عاصمته سمرقند حيث مات عام ١٤٠٥ فى الوقت الذى كان يعد للعدو افتتح الصين^(٣) ، ورغم أن تدخله فى آسيا كان لفترة قصيرة فإن نتائجه

(١) يذكر ابن إياس ج ١ ص ٢٢٦ أن جاليس تمزلك قد وصل إلى سيواس وأن ابن تيمور تمزلك فى الجاليس معه عسكر عظيمة . وأن ابن عثمان والغان أحمد بن أويس وقرا يوسف توجهوا إلى مدينة برسا ومزكو بلادهم من خوفهم من تمزلك .

Runicman. op. cit. p. 55 (٢)

(٣) كان هدف بايزيد إقامة إمبراطورية قوية لها إدارة منظمة فأقام أسطول فى جاليبول وسيطر على Hellespont ونجدى التدقيق فى البحر ، وكان يريد الاستيلاء على القسطنطينية جعلها عاصمة لملكه .

كانت هامة فقد حطم قوة العثمانيون وأكد وجود بيزنطة وحماها من الانهيار لمدة نصف قرن^(١)، ورغم وجود ارتباك حقيقي في شئون العثمانيين فلم تستغل بيزنطة إذ أسست في حالة من الضعف لا تجعلها قادرة حتى على استغلال فترة السلام في إعادة بناء نفسها إلى جانب أن هناك مئات الآلاف من الأتراك مازالوا في أوروبا، وكانت من الصعب طردهم، وأغرب ما في الأمر أن الفتح التيموري أضاف لقوتهم في أوروبا لأن العائلات التركية هربت قبل وصول جيوش تيمور إلى المناطق الأوروبية وقد استفادت جنوه من تقديم الخدمات لهم وجنت ربحاً وفيراً، ولقد ذكر المؤرخ دو كاس أنه كان في أوروبا أتراك أكثر مما كان في الأناضول^(٢).

بيزنطة عقب معركة أنقرة :

تغير مقياس القوى في الشرق جعل بيزنطة تنعم بفترة راحة وخاصة لنشوب الصراع بين أبناء بايزيد فأكبر أبناء بايزيد سليمان الذي كان على الجزء الأوروبي دخل في صراع مع أخيه حاكم آسيا الصغرى، ولقد انضم مانويل إلى جانب سليمان في صراعه وقد وعده سليمان بمنحه سالونيكاً وعدة مدن في آسيا بعضها لم يكن يسيطر عليها سيطرة فعلية وأرسل أخاه الأصغر فاسم كرهينة إلى القسطنطينية وفي المقابل أعطيت له كروية قريبة الإمبراطور ابنة تيودور حاكم المورة . ولقد تحررت بيزنطة من دفع الجزية للترك . كذلك عقد سليمان اتفاقية في ١٤٠٣ مع حاكم الصرب

Camb, Hist, of, Islam Vol. I, p. 279 (1)

Hus ey ; op. cit. p. 82 (2)

Runicman, op. cit. p. 45

(٣) كانت المملكة العثمانية مقسمة كالي: سليمان في أردنة، محمد في أماسيا، وعيسى في بروسيا، ولقد غلبت أملاك العثمانيون إلى ما كانت عليه أيام مراد الإبن، وأصبحت أردنة عاصمة الدولة الأكثر أهمية

ستيفان Iazarevi والمدن البحرية البندقية وجترة ورودس . ولكن في ١٤١٩ هزم سليمان على يد أخيه موسى وقتل أثناء محاولته الهرب للقسطنطينية ، وبدأ موسى الانتقام من حلفاء سليمان وحاصر القسطنطينية وهاجم الصرب التي دعمت أخاه واستعاد سالونيك التي كان يتولى حمايتها أورخان الذي قبض عليه وسمل عيناه

ولكن الأخ الأصغر محمد الذي كان يسيطر على الأمور في الأماضول ثار على أخيه وانضم إليه مانويل وقائد الصرب ستيفان Iazarevi والحكام الأتراك الذين كرهوا وحشية موسى . فهزم محمد الأول أخاه وذبحه في ١٤١٣ ، وتوج سلطانا ولقبه Chelbi أي (السيد المذهب) ، وكان جندياً ممتازاً وفي نفس الوقت كان رجل سلام وكرس وقته وجهده لتثبيت حكمه ومد نفوذه في آسيا الصغرى ، وأبدى تفهما لموقف بيزنطة وظلت العلاقة طيبة بين الطرفين ، وأعاد السلطان المدن التي استولى عليها موسى لمانويل وأمنها سالونيك^(١) . وثيقة مانويل من صداقة السلطان أصبح من الممكن له أن يقضى ربيع سنة ١٤١٥ في البلويز ولقد أقام الإمبراطور سوراً طويلاً قوياً عبر Isthmus في كورنثه أطلق عليه Mexmillion وزيارة مانويل للبلويز كان لها تأثير كبير في شئون القطار الداخلية فظهره كبح جماح الأمراء المحليين وأكد سلطة الدولة ، واستطاع حنا بن الإمبراطور مانويل وأخوه تيودور الثاني قيادة حملة ناجحة ضد اللاتين في أخيا وفقد ستوديون زكريا معظم أراضيه وتدخل البندقية فقط هو الذي منع سقوطها في أيدي البيزنطيين . واضطر الدوق إلى الدخول في حرب مع جنوه سنة ١٤١٦ ومع الجمر في سنة ١٤١٩ . أما محمد فأخضع الثورة التي قام بها أخوه مصطفى ، ولكنه توفي في ١٤٢١ . وخلفه ابنه مراد

Ostrogorsky, op. cit. p. 496 (1)

Blanchet. Les dernières monnaies d'or. empereurs byzantins pl4

(١٤٢١ - ١٤٥١) ويتولى انتهت فترة السلم التي نعت بها بيزنطة مع العثمانيين ^(١) .

حصار القسطنطينية الثاني :

انبع السلطان الجديد السياسة التوسعية لبايزيد والوضع كان أشبه بالوضع قبل معركة أنقرة وإن كانت بيزنطة قد تسببت في انتحاجه هذا الموقف منها .

في البداية سعى مراد الثاني لأن يستمد الدعم من القسطنطينية فأرسل لمانويل يذكره بصداقته لوالده ويطلب تأييده . ولقد رحب مانويل بذلك ؛ ولكنه كان قد تقدم في العمر وكان يتحكم فيه ابنه حنا الثامن الذي توج كإمبراطور مشارك ١٤٢١ : ^(٢) ويدعم من سناتوا البندقية رأى البيزنطيون أنه من الممكن أن يستفيدوا من الخلافات في الدولة العثمانية ^(٣) فطلبوا من السلطان اثنين من إخوانه كرهينة غواقي ولكن البيزنطيين نكثوا عهدهم وانضموا إلى جانب المدعى مصطفى مقابل وعود في حالة نجاحه ، ولكن محاولته انتهت بالفشل . ونتيجة لذلك حاصر السلطان القسطنطينية في ٨ يونيو ١٤٢٢ ^(٤) ولم يتخذ القسطنطينية إلا دفاعها الحصين ولم يكن لدى مراد آلات حصار كافية ، وفي نفس الوقت الذي نار عليه أخ آخر له فترك أمر حصار القسطنطينية بلا حسم إلى الوقت المناسب ورغم أن

(١) Ostrogorsky : op. cit. p. 499

(٢) Runciman : op. cit. p. 4 - 5

(٣) كان محمد الأول قد انصرف إلى الاهتمام بالأموال الداخلية فنبذ تقاليد الفزاة وأقام دولة على أساس النظام الإسلامي في الحكم واعتبد على غلمان الأرقاء الذين بلغ تعدادهم سبع آلاف في إدارة الولايات .

Camb.Hist. of Islam vol . I , p. 280

(٤) جيون : اسمعلا الإمبراطورية الرومانية ج ٣ ص ٢٧٢ .

سقوط بزنطة الفعلي حدث بعد ثلاثين عاماً فإن هذا يعتبر بداية النهاية .
وفي ربيع ١٤٢٣ اندفع الأتراك في جنوب بلاد الإغريق ، وحطموا
السور الذي بناه الإمبراطور في كورنث وفتح الحكام الإمبراطوريون
في عقد معاهدة مع مراد الثاني في ١٤٢٤ وافقت فيها بزنطة على دفع جزية
وتسليم عدة مدن للعثمانيين من التي حصلت عليها بعد معركة أنقرة . واتجه
مراد بعد ذلك إلى سالونيك وكانت الأوضاع الداخلية مضطربة حتى
اضطر حاكمها أندرونيكوس ابن مانويل لتسليمها للبنادقة في صيف ١٤٢٣ م
في مقابل احترام شعائر أهل المدينة والدفاع عنهم وإمدادها بالمؤن ،
وأدى هذا إلى إثارة غضب السلطان العثماني الذي كان يعتبر المدينة تابعة له
وحاول البنادقة التفاهم معه وكانت عروضهم في كل مرة تزداد سخاء نتيجة
لازدياد الضغط التركي على أسوار المدينة وقلة المؤن فعرضوا مبلغ مائة ألف
إسبار aspar ، التي كان يدفعها الحاكم اليوناني ، ثم عرضوا مائة وخمسين
ألف إلى أن وصلوا ثلاثمائة ألف ، ولكن رفض السلطان جميع العروض .
وبعد هجوم خاطف استولى عليها مراد الثاني في مارس سنة ١٤٣٠ ،
وفي نفس العام صد هجوم لملك المجر وبولندا ودخل لإبيروس .
وفي ١٤٢٥ مات مانويل بعد أن دخل الدير تحت اسم الراهب ماتيوز .

التحالف الأوربي والبابوية :

تولى حنا الثامن عرش القسطنطينية كاسيلوس أو أتيسكراتور
للرومان أما مقاطعات البحر الأسود والبلبونين والتي تمثل جزء هام من

- (١) وعد مصطنق بمنحه جاليبولي وقد اشتهر مصطنق بلقب Dumeze
(٢) واجه مراد مشاكل من أمراء كرميان الذين دعوا أخاً أصغر له يسمى مصطنق أيضاً
وحاولوا إقامته سلطاناً .

الإمبراطورية البيزنطية فقد حكمها أخوته كحكام مستقلين .

أما شبه جزيرة الأناضول فإن جورج برنكوفيتش خلف عمه ستيفن لآذار في حكم الصرب سنة ١٤٢٧ وأصبح تابعا للسلطان وأجبر على نقض تحالفه مع المجر وطلب منه السلطان مراد أن يزوجه ابنته Mara ولكنه تأخر في الرد فاجتاحت الجيوش التركية أراضيها وحطمت قلعة سمنديريا على الدانوب واتجه بعد ذلك لحصار بلجراد ولكن دفاعها كان قويا فأجبره على التراجع

وهذا النصر شجع عددا من أمراء الغرب ، وفي مجمع فلورنسا بدأت البابوية في تنظيم حملة صليبية ، ولقد رحب الملك لاسلامس ملك الصرب والقائد الألباني المعروف باسم اسكندر بك^(١) بالانضمام إليها وهذا التحالف كان تحت قيادة حنا كورفيتيوس Hunaide حيث انضموا إلى الحملة الصليبية في أكتوبر سنة ١٤٤٣ في سمنديريا عبر الدانوب وعبرت الحملة أراضي الصرب وكان هينادي يقود المقدمة واستطاع تحقيق نصر حاسم على قائد روميليا التركي في المرتفعات المجاورة لينة ودخل الصليبيون بلا مقاومة في بلغاريا وأخذوا صوفيا وعبروا إلى تراقيا واضطر الجيش الصليبي إلى التراجع بسبب البرد غير المحتمل ، وأثناء عودتهم قاتلوا العثمانيين في جبال Kanavica وهزمهم ثانية في بداية سنة ١٤٤٤ وبدأ كان المد تغير وأجبر الجيش العثماني على اتخاذ موقف الدفاع أكثر من مرة ، ففي ألبانيا حدثت اضطرابات عنيفة وبدأت شعارات المطالبة بالحرية تتردد تحت قيادة اسكندر بك الذي دخل في حرب مريرة ضد العثمانيين^(٢) .

(١) اسمه الحقيقي Castviate Goerge

Cegaj : l'Aibaine et l'invasion n Turque XI.

Husov op cit p 81 , 2)

وفي جنوب اليونان كان الأمير قسطنطين يسيطر على أهم أجزاء المورة ابتداء من سنة ١٤٤٣ وكان أول أعماله إعادة بناء هيكسميلون عبر اسمبوس الذي سبق أن خربه الأتراك واندفع في قلب بلاد الإغريق داخل أثينا وطيبة ، والدوق نيرول الثاني Acciajuoli الذي كان تابعاً لتركيا اعترف بسيطرة حاكم مستريا ووعد بدفع الجزية له .

هذه التغيرات دفعت مراد الثاني للتفاوض مع معارضيه ، وفي يونيو سنة ١٤٤٤ قابل السلطان سفراء الملك فلاد سلاف وجورج برنكوفتش وهينادي في أدريا نوبل وعقد صلحا لمدة عشر سنوات وكانت شروطه تنص على تسليم حكام الصرب أراضيهم وإنهاء سيطرة العثمانيين على الاشيا ، ولقد ارتبط السلطان بشروط الصلح ودخل إلى آسيا الصغرى . في حين سافر سفراؤه إلى المجر لكي يحصلوا على تصديق فلاد سلاف ، ونص الاتفاق على الحد من قوة الترك في البلقان وبذلك تمتع المسيحيون بفترة سلام لمدة عشر سنوات . وسعى مراد أثناءها إلى اعتزال العرش والتفرغ للحياة التي يتوق إليها ^(١) .

ولكن سرطان ما بلغته أنباء إعداد حملة جديدة فتراجع في رأيه فالباوية لم تكن تشعر بالارتاح لتلك النتيجة فالبندية أوحث لها بأنه من الممكن هزيمة الأتراك والقضاء عليهم نهائيا . والكردينال جوليان قيصراني حث ملك المجر الشاب من قسمه الذي سبق أن أخذه عليه مراد وأعلن أن أي قسم للأعداء يحق التحلل منه ، ولكن القوات التي انضمت إليهم كانت محدودة العدد فقد رفض عدد كبير من الأمراء الاشتراك معهم ،

Ostrogorsky : op cit p. 501 (1)
Camb Hist of Islam vol Ip 283
Camb: Med Hist vol 4. p 699
Halecki, The Crusade of Varna p87

مثل حنا التامز وجورج برانكوفيتش الذى طرد قواتهم ومنع اسكندر بك من الاتصال بحلفائه وعلى أمل أن تصل قوات بحرية من البندقية قام الصليبيون بالإبحار فى اتجاه البحر الأسود ، وبمدرحلة شاقة خلال أراضي بلغاريا التقي الجيشان فى فرنا Verno وحدثت معركة دموية فى نوفمبر سنة ١٤٤٤ حطمت الجيش الصليبي وقتل الملك فلاد سلاف والكردينال قيصريانى ، فكانت هذه آخر محاولة للسيحيين لوقف التوسع التركى .

ورغم أن إمبراطور القسطنطينية أرسل بنىء السلطان المنتصر بأطيب تمنياته ، فإن قسطنطين حاكم جنوب اليونان أعد حملة لينتقم لخرقة فارانا ومد نفوذه وسيطرته إلى بانوينا وفوكيس وبنوس وبدأ كان اليونان نهضت من جديد وبعثت الهلينية ، ولكن لم يستمر هذا طويلا فى سنة ١٤٤٦ اجتاح مراد بلاد الإغريق وجعل حكام بيزنطة أول خطوطهم عند الهكسمليون . ولكن دمرها الأتراك وحطموا أسوارها ثم دمروا المدن والقرى اليونانية وأخذوا أكثر من ستين ألف أسير وتعهد الحكام البيزنطيين بدفع جزية كبيرة مقابل شروط الصلح ^(١) .

واعتزل مراد العرش وترك لابنه محمد الذى كان فى الثانية عشرة آنذاك وعاد إلى Manisa يقضى أيامه فى عزلة ، ولكن الجيش والوزراء لم يرضوا عن الحاكم الجديد فالاضطرابات ما زالت قائمة على الحدود الأوربية وكان رأى العام يطالب بعودة مراد ثانية ، وخاصة أن اسكندر بك فى ألبانيا قد هزم الجيوش التركية التى أرسلت إليه . فعاد مراد إلى عرشه . وفى سنة ١٤٤٦ أرسل مراد جيشا إلى البلقان بالمرودة وفى

معركة kosovo في أكتوبر سنة ١٤٤٨ تقرر مصير الصرب فاضطرت للخنوع بعد معركة شرسة قوية وقبض على اسكندر بك فيما بعد في ألبانيا التي كان متحصنا بها لسنوات ، وبذلك لم تعد هناك قوة قادرة على مساعدة القسطنطينية في محتها (١) .

وكذلك نجح مراد في الأناضول مع القوى التركية فأخضع Aydin وكرميان واعترف أمير سنوب وأاناتوليا بسلطان العثمانيين وكذلك حاكم طرابزون الذي لم يكن له أى سلطة فعلية كزميله حاكم القسطنطينية .

كانت آخر أعمال مراد إصلاح النظام الحربى فبعد أن كانت الانكشارية من الأطفال الذين استرقوا أجبر عائلات السلاف والإغريق والأرمن والولاش على أن يسلموا للسلطان ولداً ذكراً من أولادهم يعتنق الإسلام ويدخلوه المدارس ، وكانوا ينقسمون قسمين البعض من ذوى النشوغ كانوا يستغلون كإداريين فى مؤسسات الدولة ، أما الغالبية فكانوا جنوداً وفرساناً للسلطان وكانوا يمنعون من الزواج وتكرس حياتهم للجيش ، ومات مراد فى سنة ١٤٥١ فى أدرينوبل (٢) .

الاتحاد بين الكنيستين

حاول حنا الثامن تحت ضغط الترك فتح باب المفاوضات مع الغرب رغم أن أباه مانويل نصحه على فراش الموت بالأى يعلق أملاً على هذا التحالف المشكوك فيه ، فإن المحاولات السابقة لا تشجع على مناقشة هذا الموضوع ، وكل ما كانت تجلبه تلك المحاولات زيادة الشقاق بينه ضد

Ostrogorsky : op. cit , p ٤07 (١)

Baynes , op. cit, p, 48

Hearsey op. cit, p, 231 (2)

patil Autour Croisade de Vafna p22

لإرادة ورغبة الشعب البيزنطى لأن أول مطلب لروما الاعتراف بسيادته كأول مركز دينى .

ومع ذلك فإن حنا الثامن تبنى هذا الاتحاد وسمى لفتح باب المفاوضات مع روما وعرض الاتحاد بين الكنيستين فى مقابل وعد صريح من روما بمساعدته ضد الترك . وفى سنة ١٤٣٧ ترك عاصمته بعد أن أناب أخاه قسطنطين عنه فى الحكم واتجه إلى الغرب ورافقه أخاه ديميتريوس والبطريك يوسف وبجموعة من المطارنة . وفى سنة ١٤٣٨ وصلوا فيرا (١) وأثناء انعقاد مؤتمر دينى هناك أعيد فتح باب المناقشة وأعلن الإمبراطور موافقة شعبه والكنيسة اليونانية على الاتحاد وأعلن فى ٦ يوليو الاتحاد باللغتين اليونانية واللاتينية (٢) فى فلورنسا رغم معارضة المطران مارك إيجونيكيوس ، وتضمن الاعتراف بالسيادة البابوية فى عبارة مهمة وسمح الإغريق بالاحتفاظ بطقوسهم الدينية الخاصة ، ولكن كل ما يتعلق بأمور الكنيسة مرجعه إلى روما .

ومع ذلك فإن القرار لم يكن له أهمية تذكر إلا إثارة الشقاق ، فروما ليس لديها القوة الفعلية لوقف التقدم التركية إلى جانب أن بيزنطة فقدت هيبتها فى عالم السلاف المجاور لحدودها . واعتبر حكام روسيا ما قام به الإمبراطور وبطريك القسطنطينية نوعاً من الخيانة غير المجدية ، وقام الدوق باسيل الثانى بالقبض على المتروبوليتين إيدودور الذى اشترك فى وفد الاتحاد مع روما وبدأت روسيا منذ ذلك الحين تختار مطرانها وأدارت ظهرها لبيزنطة . ومع ذلك فإن الحزب المؤيد للتحالف ذهب خطوات أبعد ، وكان قائد تلك المجموعة Bessarion والمطران أريدور الذى هرب من السجن (٤) .

Hussey : op. cit. p. 83 (1)

(١) جيون : انضمام الامبراطورية الرومانية ج ٣ ص ٢٨٩

Baynes : op. cit. p. 47 (٤)

Ostrogorsky : op. cit. 504 (4)

الفصل التاسع

سقوط القسطنطينية

(محمد الفاتح و قسطنطين الحادى عشر والمرحلة الأخيرة من الصراع
البيزنطى العثمانى) :

تولى قسطنطين عرش بيزنطة فى ١٦ يناير سنة ١٤٤٩ بعد وفاة أخيه
حنا الثامن بدون أن يترك أولادا . ورغم أن لقسطنطين ست أخوة
فإن الإمبراطورة الأم هيلين قد اختارت قسطنطين دونهم . ومع أن
قسطنطين يعد من أفضل الحكام الذين تولوا عرش بيزنطة فإن بيزنطة كانت
محكوم عليها بالدمار ولم تكن لتجدى شجاعة الإمبراطور أو ذكاؤه شيئا
لإنقاذه ولإنقاذه من المصير المحتوم ، فالقسطنطينية أصبحت الفاصل
العائق الوحيد بين أملاك العثمانيين الأوربية والآسيوية وأصبح الاستيلاء
على القسطنطينية يمثل ضرورة حيوية بالنسبة لآى حاكم عثمانى (١) .

وكان سقوط القسطنطينية أمرا مسلما به حتى من الغرب الأور
تداوله المدن الإيطالية والاختلاف الوحيد كان على تحديد الزمن ، و
نوعية القوة التى ستضع لها غريبة أم تركية وحسم تولى محمد الثانى السلطنة
العثمانية الأمر (٢) .

كان السلطان الجديدة مشهوراً بعدائه للقوى المسيحية وخاصة لبيزا

Camb' Hist of Islam Vol, Ip, 245 (١)

Randelman, op. cit, p 45

(٢) لمزيد من التفاصيل فى عهد وجانه الأولى ارجع جيون : اضمحلال الأبرام
الرومانية ج ٣ ص ٣٤١ .

Pears, The Destruction of The Greek Empire.

Amantos La prise de Constantinople

وكان محمد عند توليه العرش لا يتجاوز التاسعة عشرة لقدوله في أدرينا نوبل سنة ١٤٢٣ ، وكانت أمه جارية تركية ، وكان السلطان مراد يفضل أبنائه من زوجات نيلات على غيرهم . ولكن أخاه أحمد مات في آسيا سنة ١٤٣٧ وأخاه الثاني علاء الدين قتل بعد ست سنوات في نفس المدينة وأصبح هو الوارث الوحيد . ولم تكن هذه المرة الأولى التي يلي فيها العرش فقد سبق له أن تولاه بناء على رغبة مراد حين رغب الأخير في الاعتزال والاعتكاف بعيداً فتولى العرش تحت وصاية هلال باشا ولكن محمد كان قاسياً متهوراً وبما يعود هذا الصغر سنه ، فقتل الدراويش في فارس بإيعاز من هلال باشا وقوبل حكمه بمعارضة من الجيش والشعب واضطر مراد للعودة لتولى مهام الدولة في حين أرسل محمد إلى أماسيا حيث ظل أمره مهملًا لا يظهر إلا نادراً بصحبة أبيه في بعض الحملات ^(١) .

وعند وفاة مراد سنة ١٤٥١ أعلن سلطاناً وكان فرح الغرب الأوروبي بنوت السلطان كبيراً لصغر العاهل الجديد ولشكهم في مقدراته واستطاعته مواجهة مستوليائه . وأرسل مبعوثين من جهات عديدة إلى السلطان في أدرينا نوبل فاستقبل السلطان مندوبي البنادقة وجدد معاهدة السلام التي سبق أن عقدها والده لمدة خمس سنوات ، ثم استقبل مبعوثين من لدى هونيات وعقد معهم صلحاً لمدة ثلاث سنوات ، وكذلك استقبل رسلاً من لدى حكام الاستقار في رودس . وأرسل الإمبراطور قسطنطين رسلاً إلى السلطان أحسن استقبالهم بل وأقسم لهم على القرآن بعدم الاعتداء على أراضيهم ووعد بدفع جزية أو مبلغ من المال يبلغ ثلاث آلاف قطعة ذهبية مر دخل بعض المدن الإغريقية في وادي استروما لهم وهم

(1) Ostrogorsky op cit p 507

جيون مصطلح لـ طورية لرومانية ٣٤٤ م

Amato op cit p 9

المدن التي كانت تخضع للأمير أورخان الذي كان يقيم في يزدانة ، ربما كان
عمر يهدف آنذاك إلى استئجاب السلام على حدوده وإلى بث الطمأنينة في
نفوس تحكام يزدانة وهو يعد العدة للحملة ، وخاصة أن هناك لثنين من
خاصته يؤيدان اللجوء إلى الحرب بل يحثانه على ذلك وهم زاجنوس باشا
الوزير الثاني وشهاب الدين .

أما العالم الغربي الذي لم يكن على حراسة بوسائل الدبلوماسية العثمانية
فقد أبتجج بتلك المعاهدات . فلم تكن هناك دولة على استعداد لاتخاذ إجراء
فعلي ، ففي أوزبا نردريك الثالث الهاابسبورج كانت له مشاكه مع بوهيميا
والجر وكان يعد العدة للتتويج في روما ^(١) ، وشارل السابع ملك فرنسا
بعد حرب المائة عام وجد منافساً أخطر في قريه فيليب الطيب دوق برجنديا
وانجلترا لم يكن لديها أي استعداد للحرب وكذلك اسكتلندا واسكتندافيا ،
وملك البرتغال لديه أعداء على حدوده . والوحيد الذي أبدى اهتماما هو
ألفونسو الخامس ملك أرغنة الذي تولى عرش نابولي في ١٤٤٣ ^(٢) ولكنه
كان يطمع في عرش القسطنطينية فأى جهد منه كان يستقبل في القسطنطينية
بالريبة والشك وارتفعت بعض الأصوات تهيب بالبابا وبملك فرنسا أن
يتخذ إجراء فعالا قبل أن يكتسب السلطان الجديد خبرات ويكون
قادراً على الحرب ، ففكرة الغرب عن السلطان الجديد أنه شاب حدث
بلا تجرية ، وفي تلك الأثناء مات البابا يوجينوس الرابع وخلفه نيكولاس
الحامس سنة ١٤٤٧ الذي كان ميالا للسلام متجنباً ما يورطه في مشاكل
خارجية ، ومع ذلك فقد أرسل قسطنطين سنة ١٤٥١ مبعوثا إلى البابا
هو أندرونيكوس برنيوس ومعه رسالتان ودينان أحدهما من الإمبراطور

Runicman : op. cit p. 46 (1)

جيون : اضلال الإمبراطورية الرومانية ج ٣ ص ٣٤٤
Baker (james) Tarkyin ; Europe p 20 (2)

والأخرى من الجاعة المعارضة للاتحاد تفلن موافقتها، ولكن هذا لم يأت
بنتيجة إلا زيادة المعارضة لروما في القسطنطينية (١).

ولكن الإمبراطور يمد مستولا شخصيا عن سوء العلاقة بينه
وبين الأتراك، فقد كان أحد الأمراء الكرمانين وهو إبراهيم بك لديه
نفس الاعتقاد الغريب في عدم خيرة ومقدرة السلطان فتحالف مع إمارتي
إيدن ومنتشا التي سبق للعثمانيين إخضاعهم في خريف ١٤٥١، وأرسل
للأمراء الذين عزلهم العثمانيون يطلب إليهم التور لثول عروشهم بل أعتدى
على الأراضي العثمانية اعتماداً على ضعف عيسى بك الحاكم العثماني. وسارع
إسحق باشا حاكم الأناضول بإرسال مبعوثين إلى السلطان يرجوه
الحضور لقمع الفتنة وحضر السلطان بنفسه (٢)، فسارع إبراهيم بك
لطلب العفو منه وأعاد إسحق أراضي منتشا ولكن أثناء عودة السلطان
إلى أوروبا ثار الانكشارية وطالبوه بزيادة مرتباتهم فاضطر إلى الاستجابة
لمطالبهم وعزل بعض قادتهم وألحق بهم فرقاً من القناصة يضمن ولائها.

شجع هذا قسطنطين على أن يرسل للسلطان سفارة يذكره بأنه لم يدفع
المبلغ المتفق عليه للاتفاق على الأمير أورخان وليذكره أيضاً بأن لديه
مطالب في عرش السلطنة. ولقد فوجئ هلال باشا بتلك البعثة لأنه يعلم
أنها ستفضي على السياسة السلبية التي أوجدتها مع بيزنطة إلى جانب أنها
ستثير رغبة السلطان في هلال باشا، وأجاب السلطان عليها باقتضاب بأنه
سينظر بنفسه في الأمر عندما يعود لداخوته. ولم ينس محمد هذا المطلب
الوقح أبداً، وبذلك أوجد له البيزنطيون المبرر لنقض قسمه ولفتح

Runciman : op cit. p 64 (1)

Camb. H st. of. Islam Vol I p 299

Bayat : op cit. 48 (2)

القسطنطينية . وكان السلطان محمد قد عزم على العودة عن طريق البردنيل ولكن علم أن فرقة إيطالية تقوم بحملة استكشافية هناك فانجه إلى البسفور وأبحر بجيشه من قلعة بايزيد إلى أنادولوهيسار فإن الأرض التي على الشاطئ البيزنطى تخضع لسلطان القسطنطينية ، ورفض محمد أن يحصل على إذن من الإمبراطور بالنزول إلى البر ورأى السلطان كم يكون مفيداً له لو أنه بنى قلعة في هذا الموقع في المضيق المضاد لأنادولوهيسار وكان يعتقد أن التحصينات البيزنطية القوية ستمنع اتصاله بالشاطئين الآسيوى والإغريق .

وأمر محمد بطرد الإغريق من منطقة struma وإحضار العمال البنائين وبدأواضحاً أنها الخطوة الأولى نحو حصار القسطنطينية وأرسل الإمبراطور سفارة إلى السلطان تذكره بأن السلطان بايزيد قد حصل على موافقة بيزنطية قبل أن يسمح له ببناء قلعة أنادولوهيسار فالمعاهدة الساتق عقدها مع آبائه وأجداده تنص على ألا يقوم أى من الطرفين ببناء قلاع في هذا المكان . وأن ما فعله السلطان محمد يعتبر نقضاً للمعاهدة وأنه على استعداد للسماح له بنقل جيوشه بين الشاطئ الآسيوى والأوروبى ^(١) ولكن لم تلقى السفارة أذناً صاغية بل طردم السلطان ، ورد الإمبراطور على هذا بالقبض على الرعايا الأتراك لديه ثم أرسل بعثة أخرى بهدايا تطلب ألا تعرض القوى الإغريقية لأى ضرر ولم يولها السلطان اهتماماً ، وذكر Kritoveulos ^(٢) أن السلطان قال لهم بأن لديه ممتلكات على كلا الضفتين من الشاطئ الآسيوى والأوروبى منفصلين وأن لديه أعداء في كلا الجانبين وأن سفن البندقية كانت تعرض سفن والده وتمنعه من الاتجاه إلى البحر وطلب منهم عدم التدخل

(١) جيون : اشتمال الإمبراطورية الرومانية ج ٣ ص ٣١٤ .

Kritoveulos Hist. of Mehmed the Conqueror p. 17

كان المؤرخ حامد عيان الأحداث .

في شتونه الخاصة ثم أرسل قسطنطين بعثة أخرى كان مصيرها أسوأ من سابقتها إذ وضع الرسل في السجن ثم قطعت رؤوسهم .

وعرفت تلك القلعة الأتراك باسم بوزغاز كسين وهي معروفة الآن بروميل هيسار، وبعد إتمام بناءها أمر السلطان بأن كل سفينة تمر بالبسفور يجب أن تقف للافتيش ومن يرفض يتعرض للفرق وبالفعل أغرقت ثلاث سفن للبندقية وكان على البندقية أن تتحدد موقفها ، فالبندقية لها الربع في القسطنطينية إلى جانب امتيازات عديدة . وكان البنادقة يرون أن استيلاء السلطان على القسطنطينية سيوجه نظره بعد ذلك إلى ولايات البندقية في اليونان والبحر الإيجي ، وإن كان هناك فريق آخر صغير يرى أن الاستيلاء على القسطنطينية سيزيد من مكاسبهم وتجارتهم مع العثمانيين ، ولكن سناتو البندقية صوت لصالح التعاون مع بيزنطة .^(١) وكذلك فعلت جنوه وإن كانت جنوه قد أعطت لمستعمراتها حق أن تفعل ما تريد وما تراه صالحاً ، وصدّم البابا بالوضع الذي رآه فأمر الإمبراطور فردريك الثالث أن يرسل حملة ضد السلطان ، ولكن الإمبراطور لم يكر لديه القوة الكافية . أما ملك نابولي فقد كانت له أطماع في القسطنطينية والسكرانلان الذين كانوا يتاجرون مع بيزنطة كانوا أتباعه ، ولكنه شغل بالحرب مع البنادقة .

إعلان الاتحاد في القسطنطينية :

أرسل البابا الكردينال إيزدور الذي أصبح مرة ثانية مطران روسيا إلى القسطنطينية كندوب بابوي لإعلان الاتحاد . وحدثت مناقشات دينية وظهر تأييد الاتحاد تحت تأثير فاعلية مساعدة الغرب وإن كان الحزب

١) Ostrogorsky · op cit, p 507

جيرن · اضمحلال الإمبراطورية الرومانية ج ٣ ص ٣٤٤

المعارض أصر على رفضه وأعلن عدم استعداده لبيع عقيدته في مقابل مساعدات مشكوك في أمرها . ولكن في النهاية في ١٢ ديسمبر سنة ١٤٥٢ أعلن الاتحاد في كنيسة أيا صوفيا وأقيم قداس روماني . ولكن الاتحاد استقبل برفض شعبي شديد وثار الشعب البيزنطي واعتبره تحدياً لمشاعره الدينية حتى قال أحد كبار القادة « إنى أفضل أن أرى العمامة الإسلامية في وسط المدينة على أن أرى تاج الأسقف اللاتيني » (١) .

وكانت أموال البابوية قد استنزفتها حاكم نابولي ، ولم يكن تدخل الغرب لإنقاذ الإمبراطورية خالصاً ، وأغلب الحكام لم يكن هدفهم لإنقاذ القسطنطينية بقدر معرفة الإجابة على السؤال المطروح آنذاك هل بيزنطة ستسقط في أيدي الترك أم في أيديهم ، أما بيزنطة نفسها فكان لها دور صغير في تقرير الأحداث فصيورها تقرر بسبب أحداث حاسمة خارج نطاق سيطرتها وبدون تدخلها فكانت مجرد رهينة للقوى السياسية المختلفة .

الاستيلاء على القسطنطينية

خطة الحرب :

في الشهور الأخيرة من سنة ١٤٥٢ كان محمد قد أعد الخطة النهائية للاستيلاء على القسطنطينية ولم يطلع عليها أحداً ، فوزيره هلال باشا لا يؤيد الحملة ، ففي رأيه أنها مغامرة لا تؤمن عواقبها حيث أن هيئة آل عثمان مرتنة بنجاحها أو فشلها . ولكن كان هناك فريق كبير من القادة يؤيد الحرب (٢) . مثل زاجنوس وطرخان وشهاب الدين ولما طرح الساطان الأمر أمامهم

Ostrogorsky : op. cit, p 507 (١)

Kritovoulos : op. cit, p, 33, (٢)

Camb Hist. of islam Vol. I, p, 288 (٣)

صوت المجلس بجانب الحرب وبدأ السلطان في اتخاذ الخطوات الإيجابية نحو حصار القسطنطينية عن طريق عزل المدينة وقطع اتصالها بالمناطق المجاورة فأمر ضياء باشا بمهاجمة المدن البيزنطية على شاطئه تراقيا والبحر الأسود وسلبت مسيريا وأنجليوس وبيروس والمدينة التي كانت تبدي مقاومة كانت تعرض للتخريب ، وأمر طرخان باشا بالاستقرار في كورثة لكي يمنع أشقاء الإمبراطور من مساعدته .

أولاً : الحصار :

بالنسبة لتوزيع القوات في كلا الجانبين نجد أن القوة المدافعة كانت متواضعة جداً بالنسبة للقوة المهاجمة وكانت تتكون من فرق إغريقية وبعض فرق من اللاتين . والفرق الرئيسية في الجند تتكون من سبعائة جندي وكانت قد وصلت قبل الحصار بفترة قصيرة وكانت نسبة المدافعين إلى المهاجمين واحداً إلى عشرين ، وإن كان الإمبراطور يعتمد على حصانة المدينة وأسوارها التي حرص على إصلاحها فالموقع الجغرافي لبيزنطة كان له الفضل دائماً في إنقاذها من عديد من الهجمات طوال تاريخها . إلى جانب ما كانت تتمتع به من تفوق في الفنون الحربية على الأقاليم المجاورة ، ولكن المتغيرات الدولية واختلاف موازين القوى في هذا العصر غير الأوضاع فالعثمانيون حصلوا على معدات حديثة ومدعمة بمدافع قوية وكانت أوروبا قد استخدمت المدافع قبل هذا التاريخ بمائة عام فقط . ولقد صنع مهندس مجرى لمحمد مدافع ضخمة كان لها دورها في سير القتال^(١) حتى قال الإغريق د أن المدافع حسمت الأمر^(٢) فلم يكن لدى بيزنطة من المال والمعدات ما يجعلها ندا للعثمانيين .

Heatsey : op. cit. p 239. kritovoulos : op. cit. p 42-43 (1)

Рундич : op cit. p. 75 (2)

أما بالنسبة للجانب العثماني فقد وضع محمد أعداداً ضخمة في أبريل سنة ١٤٥٣ تحت أسوار القسطنطينية . ولما وجد السلطان أن سيطرته غير كاملة على البحر خاصة بعد أن بلغته أنباء تسلم بينظفة لإمدادات بحرية . فلم تكن لديه قوة بحرية كافية للتصدى لهم إلى جانب اضطرابه للاستعانة بسفن مسيحية للربط بين طرفي دولته الآسيوى والأوربى قرر أن ينشأ أسطولاً . والمصادرة البيزنطية تبالغ في عدده ، ولكن وفقاً للمصادر الإيطالية فإنه كان يتكون من عشرة pirms وخمس سفن كبرى وسبعة وعشرين سفينة صغرى وعشرين ناقلة pncreb وعدد من القوارب لنقل الرسانل ، وعين حاكم جاليبولى سليمان بالطغولو قائد للأسطول (١) .

ولما تحقق قسطنطين من ضخامة القوات المحاصرة للدينة فعل كل ما يستطيع لتشجيع أهل مدينه ، وأرسل سفراء للغرب فأرسل سفراء للبندقية التى أعلنت استعدادها للاشتراك لو انضمت لها قوى غربية أخرى ، وجنوة وعدت بإرسال سفن ، كذلك وعد الفونسو ملك نابلى بإرسال مؤن ولكنه كان مشغولاً بأمره الداخلية ، وأخيراً قررت البندقية إرسال شاحتين في كل منهما أربعائة رجل وخمسة عشرة سفينة وأصدرت تشريعاً بأن على التجار دفع نفقاتهم ولما وصل ذلك الإمداد كانت القسطنطينية قد مر على حصارها أربعة أيام .

أما البابا فقد طلب من البندقية لإعداد خمس سفن ولكن طوالب بما عليه من ديون فأعد ثلاث سفن ووعد بدفع نفقاتهم فوراً . لكن حكام الغرب لم يبد أى منهم اهتماماً أما فرسان القديس يوحنا في رودس ، وإمارة روسيا فقد كانوا مشغولين بمشاكلهم الخاصة .

وملك جورجيا وإمبراطور طرابزون كانا في وضع يحتم عليهما الدفاع عن حدودهما وأمره الأناضول المسيحيون لم يكونوا على استعداد للثورة وخوض غمار حرب . أما حاكم الصرب فانضم لمحمد وأرسل فرقا لمساعدته ولقد اشترك بعض البنادقة في الحرب لوجودهم في القسطنطينية أثناء نشوب القتال وكذلك شعر بعض الجنوية بالخرج من مسلك حكومتهم فسارعوا بالذهاب إلى القسطنطينية ^(١) .

وفي ٢٩ يناير ١٤٥٣ وصل القائد الجنوي المشهور جيستينيانى لويجي ومعه سبعمائة رجل وكان هو ورجاله أول المدافعين عن أسوار المدينة . وسمى الامبراطور للتوفيق بين الجنوية والبنادقة الذين كان بينهم خلاف واضح ، وانضم للمدافعين فرق من الكتلان . وفي ٢٦ فبراير وصلت سبع سفن من كريت والبنديقية تحت قيادة بتروافنزو وهو - أسطول صغير بمقارنته بأسطول السلطان ، وعرض الأمير أورخان العثماني الاشتراك مع البيزنطيين في القتال ، ولقد أمر الامبراطور وزيره بإحصاء عدد الصالحين للقتال في القسطنطينية فرجدهم أربعة آلاف وتسعمائة وثمانية وثلاثين فقط من البيزنطيين وألفين من الأجانب .

وأمر الامبراطور أن تكسر الجسور وأن تغلق أبواب المدينة وأقام سد طويل عند مدخل ميناء القرن الذهبي مكون من حلقات تنتهى عند قلعة إميجونيوس عند الأكروبوليس ^(٢) . وكانت الأسوار تمتد من بلاشرية على القرن الذهبي إلى بحر مرمرية حيث هناك ميناءان حصينان

Randmaa , op. cit. p. 63 (1)

Camb. Med. Hist. Vol 4, p.696

Kritovoulos , op. cit p. 42

(٢) ذكر Kritovoulos توزيع قوات السلطان وأما كن وجودهم حول القسطنطينية

Kritovoulos p 91

وسنة عشرة بوابة إلى جانب أن أسوار المدينة في حالة جيدة . وكان
الامبراطور نفسه على رأس المدافعين فوق على رأس قواته من الإغريق
في Mesoteichion حيث تمتد الأسوار إلى وادي Tyros وقد وزع
الامبراطور جنوده فجعل كل فرقة مكونة من بنادقة مع الإغريق مع
جنويين حتى لا تحدث خلافات داخلية .

أما في الجانب المواجه فكان جيش محمد في القرن الذهبي تحت أسوار
المدينة ووضعت الفرق الرئيسية تحت قيادة كراجا باشا وقام بتسليحه
ببنادق ثقيلة ، وإسحق باشا كان في الأناضول ، والسلطان كان يسيطر على
وادي لوكس ، أما الأسطول فتولى قيادته بالطفولو وكان هدفه الأساسي
ألا يصل المدينة أى إمداد من جهة البحر وأن يجد له خلال القرن الذهبي
طريقا ، وجعل مركز قيادته في البسفور . وبدأ السلطان في ضرب المدينة
بالمدافع في ٧ إبريل وكان الهجوم التركي على أسوار المدينة مركزا ضد
بوابة penephton خاصة والتي اعتقد الأتراك أنها أضعف جانب في أسوار
القسطنطينية ودمروا جزء من سور شيرزين (١) .

ورغم ذلك أرسل السلطان إلى المدينة رسالة يطالب فيها أهلها بالتسليم
مقابل تأمينهم على أنفسهم وممتلكاتهم ولكن الامبراطور وأهل القسطنطينية
لم يتقوا بوعود محمد ولا تأكيدات هاجم السلطان قلعتين خارج الأسوار
ومثل بسكانها الذين أبوا الاستسلام (٢) .

أما الموقف بالنسبة للقطاع البحري فقد كان المسيحيون في وضع أفضل
ففي ١٢ إبريل وبمجرد وصول أدوات الحصار اتجه بالطفولو إلى السلاسل
التي تغلق الميناء وأطلق العثمانيون سهامهم على السفن المسيحية التي تحرسه

(١) جيون : اضمحلال الامبراطورية الرومانية ج ٣ ص ٢٥٠ / ٢٥١

(٢) Phraetzer; Chronicon Maius , Vol I p210

وقام ماجادوكس لوكاس بمساعدة القوات المدافعة بالفعل واستطاعت القوات الإمبراطورية صد الهجوم واضطر بالطغول إلى التراجع ، وهذا النصر رفع الروح المعنوية المدافعين . ودفع عهد الثاني لمعالجة النقص والبحث عن سبب الهزيمة فنقل مدافعه إلى غلطة وبدأ في الضرب على السفن في Boom وفشل الهجوم الأول^(١) ، والثاني أغرق بعض السفن . وفي خلال الأسبوعين الأولين من أبريل وصلت إلى خيوس الثلاث سفن الجنوية التي كان البابا قد أعدها بالمؤن والسلاح ، وفي نفس الوقت دفعت الريح بسفينة إمبراطورية تحمل مؤن كان الأميراطور قد طلبها من صقلية تجاه العثمانيين . واستطاعت ثلاث سفن أخرى الوصول إلى المدينة رغم اشتباكها في قتال عنيف مع قوات بالطغول ولقد أمر السلطان بتجريد قائد الأسطول من وظائفه وأبلاكه نتيجة لفشل تلك العملية^(٢) .

وفكر السلطان في البداية في الاستيلاء على القرن الذهبي ثم قرر نقل قواته وسفنه عبر الأرض إلى القرن الذهبي بناء على إشارة بعض من في خدمته من الإيطاليين عن طريق نقل السفن من البسفور إلى القرن الذهبي عبر ربوة ترتفع عن البحر مائة قدم ، ولكن بفضل مالدبه من رجال ومعدات شق طريق Topaneis إلى الوادي المسمى بالوادي السعيد في القرن الذهبي ولم يعرف أهل بيرييه ولا البحارة الذين رأوا الأتراك يعملون فيه الهدف منه ، وفي ٢١ إبريل أمر جنوده بالضرب على الميناء حتى أخنى دخان المدافع ما يقوم به^(٣) . وفي ٢٢ إبريل رفعت السفن من البحر إلى الشاطئ بواسطة أوتاد جرتها الثيران إلى الجانب الآخر من البحر وكان في كل قارب بحارته ، ومقاتلوه وفوجي البحارة المسيحيون في القرن الذهبي

Hearsey . op. cit. op 238-240 (1)

Kritovoulos . op. cit. p 53 (2)

Runicman' op. cit p 105 (3)

بتحركات العثمانيين على التلال فأبلغوا الامبراطور . فقرر بعد عقد مجلس حرب أن يقوم الجيش الإمبراطوري بإحراق السفن عند وصولها إلى وادي الربيع ولم يعلوا جنوه بهذا التدبير ، ولكن تسرب الخبر إلى عدة من بحارتها فخافوا أن يكون نجاح خطة الامبراطور تدعياً لمركز البندقية . ووصلت الأخبار إلى السلطان عن طريق بعض الجنوية الذين في خدمته ولم يعلم الامبراطور بتسرب أنباء خططه ، نتيجة لذلك حدثت معركة بحرية هزم فيها المسيحيون وقتل قائد العملية coco وفقدوا سفينة وتسعين من أفضل رجالهم ، وتحطمت سفينة تركية وسيطر الأتراك على مركز جديد في بريه وأحاطوا بها ، ولم بعد في إمكان التجار نقل البضائع من الميناء إلى القسطنطينية . وقام محمد بحركة التفاف وتطويق عن طريق اتصاله بجيش زاجنوس خلف بريه ورتاسة البحرية في البسفور واستطاع بناء قنطرة من الميناء إلى أسوار المدينة ، وأقام جسراً دائماً من الممكن أن يسير عليه إثنان من رجاله جنباً إلى جنب وأصبح من السهل أن تسير الفرق من بريه إلى أسوار المدينة تحت حماية السلاح (١) . ورغم وجود عدد من السفن المسيحية في poom إلا أن السلطان هو الذي كانت له السيطرة في القرن الذهبي ولم يتبع السلطان انتصاره بمحاولة اقتحام المدينة : وأرسل الامبراطور أحد الرجال لطلب المساعدة من البندقية التي أرسلت أسطولاً كان هدفه الأساسي التفاوض ومحاولة التوفيق بين الامبراطور والسلطان (٢) .

ونشب الخلاف بين الجنوية والبنادقة فكل فريق حمل الآخر سبب هزيمته وفي ٢٨ أبريل حاول الامبراطور التوفيق بينهما وأرسل رسلاً

(١) جيون : احتمال الامبراطورية الرومانية ج ٣ ص ٣٥٢ .

(٢) بلغت السلطان أن مجموعة من السفن وصلت من جنوه مما دفعه للإسراع باتخاذ الخطوات النهائية للاستيلاء على المدينة .

إلى السلطان للتفاوض ولكن السلطان أصر على تسليم المدينة في مقابل تأمين أهلها والسماح للأمبراطور البيزنطي بالتراجع إلى المورة ، ولكن الأمبراطور رفض وقرر الاستمرار في المقاومة .

وفي ٦ يناير ١٤٥٣ بدأ العثمانيون يعدون للهجوم الكبير على القسطنطينية فهاجموها من جانب البحر ثم تلوا ذلك بالحفر تحت الأسوار ، ولكن تلك المحاولات باءت بالفشل ، ولكنهم في ١٢ أبريل عادوا إلى الحفر في الجزء القريب من بوابة Calyarian . وفي ١٨ مايو فوجيء المدافعون بأبراج خارج الأسوار تحمل مدافع ضخمة ، ولكن المدافعين استطاعوا تدميرها وهذا النجاح المبذوق رفع الروح المعنوية للجنود . وجدد العثمانيون عملية الحفر تحت أسوار بلاثريته ولكنهم فشلوا فأوقفوا الحفر . وفي تلك الأثناء عادت السفن التي أرسلها الأمبراطور إلى الغرب وأخبرته أن لا أمل في المساعدة وأن المدينة ترك أمر حمايتها للمسيح والعذراء ، ومع ذلك فقد استمرت المدينة في المقاومة سبعة أسابيع .

وأرسل السلطان مبعوثا إلى القسطنطينية يطالب بجزية سنوية مقدارها مائة ألف بيزنت إذا أراد أهلها الخروج سالمين ، وفي مجلس الامبراطور أبدى البعض قبولهم لدفع الجزية لكسب الوقت ، ولكن الجميع كانوا يعلمون بوضوح أنه مبلغ كبير يعجزون عن دفعه فضلا على أن السلطان لن يقنع بالانتظار الوقت الكافي لجمعه بل سيستمر في حصار المدينة . وقيل إن السلطان خيرهم بين أمرين : اعتناق الإسلام أو الاستيلاء على المدينة بالسيف .

ثانيا : الهجوم :

حدثت تلك المفاوضات يوم ٢٠ مايو وفي نفس اليوم عقد السلطان

مجلسا لمناقشة الهجوم الكبير ولم يعارض إلا هلال باشا الذي اتهمه معارضوه بأنه يتسلم هدايا من البيزنطيين . وفي ٢٧ مايو ركب السلطان مع جيشه وكان هذا إيذانا بالهجوم الكبير وأعلن أن المدينة ستستباح خلال ثلاث أيام بعد الاستيلاء عليها وأن ثروة المدينة ستوزع بين جنوده (١) . واستدعى حمزة بك وأسطوله وأمره بالإحاطة بالمدينة عبر بحر مرمره . ودعا السلطان وزراءه وفادته إلى خيمته وذكروا بحالة المدينة وما تحويه من ثروات وأنباهم بأن تحصينات المدينة قوية وأن العدو عدده قليل وأن لديه نقص في السلاح وذكر أن الإيطاليين ليسوا على استعداد للتضحية بأرواحهم من أجل أرض لا تخصهم وأنهم منقسمون على أنفسهم وأ - سيرسل رجاله موجة إثر موجة للقضاء عليهم وأمر رجاله بالشجاعة والحفاظة على النظام وأن يذهبوا لحيامهم ويستعدوا لتلبية النداء ، وبقى القادة معه ليتسلموا الأوامر .

وفي نفس الوقت في الجانب المقابل جمع الامبراطور رجاله وقال لهم « أن على الإنسان أن يكون مستعداً للحرب من أجل عقيدته وذكروا بأنهم ينحدرون من نسل الإغريق والرومان القدماء وأنه شخصيا لم ييأس وسيقاتل من أجل عقيدته وطلب منهم التعاون مع بعضهم البعض وأن يساعده من أساء إليه وعانق جنوده بعضهم البعض دلالة على التماسك والأخوة » (٢) .

وفي ٢٩ مايو قرر محمد القيام بهجوم شامل ، وبدأ الهجوم في الساعات الأولى من الصباح من ثلاث جهات ووضع السلطان الباش بازوك في المقدمة وكانت مكونة من أتراك وعناصر من أقاليم مختلفة وكان هناك

(١) زاد عدد كبير من المروانيين الحيام لفرس الرغبة في الاستعداد ووعده بحياة شباب دائم في الجنة . جيون : ضمحلل الأمبراطورية الرومانية ج ٣ ص ٣٠٦
Kritevoulos op cit p 66 (٢)

عدة آلاف منهم من أقطار مسيحية سلاف بحر وجرمان وألمان وإيطاليين. مستعدين لقتال أهلهم في مقابل أجر يدفعه السلطان وكان محمد يخشى من تراجعهم فجعل وراهم قوة عسكرية بوليسية مزودة بسيور الجلد والحرارات لحشم على القتال ، ووراء تلك القوة كان الانكشارية وكان لديهم أوامر أن أى جندى يغبى التراجع يقتل واندفعوا على ضول الخطوط ولكن ضغطهم المركز كان على وادلو كوس لأن الأسوار ما زالت قوية . وسقطت على الباش «زوك الأحجار وتلقوا الصدمة الأولى وقتل الإغريق منهم أعداداً كبيرة وقدم الإمبراطور بنفسه فشجع رجاله واضصر الأتراك للتراجع

وكان البيزنطيون يأملون بأن ينعموا بفترة راحة إلى المساء ولكن عاود الأتراك الهجوم بقيادة جيش الأناضول الذى يقوده إسحق باشا وكان رجاله مدربين حير تدريب ومجهزين بأحدث الأسلحة ، ومع الفجر أطلقت قذائف المدفعية فأوجدت ثغرة نفذ منها ثلاث مائة رجل ولكن استطاع الامبراطور ورجاله القضاء عليهم ، ولم يحقق الأتراك نجاحا فى القطاعات الأخرى على طول الأسوار الجنوبية وكل ما فعله اسحق باشا ممارسة نوع من الضغط لمنع المسيحيين من تحريك قواتهم إلى وادى لوكوس . ووجد حمزة بك على طول بحر مرمره صعوبة فى الاقتراب بسفنه من الشاطئ وتولى الدفاع الرهبان وجنود الأمير أورخان العثمانى الذى كان منضمًا للبيزنطيين وحول قطاع البلاشيريه كان القتال بضراوة بين جيوش زاجنوس والبنادقة .

ولقد غضب السلطان أشد الغضب لفشل جنوده الأناضوليين فى اقتحام المدينة فوعد بجائزة كبرى لمن ينحرق الحصار^(١)، وكان يرجو أن

(١) جيون : اضلال الأمبراطورية الرومانية وسقوطها ص ٣٥٦ .

يقوم بذلك جنوده المفضلون وهم الانكشارية وقبل أن يقوم جنود
الامبراطور بإصلاح أسوارهم انهالت عليهم السهام والقنايل ، ومع ذلك
لم يستطع الترك الدخول مما أعطى أملا للدفاعيين . وكان البيزنطيون
يقاتلون قتالا يائسا لأن انتصار الترك يعنى نهاية وجودهم ^(١) وكان في
جانب أسوار بلانشيريه عند التقائها بأسوار ثيودسيوس المزدوجة برج
في بوابة هجوم معروفة باسم كركيورتا وكانت فرق من البيزنطيين تتولى
الدفاع عن هذا المكان . وفي البداية أرادوا اقتحام صفوف الأعداء
ولكن الآن اكتفوا بصد الهجوم على بوابتهم ولقد نسي أحدهم إغلاق
البوابة خلفه عند تراجعه ورأى بعض الأتراك هذه الفتحة فنفذوا منها
إلى الداخل وسارع المدافعون بسد الثغرة ومنع بقية الأتراك من الدخول
بعد أن كان قد دخل حوالى خمسون تركيا ، وقبل شروق الشمس كان
جيسستينيان قد جرح ورجا رجاله أن يحملوه للداخل ولا حظت إحدى الفرق
خروجه فظن البعض أن الأتراك نجحوا في اقتحام الأسوار وأنه تراجع
إلى داخل المدينة ، والغالبية اعتقدت أن المعركة انتهت وأنهم قد هزموا
وقبل أن تغلق البوابة خلف جيسستينيان سارع الجنوية بالهروب وتركوا
الامبراطور وجنوده وحدهم ^(٢) .

ولاحظ السلطان من موقعه ما حدث فصاح في جنوده أن المدينة
أصبحت لنا نحن وأمر الانكشارية بتسليق الأسوار بقيادة أحد ضباطهم
ويسمى حسن لكنه قتل وعدد من جنوده ولكن مع ازدياد ضغط
الانكشارية تراجع الإغريق إلى السور الداخلى وتسليق الانكشارية
بعض الأسوار الداخلية بدون معارضة ورفعت أعلام الترك على قلعة

Kritovoulos . op. cit. p. 78 (١)

(٢) جيون : اضطلاع الأميراطورية الرومانية وسقوطها ج ٢ ص ٢٦٠

Kerkoporta . وكان الإمبراطور مع جستنيان حين بلغه أنباء دخول الترك Kerkoporta فسارع إلى رجاله فوصل متأخراً وأصبح من الصعب إغلاق البوابة فقد كانت الهجوم شديداً وظل الإمبراطور يقاتل وبجانبه دون فرانثيسكو وحنادلاتا ولم يسمع بأمره بعد ذلك أحد ، ومن المؤكد أنه قتل أثناء دفاعه عن المدينة ^(١) .

وأصبحت المدينة في أيدي الأتراك وارتفعت الأعلام التركية على أسوار القسطنطينية وكانت هناك بعض قوات من الجنوية تدافع بالقرب من كيركورتا ، فلما تحقق من الهزيمة سارعت بشق طريقها خلال صفوف الأتراك إلى القرن الذهبي ، وآخر ثلاث قلاع كانت بأيدي الكريتين قرب مدخل القرن الذهبي سلمت للسلطان مقابل تأمينهم على أرواحهم وأولادهم ودخل السلطان المدينة المفتوحة وأباحها لجنوده لمدة ثلاث أيام وانتشر جنوده في المدينة يسلبون وينهبون ويقتلون من يصادفهم ؛ ودمروا كثيراً من الأبنية . بل وجد السلطان أحدهم يحاول نزع لوحات من كنيسة أيا صوفيا فأمر بعدم تعرض جنوده لللباني البيزنطية أو تدميرها ^(٢) وإن كان قد حول الكنيسة إلى مسجد إسلامي .

أما بالنسبة لمن أسر من القادة والزعماء البيزنطيين فإنه قد عني عن وزراء الإمبراطور لوكاس وماجدكوس ، أما العسكريين فقد ظلوا في الأسر . وابتهاجا بانتصاره أرسل السلطان ألف وأربعمائة من الإغريق هدايا لحكام المسلمين آنذاك في مصر وتونس وغرناطة ^(٣) .

(١) Runicman, op. cit p 106

Kritovoulos, op cit p 70

Camb Med. Hist. Vol. Ip. 697

Hussey , op. cit. p83

(٢) جيون : اختلال الامبراطورية ج ٣ ص ٣٦٨

(٣) ابن عباس : بدائع الزهور في وقائع الملوك ج ٢ ص ١٤٤

وجعل السلطان من مدينة قسطنطين العظيم عاصمته لأنها تربط بين أراضي
الأوربية والآسيوية وتبع ذلك استيلاء العثمانيين على بقايا الممتلكات
اللاتينية والسلافية في البلقان فسيطروا على الصرب ١٤٥٩ واستولوا على
المورة ١٤٦١ وعلى بوسنا في ١٤٦٣ وقبل نهاية القرن احتلوا بقايا
مقاطعات السلاف والألبان في الأديرياتيك . وبذلك اختفت بيزنطة
إلى الأبد وقامت على أنقاضها إمبراطورية جديدة ولكن إسلامية في
الأراضي التي تمتد من نهر العاصى إلى الأديرياتيك (١) .

ورغم سقوط بيزنطة في ١٤٥٣ فإن روحها ظلت حية في عقيدتها
وفي فنونها وفي أدبائها وظل تأثيرها لا على الأراضي التي كانت خاضعة
لها فقط بل كان لها تأثيرها القوي على الغرب الأوربي بأجمعه فعصر
النهضات الأوربية استمد حضارته من المتابع القديمة وأهمها المنبع اليوناني،
فالقانون والآداب والفلسفة تدين بالكثير لبيزنطة ، وأصبحت الكنيسة
الأرثوذكسية المحافظ الوحيد على الحضارة والعقيدة لشعوب السلاف
والإغريق فبيزنطة كانت قاعدة الهلينية والأرثوذكسية .

(انتهى)

Ostrogorsky , op. cit. p. 508 (1)
Camb. Hist. of Islam Vol. I. p. 291
Baker ; op. cit. p. 28
Camb Med. Hist. Vol. 4. p. 698

الجداول - الملاحق - الفهارس

١ - جداول الحكم

٢ - نصوص اسلامية

٣ - نصوص غربية ويزنطية

٤ - الفهارس

أباطرة بيزنطة

٦٤١	هرقليانوس	٢٢٤-٢٢٧	قسطنطين الأول
٦٤١-٦٦٨	قسطنطين الثاني	٢٢٧-٢٦١	قسطنطينوس
٦٦٨-٦٨٥	قسطنطين الرابع	٢٦١-٢٦٢	جوليان
٦٨٥-٦٩٥	جستينيان الثاني	٢٦٢-٢٦٤	جوفيان
٦٩٥-٦٩٨	ليتيوس	٢٦٤-٢٧٨	فاليز
٦٩٨-٧٠٥	تييريوس الثاني	٢٧٩-٢٩٥	ثيودسيوس الأول
٧٠٥-٧١١	جستينيان الثاني ثانية	٢٩٥-٤٠٨	أركاديوس
٧١١-٧١٢	فليب كوس	٤٠٨-٤٥٠	ثيودسيوس الثاني
٧١٢-٧١٥	انستاسيوس الثاني	٤٥٠-٤٥٧	مارقيان
٧١٥-٧١٧	ثيودسيوس الثالث	٤٥٧-٤٧٤	ليو الأول
٧١٧-٧٤١	ليو الثالث	٤٧٤	ليو الثاني
٧٤١-٧٧٥	قسطنطين الخامس	٤٧٤-٤٧٥	زينون
٧٧٥-٧٨٠	ليو الرابع	٤٧٥-٤٧٦	باسيليوس
٧٨٠-٧٩٧	قسطنطين السادس	٤٧٦-٤٩١	زينون ثانية
٧٩٧-٨٠٢	إيرين	٤٩١-٥١٨	انستاسيوس الأول
٨٠٢-٨١١	نقفور الأول	٥١٨-٥٢٧	جستين الأول
٨١١	تاويريكوس	٥٢٧-٥٦٥	جستينيان الأول
٨١١-٨١٣	ميخائيل الأول	٥٦٥-٥٧٨	جستين الثاني
٨١٣-٨٢٠	أبو الخامس	٥٧٨-٥٨٢	تييريوس الأول
٨٢٠-٨٢٩	ميخائيل الثاني	٥٨٢-٦٠٢	موريس
٨٢٩-٨٤٢	ثيوفيل	٦٠٢-٦١٠	فوكاس
٨٤٢-٨٦٧	ميخائيل الثالث	٦١٠-٦٤١	هرقل
٨٦٧-٨٨٦	باسيل الأول	٦٤١	قسطنطين الثالث
٨٨٦-٩٢١	ليو الرابع		هرقليانوس

١١٤٣-١١١٨	حنا الثاني كورنين	٩١٣-٩١٢	الكسندر
	ماثويل الاول	٩٥٩-٩١٣	قسطنطين السابع
١١٨٠-١١٤٣	كورنين	٩٤١-٩٣٠	رومانوس الاول
١١٨٣-١١٨٠	الكسيوس الثاني	٩٦٣-٩٥٩	رومانوس الثاني
	اندرونيكوس	٩٦٩-٩٦٣	نقفور الثاني
١١٨٥-١١٧٣	الاول	٩٧٦-٩٦٩	حنا زمكيس
	اسحاق الاول	١٠٢٥-٩٧٦	باسيل الثاني
١١٩٥-١١٨٥	انجيليوس	١٠٢٨-١٠٢٥	قسطنطين الثامن
١٢٠٣-١١٩٥	الكسيوس الثالث	١٩٣٤-١٠٢٧	رومانوس الثالث
	اسحاق الثاني ثانه مع	١٠٤١-١٠٣٤	ميخائيل الرابع
١٢٠٤-١٢٠٣	الكسيوس الرابع	١٠٤٢-١٠٤١	ميخائيل الخامس
١٢٠٤	الكسيوس الخامس	١٠٤٢	زوى ثيودورا
	ثيودور الاول	١٠٥٥-١٠٤٢	قسطنطين التاسع
١٢٢١-١٢٠٤	لا-كاريس	١٠٥٦-١٠٥٥	ثيودورا ثانية
١٢٥٤-١٢٢٢	حنا الثالث دوкас	١٠٥٧-١٠٥٦	ميخائيل السادس
	ثيودور الثاني		اسحاق الاول
١٢٥٧-١٢٥٤	لاسكاريس	١٠٥٩-١٠٥٧	كورنين
١٢٦١-١٢٥٨	حنا الرابع		قسطنطين العاشر
	ميخائيل الثامن	١٠٦٧-١٠٥٩	دوكاس
١٢٨٢-١٢٥٩	باليلوجس		رومانوس الرابع
	اندرونيكوس	١٠٧١-١٠٦٧	ديوجنس
١٢٢٨-١٢٨٢	الثاني		ميخائيل السابع
	اندرونيكوس	١٠٧٨ ١٠٧١	دوكاس
١٢٤١-١٢٢٨	الثالث		نقفور الثالث
١٢٩١-١٢٤١	حنا الخامس	١٠٨١-١٠٧٨	يونثياتوس
	حنا السادس		الكسيوس الاول
١٣٥٤-١٣٤٧	كتاكوزينوس	١١١٨-١٠٨١	كورنين

١٤٤٨-١٤٢٥	حنا الثامن	١٣٧٩-١٢٧٦	أندرونيكوس الرابع
١٤٥٣-١٤٤٩	ق-طنطين	١٣٩٠-١٣٧٩	حنا السابع
	الحادي عشر	١٤٢٥-١٣٩١	مانويل الثاني

السلاجقة

سلاطين السلاجقة الأوائل

	بركياروق بن	١٠٦٣-١٠٣٧	طغرل بك
١١٠٤-١٠٩٤	ملكشاه	١٠٧٢-١٠٦٣	أب أرسلان
١١١٨-١١٠٤	محمد بن ملكشاه		ملكشاه بن
	أحمد سنجر	١٠٩١-١٠٧٢	أب أرسلان
١١٥٧-١٠٩٦	ابن ملكشاه	١٠٩٤-١٠٩٢	محمود بن ملكشاه

سلاجقة العراق

١١٥٩-١١٥٣	محمد بن محمود		محمود بن محمد
١١٦١-١١٥٩	سليمان شاه بن محمد	١١٣١-١١١٨	ابن ملكشاه
١١٧٧-١١٦١	أرسلان شاه	١١٢١	داود بن محمود
	ابن طغرل	١١٣٣-١١٢٢	طغرل الأول ابن محمد
١١٩٤-١١٧٧	طغرل الثاني	١١٥٢-١١٣٣	مسعود بن محمد
	ابن أرسلان شاه	١١٥٢	ملكشاه بن محمود

سلاجقة الشام

	أب أرسلان	١٠٩٤	تنش بن أب أرسلان
١١١٤-١١١٣	ابن رضوان حلب		رضوان بن تنش
	ملطان شاه	١١١٣-١٠٩٥	بجاء
١١١٧-١١١٤	ابن رضوان حلب		دقاق بن تنش
		١١١٣ ١٠٠٥	(بدشوق)

سلطنة سلاجقة الروم

١٠٢٧-١٢٠٠	كيقباز الاول	١٠٨٦-١٠٧٧	سليمان الاول
١٢٤٥-١٢٣٧	كيتخسرو الثاني	١١٠٧-١٠٩٢	قلج أرسلان الاول
١٢٥٧-١٢٤٥	كيتكارس الثاني	١١١٦-١١٠٧	ملك شاه
١٢٦٥-١٢٤٨	قلج أرسلان الرابع	١١٥٦-١١١٦	مسعود الاول
١٢٥٧-١٢٤٩	كيقباز الثاني	١١٩٢-١١٥٦	قلج أرسلان الثاني
١٢٨٢-١٢٦٥	كيتخسرو الثالث	١١٩٦-١١٩٢	كيتخسرو الاول
١٣٠٤-١٢٨٢	مسعود الثاني	١٢٠٤-١١٩٦	سليمان الثاني
١٣٠٧-١٢٨٤	كيقباز الثالث	١٢٠٤	قلج أرسلان الثالث
١٣٠٨-١٣٠٧	مسعود الثالث	١٢١٠-١٢٠٤	كيتخسرو الاول ثانية
		١٢٢٠-١٢١٠	كيتكارس الاول

سلاطين آل عثمان لسقوط القسطنطينية

١٤١٠-١٤٠٢	سليمان	١٣٢٦-١٢٨٨	عثمان
١٤١٣-١٤١٢	موسى	١٣٦٢-١٣٢٦	أورخان
١٤٥١-١٤٢١	مراد الثاني	١٣٨٩-١٣٦٢	مراد الاول
١٤٨١-١٤٥١	محمد الثاني الفاتح	١٤٠٢-١٣٨٩	بايزيد الاول
		١٤٢١-١٤٠٢	محمد الاول
		(من ١٤١٣ حاكما منفردا)	

أباطرة اللاتين في القسطنطينية

١٢١٩-١٢١٧	بولاند	١٢٠٥-١٢٠٤	لهووين الاول
١٢٢٨-١٢٢١	روبرت كورتناي	١٢١٦-١٢٠٦	فلاندرز
١٢٦١-١٢٢٧	لهووين الثاني	١٢١٧	هنرى فلاندرز
١٢٢٧-١٢٣١	حنا برين		بيتر كورتناي

لمارة ابيروس

١٢٧١-١٢٢٧	ميخائيل الثاني	١٢١٥-١٢٠٤	ميخائيل الاول
١٢٩٦-١٢٧١	نقفور الاول	١٢٢٤-١٢١٥	ثيودور
١٣١٨-١٢٩٦	توماس	١٢٢٤	دخل سالونيك وأقام
(أنابالولوجس كنتا كوزينوس حكا ١٢٢٣)			امبراطورية في سالونيك
١٣٢٣-١٣١٨	نيقولاى أورسينى	١٢٣٠-١٢٢٤	ثيودور
١٣٥٥-١٣١٣	حنا أورسينى	١٢٤٠-١٢٣٠	بانويل
١٣٤٠-١٣٣٥	نقفور الثاني	١٢٤٤-١٢٤٠	حنا
(١٣٤٠ هزمته بيزنطة و١٣٤٨ ستيفن داسان)		١٢٤٦-١٢٤٤	ديمتريوس
		(مزمه سنة ١٢٤٦ حاكم نيقية)	

حكام البلغار

الامبراطورية البلغارية الاولى

٧٦٤-٧٦٢	تليز	٧٠١-٦٨٠	اسباروخ
٧٦٦-٧٦٤	ساين	٧١٨-٧٠١	تريفيل
٧٦٦	أومير ، توكتو	٧٢٤-٧١٨	غير معروف
٧٧٠-٧٧٦	باجان	٧٣٩-٧٢٤	سيفار
٧٧٧-٧٧٠	تلمرج	٧٥٦-٧٣٩	كورموث
٨٠٣-٧٧٧	كاردام	٧٦٢-٧٥٦	فينش

٨٨٩-٨٥٢	يوريس الاول	٨١٤-٨٠٢	كروم
٨٩٣-٨٨٩	فلاديمير	٨١٤	دوكوم
٩٢٧-٨٩٣	سيمون	٨٣١-٨١٤	أومير تاج
٩٦٩-٩٢٧	بيتر	٨٣٦-٨٣١	ملومير
٩٧٢-٩٦٩	يوريس الثاني	٨٥٢-٨٣٨	برسام

الامبراطورية المقدونية

١٠١٨-١٠١٥	حنا فلادسلاف	٩٧٦-١٠١٤	صامويل
		١٠١٥-١٠١٥	جابريل دادومير

مملكة البلغار الثانية

١٢٩٢-١٢٨٠	جورج الاول	١١٩٦-١١٨٧	أسن الاول
١٢٩٨-١٢٩٢	سيمون	١١٩٧-١١٩٦	بيتر
١٣٠٠	جكا	١٢٠٧-١١٩٧	كالوجان
١٣٢٢-١٣٠٠	ثيودور سفوتسلاف	١٢١٨-١٢٠٧	يوريل
١٣٢٣-١٣٢٢	جورج الثاني	١٢٤١-١٢١٨	إيفان أسن الثاني
١٣٣٠-١٣٢٣	ميخائيل ششن	١٢٤٦-١٢٤١	كولومان أسن
١٣٣١-١٣٣٠	إيفان ستيفن	١٢٥٧-١٢٤٦	ميخائيل أسن
١٣٧١-١٣٣١	إيفان الكسندر	١٢٧٧-١٢٥٧	قسطنطين
١٣٩٣-١٣٧١	إيفان ششن	١٢٧٩-١٢٧٨	إيفان جولو
		١٢٨٠-١٢٧٩	إيفان أسن الثالث

الهرب

٨٩٢-٨٩١	بروفلاف	منتصف القرن التاسع	حنا فلا-تيمير
٩١٧-٨٩٢	بيتر جوشكوفيك	٨٩١	موتيمير

١٢٧٦-١٢٤٢	ستيفان اروس الاول	٩٢٠-٩١٧	بول بروتيفيش
١٢٨٢-١٢٧٦	ستيفان دارجنون		زاخرياس
	ستيفان اروس	٩٥٠-٩٢٧	بروفلاجيتش
١٢٨٢-١٢٢١	الشماني		جسلاف
	ستيفان اروس	٩٥٠-٩٢٧	كلونيميروفيتش
١٢٣١-١٢٢١	الثالث	١٠١٦	حنافلاديمير
١٢٣١-١٢٥٥	ستيفان دوسان		من نهاية القرن العاشر
	(كاذار من ١٢٤٥)	١٠٤٠-١٠٥٢	ستيفان فوسلاف
١٢٥٥-١٢٦٦	كاذار	١٠٥٢-١٠٧١	سيخايل
١٢٦٦-١٢٧١	الملك فوكسين	١٠٨١-١١٠١	قسطنطين بودين
١٢٨٩-١٢٢٧	ستيفان لاذار	١٠٧٣-١١١٤	فوكان
١٤٥٦-١٤٢٧	جورج رانكوفيتش	١١٦٧-١١٩٦	ستيفان نيميجا
١٤٥٨-١٤٥٦	لاذار رانكوفيتش	١١٩٦-١٢٢٨	ستيفان
		١٢٢٨-١٢٣٣	ستيفان رودسلاف

أمراء ارمينية

١٢٨٩-١٢٩٣	هيشوم الثاني	١٠٩٠	روبان الاول
١٢٩٣-١٢٩٤	ثوروس الثالث	١١٠٠	قسطنطين الاول
١٢٩٤-١٢٩٦	هيشوم الثاني ثانية	١١٠٠-١١٢٩	ثوروس الاول
١٢٩٧-١٢٩٨	سمباد	١١٢٩-١١٣٦	ليون الاول
١٢٩٩-١٣٠٥	قسطنطين الاول	١١٤٤-١١٦٧	ثوروس الثاني
	هيشوم الثاني	١١٧٠	روبان الثاني
١٢٩٩-١٣٠٥	البرة الثالثة	١١٧٠-١١٧٥	مليح
١٣٠٥-١٣٠٨	ليون الرابع	١١٨٧-١٢١٩	ليون الثاني
١٣٠٨-١٣٢٠	أوشين	١٢٢٦-١٢٦٩	هيشوم الاول
		١٢٧٠-١٢٨٩	ليون الثالث

ملحق ١

قلج أرسلان الثاني والحملة الصليبية الثالثة

وصل من الكايفكوس وهو مقدم الأرمن وهو صاحب قلعة الروم^(١) رسالة إلى صلاح الدين ينبئته بما تم بين السلاجقة وفردريك بربروسيا والامبراطور البيزنطي أنجليوس^(٢).

وكتاب الداعي المخلص الكايفكوس ، ما اطلع به علم مولانا ومالكنا السلطان الناصر ، جامع كلة الإيمان ، رافع علم العدل والاحسان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، أدام الله إقباله ، وضاعف جلاله ، وصان مهجته وكمل نهاية آماله بعظمته وجلاله .

أمر ملك الألمان وما جرى له عند ظهوره ، وذلك أنه أول ما خرج من دياره ودخل بلاد الهندكر غصبا ، وغصب ملك الهندكر^(٣) بالإذعان والدخول تحت طاعته وأخذ من ماله ورجاله ما اختار ، ثم أنه دخل أرض مقدم الروم ، وفتح البلاد ونهبها وأقام بها وأخرج ملك الروم إلا أن أطاعه ، وأخذ رهائنه ، وولده وأخاه وأربعين نفراً من خلسانه ، وأخذ منه خمسين قنطاراً ذهباً ، وخمسين قنطاراً فضة وثياباً اطلس بمبلغ عظيم .

واغتصب المراكب وعاد بها إلى هذا الجانب ، وصحبته الرهائن إلى أن وصلوا حدود بلاد الملك قلج أرسلان ، ورد الرهائن ، وبقي سائر ثلاثة أيام وزكان الأوج ببقوه بالأغنام والقر والحيل والضائع ، قد أصلهم

(١) الخطب وارد في ابن شداد النوادر السلطانية ص ١٠٧

(٢) لغة الروم : من قلعة حصبة في غربي الفرات شمال البصرة بين جيباط ودهم

البلدان ص ٣٠٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢

(٣) الهندكر : المجر حالياً

الطمع وجمعوا جموعاً من جميع البلاد ، ووقع القتال بين الزكيان وبينه ، وضابطوه ثلاثة وثلاثين يوماً وهو سائر ولما قرب من قونية جمع قلب الدين ولده قلع أرسلان العساكر ، وقصده وضرب معه مضاداً عظيماً ، فظفر به ملك الألمان ، وكسره كسرة عظيمة ، وسار حتى أشرف على قونية ، فخرج إليه جموع عظيمة من المسلمين ، فردد مكسورين ومجروحين على قونية بالسيف . وقتل منهم عالماً عظيماً من المسلمين والفرس ، وأقام بها خمسة أيام وطلب قلع أرسلان منه الأمان فأمنه الملك ، واستقر بينهم قاعدة أكيدة ، وأخذ الملك منه رهائن عشرين من أكابر دولته ، وأشار على الملك أن يحمل طريقه على طرسوس والمصيصة ففعل وقبل منه .

وقبل وصوله إلى هذه الديار اختاراً أو كرها ، اقتضى الحال انفاذ المملوك حاتم وصحبته ما سأل ، ومعه من الخواص جماعة للاقاء الملك وجواب كتابه وكانت الوصية معهم أن يروا به على بلاد قلع أرسلان إن أمكن ، فلما اجتمعوا بالملك الكبير أعادوا عليه الجواب ، وعرفوا الأحوال بالاحراف ، ثم كثرت عليه العساكر وانجوع وزل على شط بعض الأنهار ، وأكل خبزاً ونام ، وابقه فتأقت نفسه إلى الاستحمام في الماء البارد ففعل ذلك وخرج ، وكان من أمر الله أن تحرك عليه مرض عظيم من الماء البارد ، فمكث أياماً قلائل ومات .

وأما ابن لاون فإنه كان سائراً يلقي الملك ، فلما جرى هذا المجرى هرب الرسل من المعسكر وتقدموا إليه وأخبروه بالحال ، فدخل في بعض حصونه واحتسب هناك وأما ابن الملك ، فكان أبوه منذ توجهه إلى قصد هذه الديار ، نصب ولده الذي معه عوضه ، واستقرت القاعدة ، وبلغه

(١) أحد القبائل الزكيانية التي كانت تقيم في آسيا الوسطى وراء سيحون معجم البلدان

هرب رسل ابن لاون فانفذ واستعطفهم وأحضرهم وقال : إن أبي كان شيخا كبيرا ، وما قصد هذه الديار إلا لأجل حج بيت المقدس ، وأنا الذي دبرت الملك وعانيت المشاق في هذه الطريق فن أطلعني وإلا قصد دياره واستعطف ابن لاون واقضى الحال الاجتماع به ضرورة .

وبالجملة فهو في عدد كثير ، ولقد عرض عسكريه فكان اثنين وأربعين مجفقا (١) وأما الرجاله فإحصى عددهم ، ولم أناس متفاوتة على قصد عظيم ، وجد في أمرهم سياسة هائلة حتى أن من جنى منهم جنائيه فليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاه ولقد بلغهم أن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له وجاوز الحد في ضربه فاجتمعت القسوس للحكم ، فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه ؛ وشفع إلى الملك منهم خلق عظيم فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه ، وقد حرما الملاذ على أنفسهم حتى أن من بلغهم عنه بلوغ لذه هجروه وعزروه .

كل ذلك كان حزنا على بيت المقدس ولقد صح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة وحرموها على أنفسهم ، وحرموا ما حل ولم يلبسوا إلا الحديد ، حتى أنكروا عليهم الأكابر ذلك ، وهم من الصبر على الشقاء والذل والتعب في حال عظيم .

طالع المملوك الحال ، وما يتحدد بعد ذلك يطالع به أن شاء الله تعالى .

مجفقا : أى يلبسون النجفاف وهي آلة يلبسها الإنسان أو القرس تصنع من الحديد أو غيره
قوتاة أثناء الحرب وهي كلمة ليست من أصل عربي القاموس المحيط .

ملحق ٢

ذكر ما اشتملت عليه المملكة الرومية
من البلاد الإسلامية أثناء سيطرة المغول

كما ورد في بيريوس الدوادار في زبده الفكر في تاريخ الهجرة
بلد خلاط وأعمالها وتسمى أرمينية الكبرى وكل من تملكها يسمى شاه
أرمن ، ومن مدنها خلاط (١) ، وآن (٢) ، وسطان (٣) وأرجيش ومامعها .

أرزن الروم وأعمالها (٤) :

ومن مدائنها : سهر وبابرت وقجازه وتسمى دار الجلال .

مدينة التي وأعمالها (٥) :

وهي متصلة ببلاد الكرج (٦) وتخومها وهي ذات قلعة حصينة منيعة .

أرزنجان وأعمالها :

ومن مدائنها أقشهر (٧) ودرجان وكلاخ وقلعة كغزنية وما مع ذلك .

(١) قصة أرمينية الوسطى ياقوت معجم البلدان ج ١ ص ٤٥٧
(٢) آن في وادي بالقرن من الساحل بين الصلا ومدن ومنها عين يقال لها آني - ياقوت
معجم البلدان ج ٢ ص ٣٩٧ .

(٣) من البلاد أرمينية على حافة بحيرة أرجيش - أبو الفدا تقويم البلدان ص ١٩٧
(٤) أرزن الروم آخر بلاد الروم من جهة الشرق - أبو الفدا تقويم البلدان ص ٢٨٤
(٥) قلعة حصينة ومدينة قرب تفليس بينها وبين أرزن الروم - ياقوت : معجم البلدان

ج ١ ص ٣٥٧

(٦) الكرج : جورجيا حاليا .

(٧) اق شهر : وأحيانا يقال قشارومي شمال قونية - الفلكسندى : مرجع لأعشى

ج ٤ ص ٣٧٢

ديار بكر وأعمالها :

ومدنها المشهورة خربت (١) ومنطية وشميصات (٢) ومشار وغيرها .

سيواس وبلاد دانشمند :

ويسمى دار العلاء ومن أعمالها نكيسار وأماسية وتوقات وفئات وبلاد أنكورية (٣) ومدينة سامسون وقلة سنوب (٤) وكستونية (٥) وطرخلو وبرلو ، وهذه متصلة بسواحل البحر المحيط .

قيسارية وأعمالها :

ونكة وعراقلية وبلاد أرمناك وبها ابن منقش .

مدينة قونية وأعمالها :

وظنفلوا (٦) وأعمالها وقراحصار (٧) ودمرلو وأقصر (٨) وانطاليا والعلايا (٩) .

(١) خربت : تعرف حصن زياد وهي بلدة بارمينية المعمرى بالقرب من خلاط القلندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٢٢

(٢) شميصات أو شمياط : هي بلدة من ديار مصر وقيل من ديار بكر في الجزيرة : القلندي صبح الأعشى ج ٤ ص ٣١٩ .

(٣) أنكورية : أنقرة حاليا .

(٤) من سواحل الروم على بحر القرم — القلندي صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٤٨ .

(٥) كستونية : جنوب سنوب شرق أنكورية — القلندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٤٨

(٦) قيسارية : كان بها مقر سلطنة السلاجقة وهي مدينة كبيرة من بلاد الروم ياقوت

معجم البلدان ج ٤ ص ٢١٤ .

(٧) ظنفلوا : مدينة متوسطة في وسط هذه البلاد : القلندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٤١

(٨) قراحصار : اسم لأماكن كثيرة ومدن جليلة غالبيتها ببلاد الروم منها قراحصار على روم من أنطاكية ومنها قراحصار قرب قيسارية وهي المقصودة .

ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٤٣

(٩) العلايا : بلدة صغيرة في انطاليا على دجلة بحر الروم وهي على تلك البلاد في جنوب

انطاليا تنسب إلى علاء الدين علي من ملوك بني سلجوق

القلندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٤٧ .

ملحق ٣

معركة ابليستان كما وردت في

جامع التواريخ : رشيد الدين فضل الله الهمذاني

المجلد الثاني الجزء الأول

في سنة ٦٧٤/١٢٧٥ م سار ضياء الدين وابن خطير وابن بروانه مع
مائة رجل من ولاية الروم نحو ركن الدين البندقدار بناحية الشام
وحرصوه على السير إلى بلاد الروم فتوجه إلى تلك البلاد مع جنود
مجهزين في سنة ٦٧٥/١٢٧٦ . وخرجوا عن طريق جبال ابليستان
على جبال ابليستان .

وكان قد عسكر في تلك الحدود من أمراء المغول توقوين ايلكاي نويان
وأخوه أورتقو وتوادون بن سودون من قوم سلدوس وأخو سونجاق نويان ،
ومع كل منهم عشرة آلاف جندي ، فتلاقى الجيشان في يوم الجمعة العاشر
من ذي القعدة من السنة المذكورة الموافق الثاني عشر من شهر ربيع
من سنة ٦٧٥ هـ ، وكان البرد قارسا ، فترجل توقو وتودوان ونزل مع
الجنود ، وحاربوا حربا طاحنة ، ولكن جيوش المغول انهزمت بعد الظهيرة ،
ولم ينج إلا قليل منهم .

ثم قدم البندقدار إلى قيصرية ، وأقام هناك أسبوعا وضرب السكة
وجعل الخطبة باسمه ولقد ضاق أمر العلف على الجنود ، وكان معين الدين
بروانه قائما على قلعة توقات فأرسل إليه البندقدار رسولا لاستدعائه
لم يلعب فداه ، فقتل البندقدار بعض النصارى والأرمن ثم رجع . وقد
وضعت العوائق في طريق الفرسان المصريين فترجل كثير منهم .

بعد ذلك قدم المدعو بوكداي من خدم توداون ، وشرح لآباقان
خان ما حدث فغضب آباقان خان غضب شديد ، وسار في نفس اليوم من

دار الملك بتبريز متجها نحو بلاد الروم في شهر صفر سنة ٦٧٦/٢٧٧ هـ .
 الفصل ربيعاً ، فلما بلغ أبلستان وآقجة حظى بالثول لدى السلطان غياث
 الدين مع صاحب نغر الدين الأصفهانى . وعندما رأى القتلى مكسدة
 أجسادهم فى أبلستان بكى عليهم ، وحزن على توفى وتودان حونا شديدا .
 وبدافع الغضب قتل طائفة من التركان الذين كانوا قد أثاروا الفتن ، كما قتل
 طائفة من أعيان الروم وأمر جنوده بأن يباشروا القتل والنهب فى بعض
 بلاد الروم . وقد اشترى صاحب شمس الدين الجوينى بعض الأراضى فى
 المدن . وكان من جملة ما نهبوا نصف مدينة سيواس : وتشفع صاحب
 شمس الدين حتى لا يأخذ الملك العادل العامة بجرائم الخاصة ، فوفقت
 شفاعته موقع القبول وتجاوز آباқан خان عن ذنبهم . وقد استشهد
 نور الدين حرنكى وظهر الدين أبى هود . ثم عزم ابقاخان على السير
 نحو الشام . وكان ذلك فى أشد أيام الصيف فقال الأمراء : « أن أواخر
 الحريف والشتاء أنسب لتلك الحملة » فتركت لذلك السبب ، وأرسل رسولا
 إلى البندقدار على سبيل التهديد والتخويف فقال : « إنكم تنقضون نجاة
 كاللصوص وتطاردون فرساننا وحلائقنا وتقتلون بعضهم ، فإذا ما بلغتنا
 الأخبار تحركنا لصدكم تفرون كاللصوص ، فإذا كنتم تريدون لقاءنا وقتالنا
 فادخلوا الميدان كالرجال وثبتوا الأقدام .

تعالى لى ترى سنانى وتنظر إلى التسواء عنانى
 فإن كنت جلافتها من أساسك وإن كنت حجرا فلن تستقر ومكانك
 وإنى شاهدت المقاتلين يامن لم يسمع عوام شعالب

وإن لم تأتى فإن جيوشنا مستعدة لقتالك فى طليعة الشتاء ، وإذا امتدت
 نار غضبنا إلى بلاد الشام ، فإنها بلا ريب سوف تأتى على كل ما لكم من
 اخضر وبابس ، لأن الله الأزل قد وهب جنكيزخان وخرتة بلاد العالم .

وَأدخل السراة المتمردين في ربة طاعتنا وكل من يخالف أهل الإقبال تكون مخالفته دليلا على الأدبار .

وعندما وصل البندقدار إلى دمشق ، وكان قد رأى من قبل الرسول عليه السلام وقد قتله سيفا ، جلس في ذلك الأسبوع على عرش السلطنة وحينئذ رأى الرسول مرة أخرى في المنام يقول له : رد إلينا وديعتنا واسترد منه السيف ومنحه الملك المنصور السلطان سيف الدين قلاوون المعروف بالآلني ، فاستدعاه وقال له أحسن لأبنائنا عندما تسير ملكا . ثم توفي بمدينة دمشق في شهر ذي الحجة سنة ٦٧٦ - ١٢٧٨ ودفن في المدينة التي أقامها هناك .

ولقد عهد آبا قان خان ببلاد الروم إلى الأمير د قورتكورتاي ، ومعه جيش كامل حتى يحافظ عليها من الأعداء : وأمره بأن يهدم قلعة د توفان وحصن كو غانية الذي كان دار معين الدين بروانه ، ثم عاد إلى الأناغ في سنة هـ ٦٧٦ / ١٢٧٨ م . وقد قدم بروانه إلى المعسكر خائفا ملما ، فقال الأمراء أنه متهم بارتكابه ثلاثة جرائم : الأولى أنه هرب من الأعداء ، والثانية أنه لم يخبر قواد المغول على الفور بمجيء البندقدار والثالثة أنه لم يحضر سريعا إلى الحضرة .

وصفوة القول أن الأمر قد صدر بأن يبق بروانه تحت الحراسة ولما عاد الرسل من لدن البندقدار ذكروا أن البندقدار يقول : لقد أقبلت بناء على استدعاء بروانه ، لأنه كان قد وعدني بأن يسلمني بلاد الروم حينما أحضر ، ولكنه لاذ بالفرار بعد أن حضرت هناك .

فلما بلغوا آبا قان ذلك الكلام أمر بقتله ، فاستشهد في غرة ربيع الأول سنة ٦٧٦ / ١٢٧٧ م في مصيف الأناغ على يد كوجك توغجي .

الحملة الصليبية الثالثة

(١١٨٩ - ١١٩٠)

كما وردت في تاريخ أوتو البلاسني^(١)

كان الوضع بالنسبة للحملة الصليبية الثالثة يختلف عما عهدناه مع الحملات الصليبية السابقة فالعلاقات بين الأطراف في المنطقة قد تغيرت تغيرا جذريا بعد وفاة نور الدين حيث استقل صلاح الدين بمصر وتزعم حركة الجهاد؛ وفي معركة حطين (يوليو ١١٩٧) هزم الصليبيين واستولى على بيت المقدس . وكان من الطبيعي أن يثير سقوط بيت المقدس في أيدي المسلمين العالم الغربي بأجمعه والبابوية خاصة التي طالبت ملوك الغرب بالإسراع إلى نجدة المسيحيين في الشرق . فاستجاب لهذه الصرخة وانشاد قلب الأسد ملك إنجلترا وفيليب أغسطس ملك فرنسا وفريدريك باربروسا امبراطور ألمانيا . وكان موقف بيزنطة قد تغير تجاه الحملات لما حدث بينها وبين الصليبيين من خلافات . فمقعد إسحق أنجليوس اتفاقا مع صلاح الدين ضد سلطان قونية ، العدو المشترك ، الذي تحالف بدوره مع فريدريك امبراطور ألمانيا ولكن قبل قدوم الحملة تم تقسيم المملكة بين أبنائه وتزوج ابنة قطب الدين ابنة صلاح الدين وبذلك لم توضع المعاهدة موضع التنفيذ .

عبور فريدريك إلى آسيا الصغرى

والآن لما كان الامبراطور الإغريق غير قادر على مواجهة قوة فريدريك فقد استدرك ما كان قد فعله ودخل في معاهدة معه . كما قام بتهدئة الجيش بأمداده بالمؤن . وبذلك وبعد أن تصالح مع فريدريك نقله مع جيشه عبر البر^(٢) بونس (٢٢ - ٢٨ مارس ١٩١٠) من جاليولس . وهنا دخل فريدريك بجيشه إلى آسيا . وسار لبعض الوقت ولاقي النجاح في كل

Otto of st. Blasien trans Tatcher (A source Book for (١)
Mediaeval History)

(٢) بحر صرمرة

مكان وخضع له كل شعب رومانيا (غرب آسيا الصغرى) . وعندما اقترب
الامبراطور من قونية نقض السلطان معاهدته وأمر بأن تحمل كل المؤن
إلى القلعة ومثل البرابرة والسكتيين رفض أن يبيع المؤن للجيش . وقامى
الجيش من الجوع واضطروا لأن يأكلوا لحوم البغال والحمير أو الخيول .
بالإضافة إلى ذلك فقد هاجم الوثنيون المؤخرة وأولئك الذين خرجوا
لرعى دوابهم قتلوا بعضهم . وبهذه الطريقة عطلوا الجيش وأرادت قواتنا
أن تواجه البدو في معركة مفتوحة بل خرجوا أحيانا للمعركة ولكن
البدو كانوا ينسحبون دائما ويرفضون الاشتباك في معركة شاملة . والآن
رغم أن الجيش كان مستاء من هذه الطريقة وكان يقامى من الجوع
والحاجة إلا أن الامبراطور حفاظا على المعاهدة مع السلطان ، منع جيشه
من تدمير ونهب البلد وذلك لأنه اعتقد أن الناس كانوا يهاجمونه بدون إذن
السلطان . ولكنه حين علم من الرسل أن السلطان قد غدر به وأمر الناس
بمهاجمته غضب وأعلن أن السلطان عدو وسمح للجيش بالإنتقام .

فدمر قليقية وبامفيليا و فيرجيا بالتذريح والنهب والنار والسيوف بينما كان
الجيش الوثني ينسحب باستمرار من أمامهم . واتجه الجيش الآن نحو قونية ، التي
كانت عاصمة لقلقية والمقر الرئيسى للسلطان ، وأخذها بسرعة (١٨ مايو ١١٩٠) .
وكانت مدينة مزدهرة بالسكان ومحصنة جيدا بأسوار قوية وأبراج
عالية وفى وسطها قلعة حصينة . كما كانت مزودة جيدا بالمؤن ضد أى
حصار بينما جرّد الريف من حولها من المؤن وذلك حتى إذا جاء الامبراطور
فإنه سوف لا يستمر كثيرا فى حفظ جيش هناك .

ولكن الله محابوهم حتى أن النتيجة كانت عكس ما ابتغوه . حيث أن
الامبراطور هاجم المدينة فجأة بعنف شديد قبل الساعة الثالثة من اليوم (الساعة
الثالثة بعد الظهر) . ووضع السيوف فى كثيرين من الجنسين وكل الأعمار .
ولجأ السلطان مع كثيرين من تلاميذه إلى داخل القاعة التى بدأ الامبراطور

في حصارها في نفس اليوم . والآن ، رأى السلطان أنه لا يوجد شيء يمكن أن يصد قوة الألمان وأن أولئك ، مؤيدين بقوة إلهية فقد احتقروا الموت وبدون تردد هاجموا كل شيء وقف في طريقهم . ولذلك بعد أن تعلم من التجربة الخطيرة وغان أنه من الضروري أن يطلب السلم من الأباطور وأعطى رهائن . وبعد عقد السلام أعيدت مدينة قونية وملكته إليه .

سقوط القسطنطينية كما ورد في كتاب كريثولوس « تاريخ محمد الفاتح »

كريثولوس مواطن لأغريق من جزيرة أمبروز شمال البحر الإيجهي دخل في خدمة محمد الفاتح بعد سقوط القسطنطينية وتولى ولاية ذلك الإقليم وكتب تاريخاً لمحمد الفاتح شمل السنوات السبع العشر الأولى من حكمه ولقد لقي كريثولوس هجوماً من مواطنيه الإغريق المعاصرين له والمحدثين لأنه جعل من الرجل الذي احتل بلاده بطلاً ولكن المؤرخون الغربيون أنصفوه Robert College ; Van Millingen فعدوا مؤلفاته أفضل من مؤلفات يونانية أخرى كفرانتيز وخالكندبولنز ودوكاس ، والمخطوطة الأصلية للكتاب اكتشفت في ١٨٦٥ وموجودة بمكتبة متحف سريجا ليو بتركيا (١) .

الخطة والقرار

رأى السلطان محمد أن يمد عدة لحركته التالية وهي الاستيلاء على الميناء وفتح القرن (٢) بسلاحه لاستخدام سفنه ، ولكي جميع جهوده

(١) Kritovoulos : History of Mehmed the Conqueror trans- Charles (١) Riggs a princeton 1954

نكتب محمد وفق النطق التركي .

(٢) القرن الذهبي . في الشهور الأخيرة في سنة ١٤٥٢ كان محمد قد أعد الخطة النهائية للاستيلاء على القسطنطينية وأرسل السلطان رسالة إلى المدينة يطلب فيها الاستسلام مقابل تأمينهم على أنفسهم ، ولكن الأباطور وأهل القسطنطينية لم يتقوا بعود محمد هذا بل

لاقتحامه بأمت بالقشل ، واتخذ قراراً حكيم خليف بذكانه وقوته ونجح في تحقيق غرضه ووضع نهاية لهذه الأمور .

أمر رؤساء المراكب بأقامة طريق منجدر من خارج البحر من ساحل الميناء إلى مكان يسمى ديلسكيون وإن يغطى بكتل الخشب . وهذا الطريق مغطى بالماء ويعتمد إلى المنطقة الداخلية ، وانتهى من الإعداد بسبب العدد الكبير من العمال الذين أحضرم وأحضر عدداً كبيراً من السفن ووضع تحتها أوتاد تحمل السفن . ووضع دعامات على كل جانب من الجوانب وربطوها بالجمال . وربط دعامات سلكية في الجوانب وشد بها السفن عن طريق الجند او بواسطة آلات .

وسحبوا السفن يبطه وتبعها الفرسان . وظهرت السفن بالجنود على الأرض كما كانت في البحر وبعضها رفع أشرعه كما لو كان سيبحر وبعض الجند جلس على المقاعد وحمل سلاحه وسهامه كما لو كانت ستطلق والرؤساء يصدرون أوامرهم للرماة ، وحملت السفن في الأرض كما تحمل في الماء . بعضها جذب إلى قمة التل في حين الباقي أنزلوا إلى المياه وبدؤا لمحارم بالضوضاء .

الاستيلاء على المدينة

وكما يقال قادم بنفسه ، وارتفع صياحهم في الممر ، بصراخ مخيف وذهبوا رأساً إلى السلطان عند السياج وبعد قتال عنيف طردوا الرومان من هناك وتساقوا السياج بالقوة ، وأسقطوا بعضاً من أعدائهم من السور الكبير والسياج في الفجوة العميقة والتي من الصعب الخروج منها . وقتلهم هناك والباقي طردوم إلى البوابة

== الهجوم البحري ولكنه فشل وذلك م فكر في الاستيلاء على القرن الذهبي وقرر نقل فونه وسفنه عبر الأرض التي بها القرن الذهبي عبر ريو ترفه عن البحر مائة قدم ، وبفضل مائديه من قوات ومعدات خلق طريقه إلى بودى ورفضت سفن من البحري اشاطى بواسطه أوتاد جرتها تيران إلى الجانب الآخر .

وفاة الامبراطور قسطنطين

وفتحوا البوابة في السور الكبير وذهبوا رأساً إلى السياج وكانت معركة كبرى قتل فيها من تمرکز هناك ، فقد هاجم المشاة من المسلمين ولم يتعرض الآخرين في التكوينات المنتظمة والذين خرجوا من أما كنهم بسبب الصباح انفس المصير ، وسقط الإمبراطور قسطنطين وكل من كان معه بعد صراع عظيم .

واندفع المشاة خلال البوابة إلى داخل المدينة وبعضهم اندفع خلال الثغرة إلى السور الكبير واندفع الباقون خلال الثغرة وأثاروا ضجيجاً خلال المدينة ، ووقف السلطان على الأسوار وكانت الصفارات والأعلام مرفوعة وراقب السلطان ما يحدث .

الهروب وقتل الكثير

وحدثت مذبحه كبرى لأولئك الذين كانوا هناك بعضهم كان في الطريق حيث تركوا منازلهم واندفعوا إلى مكان الضوضاء فسقطوا تحت سيوف الجنود ، والبعض الآخر كان في منازلهم وسقطوا ضحايا لوحشية الانكشارية والجنود الآخرين بلا سبب ولا جريرة .

والبعض الآخر قاوم إعتادا على شجاعتهم والبعض الآخر هرب ولجأ إلى الكنائس واحتسب بها رجال ونساء وأطفال ولم يعطوا مأوى ، وهجم عليهم الجند بلا رحمة دافعهم لذلك صعوبة وطول الحصار ، وكان بعض الأغنياء من الشعب قد سبهم ولعنهم أثناء الحصار . وعامة قتل الكثير لانارة الفرع في المدينة والرعب واستعدادهم بالمذابح ولما اكتفوا من القتل واخضعوا المدينة للمبودية عاد بعضهم إلى مستقرهم لتقسيم الفنائم والأفراد ، والبعض الآخر ذهب لسرقة الكنائس ، والبعض إنتشر في المنازل العادية للأهالي يسرق ويقتحم ويمضى ، ويسبوا الرجال والنساء والأطفال كباراً وصغاراً رهباناً وفسماً ياخضار أفراد من كل الأعمار وكل الطبقات .

المراجع العربية

ابن تغرى بردى : (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (مطبعة دار الكتب ١٩٣٩)

ابن العبرى : (غريغوريوس الماطى) تاريخ مختصر الدول (بيروت ١٩٥٨)

ابن حوقل : المسالك والممالك (لندن ١٨٧٠)

ابن حجر العسقلانى : (شهاب الدين بن على)

أقباء الغمر بأقباء العمر جزءان (مخطوط دار الكتب المصرية)

ابن شداد : (القاضى بها الدين) النواد السلطانية والمحاسن اليوسفية

ابن العديم : (جمال الدين عمر بن أحمد) زبدة الخلب فى تاريخ حلب ٢ جزء

(دمشق ١٩٤٥ - ١٩٥١) نشرها سالى الدمان

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨)

ابن وأصل : (جمال الدين محمد بن سالم) مفرج الكروب فى أخبار بن أيوب

القاهرة ١٩٦٠ نشره وحققه جمال الدين الشيال حتى نهاية سنة ١٩٦٥ هـ

فى ثلاث أجزاء

ابن الأمير : (عز الدين أبو الحسن على الجزوى)

الكامل فى التاريخ ١٢ جزءا (القاهرة ١٣٥٧)

أبى إياس : (محمد بن أحمد) بدائع الزهور فى وقائع الدهور

(بولاق القاهرة ١٣١١ هـ)

أبو شامة : (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدسى) الروضتين فى أخبار

الدولتين (القاهرة ١٢٨٧ هـ)

ذيل الروضتين (القاهرة ١٩٤٧)

أبو الفدا : (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل) المختصر فى أخبار البشر المعروف

بتاريخ أبى الفدا (القاهرة ١٢٣٥ هـ)

- الأصفهاني: (عماد الدين محمد)
تاريخ دولة آل سلجوق ٢ جزء (القاهرة ١٣١٨ هـ)
الأنطاكي: (يحيى بن سعيد)
التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق (بيروت ١٩٠٩)
أسد رستم: الروم (بيروت)
بارتولد: (تاريخ الترك في آسيا الوسطى) ترجمة الدكتور أحمد السعيد
(القاهرة ١٩٥٨)
الباز العرني: (الدولة البيزنطية) (القاهرة ١٩٦٠)
البداري: (الفتح بن علي) تاريخ دولة آل سلجوق (القاهرة ١٩٠٠)
البلاخري: فتوح البلدان (القاهرة ١٩٥٥)
البلخي: كتاب البدء والتاريخ (باريس ١٩٥٧)
بيرس الدوادار: (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة)
الجزء التاسع تحقيق زبيدة عطا مخطوط محقق لم ينشر
البيهقي: (تاريخ البيهقي) ترجمة الدكتور يحيى الخشاب (القاهرة ١٩٥٦)
جيمبون: (ادوارد) اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ٣ أجزاء
(دار الكتاب العربي ١٩٦٩) ترجمة محمد علي أبو درة
حسن أحمد محمود، وأحمد إبراهيم الشريف:
العالم الإسلامي في العصر العباسي (دار الفكر العربي ١٩٧٣)
الحسيني (ناصر بن علي): أخبار الدولة السلجوقية (لاهور ١٩٣٣ م)
الراوندي: (محمد بن علي بن سليمان) راحة الصدور وآية السرور في تاريخ
الدولة السلجوقية (القاهرة ١٩٦٠)
زامباور (ادوارد): معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ترجمة زكي حسن
وحسن محمود (القاهرة ١٩٥١)
سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ٢ جزء (القاهرة ١٩٦٣)
مصر في عصر دولة المماليك البحرية (القاهرة ١٩٥٩)

- عبد النعم حسنين : سلاجقة إيران والعراق (القاهرة ١٩٥٩)
الطبرى : (محمد بن جرير) تاريخ الأمم والملوك (القاهرة ١٧٢٦ هـ)
فامبرى : (تاريخ بخارى) ترجمة السادق (القاهرة ١٩٦٥)
قواد عبد المعطى الصياد : (المغول فى التاريخ) (القاهرة ١٩٦٠)
القرمانى (أبو العباس أحمد) أخبار الدول وآثار الأول (بغداد ١٢٨٢ هـ)
القلقشندى : (أبو العباس أحمد) صيغ الأعشى فى صناعة الإنشا ٢٤ جزء -
القاهرة ١٩١٣ .
كلارى : (روبرت) فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ترجمة حسن حيسى
(القاهرة ١٩٦٤)
المسعودى : (على بن الحسين بن على المسعودى) مروج الذهب ومعادن
الجواهر ٤ أجزاء (القاهرة ١٢٨٢ هـ)
المقريزى : (تقي الدين أحمد بن على)
السلوك لمعرفة دول الملوك تحقيق محمد مصطفى زيادة القاهرة ١٩٢٦
الرششى : (أبو بكر محمد بن جعفر) تاريخ بخارى (القاهرة ١٩٦٢)
الهمداني : (رشيد الدين فضل الله) جامع التواريخ (تاريخ المغول) نقله من
الفارسية إلى العربية محمد صادق نشأت وفؤاد الصياد القاهرة ١٩٦٠
ياقوت : (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى) معجم البلدان ٥ مجلدات
(القاهرة ١٣٥٩ هـ)
البيهقوى : تاريخ البيهقوى (بيروت ١٩٦٠)
المقدسى : (شمس الدين أبو عبد الله) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم
(ليدن ١٩٧٦)

المراجع الأوروبية

- Anna Comenena** : The Alexiad trans. E.A.S. Dawes
(London 1967)
- Baker James** : Turkey in Europe (London 1950)
- Baynes, Moss** : Byzantium (Oxford 1962)
- Bernard, Lewis** : Foreword and Acknowledgements outline of Islamic History; Thames and Hudson (London 1976)
- Brand** : Charles. Saladin and Byzantium "speculum 1945 Vol XX "
- Brooks, E.W.** : The Arab in Asia Minor Arabic Lists of the Byzantine themes. Journal of Hellenic Studies Vol XXI
- Bury** : History of the later Roman Empire 2 Vols (New York 1958)
- Cahen (c)** : La Syrie du Nord a l'epoque des croisades (Paris 1940)
- La Campagne de Manzikert d'apres les sources musulmans
(Byzantium IX 1934)
- Cambridge Medieval History (Camb 1957)
- The Cambridge History of Islam 2 Vols (Camb. 1970)
- Chalandon** : Histoire de la premiere croisade (Paris 1925)
- Les Comnenes 2 Vol (Paris 1900-1912)
- Essai sur le Regne d'Alexis Comnene (Paris 1900)
- Constantine VII De administrando imperio trans Hyenkins
(Buctapest 1949)
- Constance Head** Un paleologue inconnu (Byzantium XLI 1971)
- Dichl Charles** History of the Byzantine Empire (NY 1945)
- Dunlop** : The History of the Jewish Khazar (Princeton 1954)
- Encyclopedia of Islam (London 1913)

- Gillard Caston** : The Turks and Europe (London)
- Grousset** : Histoire de l'Arménie (Paris 1947)
- Histoire des Croisades** 3 Vols (Paris 1936)
- Hearsey** : "John" City of Constantine (Great Britan 1963)
- Howorth Henry** : History of the Mongols (London 1880)
- Hussey, J.** : The Byzantine World (N. Y 1957)
- E. M. Janssens** : Le pays de Trebizonde (Byzantion XXXVI 1966)
- John Frana** : The Crisis of the First Crusade to the departure from Arga (Byzantion XXXVI 1966)
- Kritovoulos** : History of the Mehmed the Conqueror trans Charle Triggs (Princeton 1954)
- A. Laiou** : The provisioning of Constantinople During the winter of 1306—1307 (Byzantion Tome XXXVII 1967)
- L'aurent J.** : Byzance et les Turcs seljonoides dans l'Asie (Paris 1919)
- Lemerle P.** : Invasions et emigrations dans les Balkans depuis le fin de Popoquc Romanie
- Michael Psellus** : Chronographia 2 Vols trans Sewter. (London 1931)
- Miller William** : Trebizond the Last Greek Empire (London 1920)
- Essays of the Latin Orient**
- Nicetas Choniates** : History "Bonn 1835" (Camb 1921—1925)
- Norman Itzkowitz** : The Ottoman Empire in the World of Islam (Thames and Hudson) (London 1976)
- Ostrogorsky** : Hist. of the Byzantine State Trans. by Joan Hussey (Oxford 1954)
- D'Ohason** : Hist. des Mongols 4 Vols. Amsterdam (1852)

A. Papa Dakis : Gennadius-II and Mehmet the Conqueror
(Byzantion XXXVI 1966)

Phrantzes : Chronicon Maius trans Loenertz. (1940)

Ramnaud A : L'Empire Grec audixime siecle. (Paris 1870)

Etudes sur l'histoire byzantine 1912

Ramsay W. M : Historical Geography of Asia Minor (London 1890)

Runciman S. : A History of the Crusades 3 Vols. (Camb. 1954)

The Fall of Constantinople. (Camb)

Recueil des Historiens des Croisades Publ. Academie des
Inscriptions et Bells Letters. (Paris, 1841—1905)

Setton : A Hist. of the Crusades. 2 Vols. (Philadelphia)

Stevenson : The Crusader in the East (Camb 1907)

Vasilliev (A). The Byzantine Empire. (Madison 1952)

Villehardouin : La Conquete de constantinople trans. P. Charlot
(Paris 1939)

The Foundation of Empire of Trebizond speculum Journal of
Medieval Studies Vol. XI.

William of Tyre : A History of Deeds Done Beyond the Sea
(Trans. Babcock krey 2 Vols. (Columbia 1943)

Wittek. P. : Deux chapitres de l'histoire des Turcs de Roum.
" Byzantion XI 1936)

ملف خنية
٢٠٠٠

تطلب جميع منشوراتنا من
مؤسسة

دار الكتاب الحديث

للطبع والنشر والتوزيع

الكويت شارع فهد السالم عمارة السوق الكبير

بجوار الماخزن الكبرى محل رقم ٢٥٠ أرضى

ت : ٤٣٦٧٦٥ ص ٠ ب ٢٢٧٥٤

Bibliotheca Alexandrina



0392656